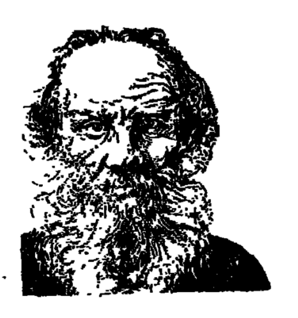

يصدرها
حلمي مراد
مطبوعات كتابي
تقدم العدد الأول من:
مكتبة القصة القصيرة
ترجمة كاملة لمجموعة من روائع
أشهر كتاب القصة العالميين
قصص من
تولستوي

ليو تولستوي :

كلمات الله الثلاث

وقصص أخرى



MASTER AND MAN

BY

LEO N. TOLSTOI

عدد خاص ممتاز

الثمن : ١٥ قرشا

مجموعة كتـــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صـدر منها سـتة وسـتون كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو » ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الا فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـــادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنـــوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليمـا ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـــوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد



الكتاب السادس والستون

كلمات الله الثلاث

وقصص اخرى

ترجمة : زكى شنوده المحامى

الادارة : عمارة الجندول ــ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ــ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة


کلمات اللہ
الثلاث

« نحن نعلم اننا قد انتقلنا من الموت الى الحياة لأننا نحب الاخوة . من لا يحب اخاه يبق فى الموت .. واما من كان له معيشة العالم ورأى اخاه محتاجا واغلق احشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه .

« يا اولادى لا تحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق .

« ايها الاحباء لنحب بعضنا بعضا لأن المحبة هى من الله ، وكل من يحب فقد ولد من الله ، ويعرف الله . ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة.

« الله لم يره احد . ان أحب بعضنا ، فالله يثبت فينا .

« الله محبة ومن يثبت فى المحبة ، يثبت فى الله والله فيه .

« ان قال احد انه يحب الله وابغض اخاه فهو كاذب ، لأن من لا يحب اخاه الذى ابصره فكيف يقدر ان يحب الله الذى لم يبصره . »

(رسالة يوحنا الاولى ــ اصحاح ٣ و ٤)

ــ ١ ــ

● حدث ذات مرة ، ان كان اسكاف يقطن مع زوجته واولاده فى دار أحد الفلاحين ، لأنــه لم يكن يملك دارا ولا ارضا ، وانما كان يعيش من السكافة وحـــدها .. وكان الخبز غاليا ؛ والعمل رخيصا ، فكان ــ من ثم ــ يعيش من اليد للفم ، ويشاطر زوجته ثوبا واحداً من جلد الشـــاة ، وكان هذا الثوب مع ذلك باليا رثا . الا أنه راح ــ فى العامين الأخيرين ــ يقتصد ليشترى جلداً يصنع منه ثوبا جديداً .
فلما أقبل الخريف ، كان قد اجتمع لديه مبلغ ضئيل ــ قدره ثلاثة روبلات ورقية ــ خبأها فى صندوق زوجته .. فضلا عن خمســة روبلات وعشرين « كوبيك » ، كان يدين

بها بعض الفلاحين فى القرية .
وفى ذات صباح ، نهض من نومه ؛ فأفطـــر ، ثم ارتدى سترة زوجته فوق قميصه ، ولبس عبـــاءته الصوفية فوقهما . وأودع الروبلات الثلاثة جيبه ، وقطع لنفســـه عصاة للسير . ثم مضى ، وهو يفكر فى نفسه قائلا : « سوف أحصل — قبل كل شيء — على الروبلات الخمسة من أولئك الفلاحين ، ثم أضيف اليها الروبلات الثـــلاثة التى معى ، فأشترى بالمبلغ جلد شاة أصنع منه ثوباً جديداً » .

واذ بلغ القرية ، راح يطلب الفلاح الأول . ولكنـــه لم يجده فى داره ، وان وعدته زوجته بأنها ستبعث اليه بالنقود قبل انقضاء الاسبوع .. فذهب الى كوخ فلاح آخـر ، الا ان هذا اقسم بالله العظيم انه مفلس . ومن ثم فأن كل ما امكنه — فى ذلك اليوم — هو اقتضـــــاء دين صغير قدره عشرون كوبيك ، اجر رتق حذاء .

وازاء عجز الاسكاف عن الحصول على نقـــوده ، راوده الأمل فى أن يقبل بائع الجلود ان يعطيه جلدا ويمهله فى دفع ثمنه . الا أن البائع رفض قائلا : « أعطنى المبلغ كله نقدا ، تأخذ اى جلد تشاء .. اننا جميعا نعلم كم يصعب اقتضاء دين » .

وهكذا عجز الاسكاف عن ان يفعل شيئا فى ذلك الصباح ، اكثر من حصوله على العشرين « كوبيك » أجر رتق الحذاء ، فوق أنه تسلم حذاء آخر لاصلاحه . فاكتأب لهذه النتيجة ايما اكتئاب ، وذهب الى الحانة فأنفق العشرين كوبيك فى احتساء « الفودكا » ، ثم انكفأ عائدا الى بيته . وكان الجو قد بدا له — فى الصباح — باردا زمهـريرا ، الا انه أحس — وهو عائد — بالدفء يسرى فى أوصاله ، فلم يعد بحـاجة

حتى لأى رداء . ومن ثم راح يحدث نفسه ، وهو يمشى ضاربا أكوام الجليد بعصاه التى كان يمسكها بأحدى يديه ، ومؤرجحا الحذاء من رباطه باليد الأخرى ، قائلا :

ــ أننى لأشعر بالدفء التام دون جلد شاة . لقد شربت قدرا ضئيلا جدا ؛ ومع ذلك فأنه يفور ويغلى فى عروقى . نعم ، لست بحاجة الى جلد شاة . فأنا الآن على خير ما يرام . فما الذى يضايقنى ؟.. ان فى أمكانى أن أروح وأجىء دون هذا الثوب . فلن اريده طول حياتى . **فقط هنالك ــ بالطبع ــ زوجتى .. فانها لن تفتأ مكتئبة لذلك . حقا ، أنه لمن المخزى أن تصنع شيئا لشخص ما ، ثم لا يعطيك شيئا !..** ولكن ، صبرك يا صديقى الفاضل . فان لم تأتنى بنقودى هذا الاسبوع فسأطيح بغطاء رأسك .. بالله العظيم سأفعل ذلك !.. وذاك الآخر كذلك ، لقد دفع لى عشرين كوبيك حقيرة ، فماذا يملك المرء أن يفعل بعشرين كوبيك ؟.. يشرب بها . هذا كل ما هناك . لقد أقسم أنه مفلس .. ولكن ، كان يجب أن اقول له : « أنت مفلس اذن ، ولست على ما يرام ؟.. ولكنك تملك كوخا ، وقطيعا من الأغنام ، وكل شىء . أما أنا فلا أملك الا الجلباب الذى على بدنى .. انت تزرع قمحك ، أما انا فمضطر لأن اشتريه .. مضطر لأن أدفع ثلاثة روبلات فى الاسبوع لأجل الخبز وحده . وحين أبلغ بيتى اليوم سيكون الخبز قد نفد .. ولا مناص من أن أنفق روبلا ونصف روبل أخرى .. ادفع لى ما عليك !

***

هكذا راح الاسكاف يحدث نفسه وهو يمشى ، حتى اقترب من الكنيسة القائمة على جانب الطريق ، عند المنحنى

.. وهنالك لفت نظره شيء ما ، يبدو أبيض اللون فى الظلمة الجاثمة ، فراح يحدق ثم يحدق فى ذلك الشيء الذى لم يكن يتبينه ، قائلا فى نفسه : « لم تكن هنا أية صخرة أو ما اليها ، فهل هو ثور يا ترى ؟ .. كلا . انه لا يبدو كذلك . انه يبدو ذا رأس كرأس الانسان ، ولكنه أبيض .. كله . ثم ، ما الذى يجيء بانسان هنا ؟ »

اقترب خطوة أو اثنتين ، وقد اصبح فى امكانه الآن أن يميز ذلك الشيء . **فيا للعجب ! .. انه رجل .. انه ــ سواء أكان حيا أو ميتا ــ رجل يجلس بلا حراك ، وهو عريان تماما ، وظهره الى الكنيسة** .. اضطربت أعصاب الاسكاف وهو يقول فى نفسه : « لابد ان احدا قتله ، واخذ نقوده ، ثم القى جثته هنا .. فاذهب ، حتى لا تكون الضحية التالية ! »

وانطلق الاسكاف مبتعدا عن الكنيسة ، حتى اختفى الرجل عن نظره .. الا أنه ما لبث أن توقف ، ورجع خطوة أو اثنتين ، ثم راح يحملق مرة أخرى ناحيته ، وقد رآه يجلس منتصبا ، ويحرك جسده جيئة وذهابا كأنما يتفرس فيه ويحاول أن يبصره . فازداد خوفه وراح يحاور نفسه قائلا : « هل أقترب منه أو أذهب ؟ .. اذا اقتربت منه فالله وحده يعلم ما الذى قد يحدث لى ، من أين لى أن أعرف من عساه يكون .. انه لا يمكن أن يقصد خيرا فى هذا المكان ، واذا اقتربت منه فقد يثب علي ويخنقنى قبل ان أنجو بنفسى .. **وحتى اذا لم يخنقنى ، فقد تنشب بيننا معركة حامية . ماذا يملك المرء أن يفعل مع رجل عريان ؟ لن استطيع أن أتخلص منه حتى يأخذ كل ما عندى .. فليحمنى الله ! »**

واسرع الخطى ، حتى أوشك أن يتجاوز الكنيسة ، الا ان ضميره بدأ يؤنبه ، وراح يقول فى نفسه : « ماذا جـــرى لك ياسيمون ؟ .. قد يكون الرجل بائسا يعالج ســـكرات الموت ، فمالك تبتعد عنه هكذا ، كما لو كنت خائفا منه ؟ .. هل أنت الى هذا الحد عظيم الثروة ، حتى تتحوط ممن عساه ان يسرق كنوزك ونفائسك ؟ .. ياللعار يا سيمون ! »

— ٢ —

وعاد فاقترب من الرجل ، وراح يتفرس فيه ، واذذاك تبين أنه شاب فى مستهل حياته ، وأن جسمه سليم لا أثر فيه لأى اعتداء أو عنف .. وقد بدا مرتجف الاوصال من البرد والخوف ، وهو جالس يحدق أمامــه دون أن يلتفت الى الاسكاف الذى راح يقترب منـــه .. وكأنما كان من الضعف بدرجة يعجز معها عن أن يحول عينيه ناحيته . على أنه — ما ان وصل سيمون اليه — حتى رفع رأسه فجأة ، وكأنه أفاق لتوه من أغماء طويل ، وفتح عينيه على سعتهما وحدق بهما فى وجه سيمون . وعندئذ بادر هذا فى الحال ، فألقى بالحذاء الذى كان فى يده ، وراح يخلع العبـاءة التى عليه قائلا : « ما هذا ؟ .. ينبغى أن يكون لك ما تســتتر به . هيا ! » . وأمسك بالرجل من تحت ابطيه ، وحاول أن يرفعه . بيد أن الرجل انتصب دون معـاونة ، وقد تبين سيمون — عندئذ — أنه نحيف ونظيف ولا اثر فى رجليه أو ذراعيه لأى اعتداء ، ووجهـــه هادىء ولطيف . وقد القى الاسكاف عبــــاءته على كتفى الرجل ، حتى اذا الفاه يجد صعوبة فى العثور على كميها ، أعانه على ادخال ذراعيه فيهما ، وحبك الرداء وأحكمه حوله . ثم خلع قلنسوته البالية وكاد

ان يضعها على رأس الرجل العارى ، لولا ان شعر فى هـذه اللحظة بالبرد يقرص جلد رأسه ، ففكر فى نفسه قائلا : ((اننى اصـلع تماما ، فى حين انه ذو شـعر طويل مجعـد)) ..
ثم أعاد قلنسوته الى رأسه ، وعاد يقـول فى نفسه : « لعل الافضل أن البسه هذا الحذاء » . ثم جلس والبسه اياه ، والتفت اليـه قائلا : « والآن قم يا أخى ، وسر معى لتشعر بالدفء . ولكن ، هل تقوى على الحركة ؟ »

فنظر الرجل بلطف الى سيمون ، ولكنه لم يقل شيئا ، فسأله هذا قائلا : « لماذا لا تتكلم ؟.. لن يمكننا أن نقضى الشتاء هنا ، فتعال معى الى بيتى !.. توكأ على عصاى اذا كنت تستشعر الضعف ، وهيا يا صديقى ! »

وعندئذ نهض الرجل ومشى فى سـهولة ، دون أن يتمهل .. وفيما كانا يسيران ، سأله سـيمون قائلا : « من اين اتيت ؟ » . فأجابه قائلا : « من غير هذا المكان » .

ــ اننى ادرك هذا ، فأنا أعرف أهل هذه الناحية جميعا . ولكن ما الذى القى بك هنا بجانب الكنيسة ؟

فأجابه قائلا : **((لست أملك أن أقول))** .

ــ لابد أن أحدا هاجمك اذن !

ــ كلا . لم يهاجمنى أحد . وانما كان الله يعاقبنى !

ــ طبعا ، كل شىء يأتى من الله ، وعلينا أن نذعن لمشيئته . ومع ذلك فالى اين كنت ذاهبا ؟

ــ الى هنا !

واستولت الدهشة على سيمون ، لأن الرجـل لم يكن يبدو ماكرا ولا خبيثا ، بل كان مؤدبا فى كلامه ، وان أبى أن يقول شيئا ابدا عن نفسه . فقال سيمون فى نفسـه : « هيهات للانسان أن يعرف كيف تجرى الامور فى هـذا

العالم ! » . ثم استطرد قائلا لرفيقه : « حسنا . تعال الى منزلى الآن .. ولك أن تمضى الى حيث شئت فيما بعد » .

وواصل السير ، فلم يبد الغريب أية محاولة لأن يتركه ، وانما سار بجانبه . وكانت الريح قد بدأت تهب وتتسرب خلال ثوب سيمون ، فأودت بأثر الخمر التى كانت تدفئه وتركته يرتجف ويلهث من البرد ، وهو يوسع الخطى ، ويحكم لف نفسه بسترة زوجته ، قائلا فى نفسه : « هذا هو الذى صنعه بى ذلك الجلد العزيز !.. لقد خرجت لابتياعه، وها أنذا عائد بلا شىء ، ولا حتى برداء ادثر به ظهرى .. فضلا عن اننى اتيت معى برجل عريان !.. اننى لخائف من غضب ماترينا » .. واربكته هذه الفكرة الاخيرة وآذت اعصابه .. الا انه حين أدار عينيه الى الرجل الغريب ؛ تذكر النظرة التى رمقه بها عند الكنيسة ، ووثب قلبه من الفرح .

- ٣ -

• كانت زوجة سيمون قد انتهت من واجباتها مبكرة فى ذلك اليوم ، فقطعت الاخشاب للنار ، وأحضرت الماء ، وأطعمت الاطفال ، واعدت لنفسها شيئا تأكله . ثم راحت تسائل نفسها : هل تصنع الخبز اليوم أو غدا ؟.. كانت قطعة كبيرة منه قد تبقت ، فقالت لنفسها : « اذا تناول سيمون الغداء فى الخارج ، فلن يأكل كثيرا فى العشاء ، ومن ثم فسيتبقى من الخبز شطر للغد » .. وراحت تدير قطعة الخبز بين يديها ، ثم حزمت رايها قائلة : « لن أصنع خبزا اليوم ، فلم يبق من الادام الا ما يكفى رغيفا واحدا . وعلى ذلك ففى امكاننا أن ننتظر الى يوم الجمعة » .

ومن ثم وضعت قطعة الخبز جانبا ، وجلست الى المنضدة

تخيط رقعة فى قميص زوجها . وبينذاك راحت تفكر فى سيمون ، متسائلة عما اذا كان قد اشترى جلد شاة لصنع ثوب جديد . وقالت فى نفسها : ((أرجو ألا يغشه بائع **الجلود ، فزوجي ساذج جدا ، ولا يمكنه أن يغش أحدا ، وان كان فى وسع طفل صغير أن يقوده من أنفه** . وليست الثمانية روبلات بالمبلغ البسيط ، فهى كافية لشراء جلد جيد . لقد قضيت الشتاء كله بغير ثوب .! فلم يكن بوسعى أن أذهب الى الترعة ، أو الى أى مكان .. وحتى هذا الصباح ، خرج سيمون بكل ثيابنا ، ولم يترك لى ما البسه . وهاهوذا قد تأخر فى العودة كذلك .. لقد آن له أن يعود ؛ وأرجو الا يكون قد ذهب يلهو ويسكر ، ذلك العربيد » !

على ان هذه الفكرة لم تكد تخطر لها ، حتى سمعت وطء الاقدام على السلم فى الخارج ، فخرجت الى السردهة . وهنالك أبصرت شخصين يدخلان .. احدهما زوجها ، والآخر رجل عارى الرأس ، يغيب قدميه فى خفين من اللباد .

وللتو ، لمحت تلك البسمة التى ترتسم على وجه زوجها حين يشرب الفودكا ، فقالت فى نفسها : « لقد كان يعربد اذن » !.. حتى اذا تبينت أن عباءته ليست عليه كذلك ، ولا شىء فى يده ، تأوه قلبها بين ضلوعها ، وقالت فى نفسها : « لقد سكر بالنقود جميعا ، وقد كان يتسكع مع هذا الافاق . وهاهوذا يأتى به الى البيت كذلك ! »

وادخلتهما الى الكوخ ، ودخلت خلفهما . وراحت تتطلع الى الغريب وقد بدا لها نحيفا ، ضعيفا ، يرتدى عباءتهما ، وليس على بدنه سواها ، ولا على رأسه غطاء .. **وكان يقف ساكنا ، وعيناه الى الأرض ، فقالت ماترينا فى نفسها :**

« انه ليبدو مرتبكا ، ولا يمكن ان يكون شريفا ! »

وعبست وتجهمت .. ووقفت قـــرب الموقد ترقب ما يفعلان . وقد خلع سيمون قلنسوته ، وجلس على المقعد كأنما لم يكن في الامر ما يهم . ثم قال : « حسنا يا ماترينا ، هاتي لنا شيئا نتعشى به .. هل لديك بعض الحساء ؟ » . ولكن ماترينا ظلت واقفة عند الموقد ، تنظر اليهما ــ الواحد بعد الآخر ــ وتهز رأسها هزة تنذر بالشر . وتبين سيمون أن زوجته كانت غاضبة لأمر ما ، ولكنه لم يبد ما ينم عن انه لاحظ شيئا ، وانما أخــذ الغريب من ذراعه ، قائلا له : « اجلس يا أخي ، لتأكل شيئا ! » .. فجلس الغريب على المقعد بجانب سيمون . والتفت هــذا الى زوجته قائلا : « هل عندك أي شيء مطبوخ تقدميه لنا ؟ »

اذذاك انفجرت « ماترينا » قائلة : « نعم ، نعم .. عندي شيء مطبوخ ، ولكنه ليس لك . انك ــ على ما أرى ــ قد ســـكرت وفقدت وعيك .. فيالك من مأفون !.. **أتذهب لتشتري جلد شاة ، فتعود بغير عبـــاءتك ، ومع شريد عريان . كلا ، ليس عندي عشاء لعربيدين مثلكما ! »**

فقال سيمون : « حسبك ، حسبك ياماترينا ! لماذا تديرين لسانك هـــكذا بحمـــاقة ؟ أما كان ينبغي أن تســـأليني ــ أولا ــ من يكون الرجل ؟ » .. فأجابته قائلة : « حسنا .. هب انك أنبأتني ، فماذا فعلت بالنقود ؟ » . فأمســـك سيمون بالعباءة ، وأخرج الروبلات من أحد جيوبها ، وهو يقــول : « هــذه هي النقــود .. ان تروفينوف لم يدفع اليوم ، ولكنه وعد بأن يدفع غدا » .

***

الا أن « ماترينا » ازدادت غضبا مع ذلك . فهو لم يأت معه بالجلد ، وقد ألقى عباءتها الوحيدة على ظهر رجل عريان ، وجاء به الى البيت كذلك !

واختطفت النقود من على المنضدة ، وجرت لتخفيها وهى تقول : « ليس عندى عشاء لكما .. ليس بوسعى أن أقدم الطعام لكل عربيد عريان يأتى الى هنا » . فقال سيمون : « امسكى لسانك ياماترينا ، وأتيحى لى فرصة أوضح لك فيها الأمر ! » . ولكنها صاحت : « بأى احساس يمكن للانسان أن يستمع الى سكير مجنون ؟.. لقد كنت على حق حين أبيت — فى البداية — أن أتزوج حيوانا عربيدا مثلك !.. لقد أعطتنى أمى بعض الثياب فذهبت أنت وشربت بها !.. وأخذت نقودا لتشترى جلد شاة ، فذهبت وشربت بها كذلك ! »

وقد حاول سيمون عبثا أن يبين لزوجته أنه لم يشرب الا بعشرين «كوبيك» ، وأن يقول لها أين وجد الرجل الغريب ، الا أنها لم تمكنه من أن يقول كلمة واحدة ، وراحت تقاطعه فى كل كلمة ، وتنكأ قروح عشر سنوات .. **وراحت تقترب منه ثم تقترب ، حتى انقضت عليه أخيرا وأمسكت بردنيه وهى تصيح فيه : « أعطنى سترتى ، فلست أملك غيرها ، وقد سرقتها منى فى الصباح لتلبسها !.. أعطنيها أيها الوغد الزنيم ، قتلك الله ! »**

فسارع سيمون بخلع السترة ، ولكن زوجته لم تنتظره حتى يخرج ذراعيه من كميها ، وانما تشبثت بها وراحت تنتزعها انتزاعا حتى تفتقت مرة أخرى .. وجرت بها ، حتى اذا كانت على وشك أن تغادر الغرفة ، توقفت فجأة ..

فقـد بدأ قلبهـا يلين ، وارادت ــ وقـد انكسرت حـدة غضبها ــ أن تعرف من كان ذلك الرجل .

- ٤ -

لهـذا وقفت ، وقالت : « اذا كان المرء شريفا ، فانه لايسير هكذا بلا قميص يستره . ولو انك كنت أهلا اليوم لأى خـير ، لقلت لى فى الحـال من أين التقطت هـذا الفندور ! » . فأجاب سيمون : « حسنا جدا . سأقول لك ذلك الآن : فحين كنت مارا بالكنيسة ، وجدت هـذا الرجل يرقد عريانا ، وينتفض من البرد . ولابد انك تدركين اننا لسنا فى الصيف حتى يمكن لانسان أن يظل عريانا ، ولولا ان قادنى الله اليه ، لكان قد هلك من البرد . أما وقد رأيته على هذه الحال فقولى لى ماذا كان فى وسعى أن افعل ؟ . . لقد اخذته ، وألبسته ، وجئت به هنا . هـذا كل شىء . فهدئى أعصابك ياماترينا لأن انسياقك وراء الغضب هكذا خطيئة واثم . وتذكرى أننا جميعا لابد أن نموت يوما ما ! »

وكانت ماترينا على وشك أن تنفجر ثائرة مرة أخرى ، الا أنها نظرت الى الغريب وظلت ساكنة . وقد كان يجلس هنـاك على حافة المقعد ، لايبدى حراكا ، ويداه مشتبكتان على ركبتيه ؛ ورأسه منكس على صدره ، وعيناه مغلقتان ، ووجهه يتقلص ثم ينبسط كأن شيئا يخنقه أو يلوى امعاءه . فاستطرد سيمون قائلا : « ماترينا . . أليس ثمة شىء من الله فيك ؟ »

واذ سمعت هذه الكلمات ، رنت مرة اخرى الى الغريب، وانفطر قلبها ــ فجاة ــ من الرحمة والاشفاق . وعادت من حيث كانت عنـد مدخل البـاب ، واتجهت نحـو الموقد ،

فأخرجت شيئا من الطعام ، ووضعت ابريق الشـــاى على المـــائدة ، وصبت بعض « الكفاس » ، المصـــنوع من القمح والشعير ؛ وجاءت بآخر قطعة من الخبز . واعطت كلا من الرجلين ملعقة وسكينا وقالت لهما : « تناولا عشاءكما ! » . فهتف ســـيمون بالغريب قائلا : « اقترب ! » ، ثم قطع من الخبز وأعطاه ، وشرعا يأكلان ، وقد جلست ماترينا عنـــد ركن المائدة ، ورأسها على يدها ، وراحت تنظر الى الغريب . وسرعان ما اســـتشعرت العطف عليـــه والأسى من أجله . وحـــين أشرق وجهـــه فجأة ، واختفت الغضـــون من بين حاجبيه ، وارتفعت عيناه وابتسم فى عينيها ، قفز قلبهـــا بين جنبيهـــا . وبعـــد العشـــاء غسلت الأوانى ، ثم بدأت تسأله قائلة : « من أين أتيت ؟ »

فأجاب قائلا : ((**من مكان غير هذا المكان**)) .

ـ اذن كيف سقطت على جانب الطريق ؟

فأجاب قائلا : ((**لست أملك أن أقول !**))

فقالت : « فمن أخذ ثيابك منك ؟ »

فقال : ((**كان الله يعاقبنى**)) .

فقالت : « ولكنك كنت ترقد هنالك عاريا » . فأجابهـــا قائلا : « نعم ؛ كنت أرقد هنالك عاريا وانتفض من البرد ، حتى رآنى سيمون وعطف على وخلع رداءه ووضـــعه على كتفى ، ورجانى أن أصحبه الى هنا . وهاأنتذى أعطيتنى مأكلا ومشربا وأبديت نحوى شفقة . فليفعل الله لكما مثلما فعلتما لى ! »

وعندئذ نهضت « ماترينا » ، وأخذت من كوة قميصـــا قديما لســـيمون ـ هـــو ذات القميص التى كانت ترفوه ـ وأعطته للغريب . كمـــا وجدت سروالا أعطته اياه ، قائلة :

« اراك بغير ثياب ، فخذ هذه البسها ثم استرح حيث تشاء ... على المقعد أو فوق الموقد ! »

فخلع الغريب العباءة ولبس القميص والسروال ، ونام على المقعد . أما «ماترينا» فأطفأت النور ، وأخذت العباءة ، وذهبت حيث رقدت بجانب زوجها بعد أن غطت نفسها بأطراف العباءة . ولكن النوم لم يطرق جفنيها ، لأن الغريب لم يفارق فكرها . وحين تذكرت أنه أكل آخر كسرة لديهم ، ولم يعد ثمة خبز للغد ، وانها كذلك أعطته القميص والسروال ، شعرت بالضيق .. الا أنها حين تذكرت ـ بعد ذلك ـ ابتسامة الغريب قفز قلبها فى داخلها . وقد جفاها النعاس وقتا طويلا ، واذ شعرت أن زوجها كان مسهدا ـ هو الآخر ـ لايفتأ يسحب العباءة فوقه ، همست : «سيمون !» . فأجابها قائلا : « نعم ! »

ـ لقد اكلتما آخر كسرة لدينا وليس عندى ما أصنعه . . فلا أدرى ماذا سنفعل فى الغد .. لابد من أن أسأل جارتنا « مالينا » بعض الخبز .

فأجابها سيمون قائلا : « هونى عليك . فسوف ندبر امرنا لنعيش ، ويكون لدينا ما يكفينا » .

فصمتت بعض الوقت ، ثم قالت اخيرا : « انه ليبدو شابا لطيفا للغاية . ولكن لماذا لم يقل لنا شيئا عن نفسه ؟ » . فقال زوجها : « اعتقد انه لايستطيع ! »

وعادت تهتف : « سيمون ! » . فعاد يجيب : « نعم ؟ »

قالت : « اننا نعطى الآخرين ، ولكن لماذا لايعطينا نحن أحد ؟ » .. ولم يجد سيمون جوابا ، فقال : « يمكننا أن نتحدث من ذلك فى وقت آخر » . ثم استدار واستغرق فى النوم .

- ٥ -

استيقظ سيمون فى الصباح ، فاذا الاطفال مازالوا نائمين ، وقد خرجت زوجته لتستعير بعض الخبز من الجيران . وكان الغريب – الذى جاء بالامس – يجلس وحيدا على المقعد ؛ مرتديا القميص القديم والسروال ، وهو ينظر الى أعلى . وقد ازداد وجهه تألقا وبهاء عما كان بالامس . فقال له سيمون : « حسنا ، ياصديقى الصالح ، ان الأمعاء تطلب الخبز ، والجسد يطلب الثياب ، وعلى المرء أن يكسب ثمن الاثنين . فهل تعرف أية حرفة ؟ » . فأجابه الغريب : « كلا ، على الاطلاق » .

ودهش سيمون لذلك ، وقال : « ولكن عليك أن تحاول، اليس كذلك ؟.. فى استطاعة الانسان أن يتعلم أى شىء لو أراد » . فأجابه : « نعم . ان الناس يعملون ، وسأعمل أنا كذلك » .

وسأله سيمون : «ما اسمك اذن ؟» . فقال : «ميشيل» .

ـ حسنا يا ميشيل . انك لم تقل لنا أى شىء عن نفسك ، وهذا شأنك . **الا ان علينا ان نكسب عيشنا ، ولو انك فعلت ما أعلمك اياه ، فسوف تجد لدينا ما تأكله .**

فقال الغريب : « جزاكم الله خيرا !.. ولسوف أتعلم لو انك علمتنى » .

ومن ثم أخذ سيمون خيطا وعقده بأصبعه قائلا : « ليس العمل بالأمر العسير ، فراقبنى ! » .. وراح ميشيل يراقبه ، وما لبث أن ربط الخيط على اصبعه وعقده . ثم علمه سيمون بعد ذلك كيف يلحم الجلد ، ويغرس الأبرة ، ويدخل الخيط . ففهم كل ذلك فى الحال . ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان فى امكانه أن يعمل كما لو كان اسكافا -

طول عمره ، وقد أتقن الفن كل الاتقان .

ولم يكن يأكل الا النزر اليسير ، ولا يستريح الا قليلا ، وهو ينظر الى أعلا فى هدوء .. ولم يكن يخرج أبدا ، او يتكلم عن نفسه أو يمزح أو يضحك على الاطلاق .. وكانت المرة الوحيدة التى شوهد فيها يبتسم هى تلك المرة الاولى ليلة مجيئه ، حين أتت اليه « ماترينا » بالعشاء .

- ٦ -

• ومضى الوقت يوما بعد يوم ، واسبوعا بعد أسبوع ، حتى انقضى عام بأكمله ، وميشيل يعيش مع سيمون ، ويعمل له . وقد اشتهر فى الاقليم كله بأنه أحذق صانعى الأحذية جميعا ، وأكثرهم اتقانا لصنعته . وبدأ الناس يأتون الى سيمون من كل أنحاء الاقليم لاصلاح أحذيتهم ، حتى لقد ازداد من جراء ذلك دخله .

وفى يوم من ايام الشتاء ، كان سيمون وميشيل جالسين يعملان معا ، حين اقبلت زحافة تجرها ثلاثة خيول نحو الكوخ ، يتعالى رنين أجراسها . فلما أطل صانعا الاحذية من النافذة رأيا المركبة تقف تجاه الكوخ .. وقفز منها حارس ، فتح بابا فخرج منه سيد يتدثر بثوب من الفراء ، واتجه صوب مسكن سيمون ، فارتقى الدرج . وهرعت « ماترينا » لمقابلته . وفتحت الباب على مصراعيه . فأحنى السيد رأسه ودخل الكوخ ثم انتصب ثانية ، فاذا رأسه يكاد ان يلمس السقف . وملأ جسمه الضخم ركنا بأكمله من الغرفة .

فنهض سيمون وحياه ، مأخوذا بعظمته ، فانه نادرا ما رأى مثل هذا الرجل هناك .. كان هو ذاته أغبر الوجه ،

بينما كان « ميشيل » ضامرا نحيفا ، وكانت « ماترينا » عجفاء كمركب من الخشب .. اما هذا الرجل ، فقد جاء من عالم آخر بوجهه الاسفنجي الاحمر ، وعنقه الذى يشبه عنق الثور ، وبنيته الحديدية الهائلة . وزفر السيد بعمق ، وخلع رداءه الفرو ، ثم جلس على المقعد وهو يقول : « من منكما صانع الاحذية ؟ » . فتقدم سيمون قائلا : « أنا يا صاحب السعادة » .

فصاح السيد الى الحارس الذى يتبعه قائلا : **« تيدكا ! هات ما معك هنا ! »**

ودخل الحارس ومعه لفافة أعطاها للسيد ، فوضعها هذا على المنضدة قائلا : « فكها ! » . ففعل الحارس . وعندئذ نقر السيد الجلد الذى كان فى اللفافة باصبعه ، وقال لسيمون : « انظر أيها الاسكاف . هل ترى هذا ؟ » . فأجابه سيمون : « نعم ياصاحب السمو !! »

ـ وهل تعلم ما هو ؟

فنقره سيمون باصبعه ، وأجاب قائلا : « انه جلد جيد » . فصاح السيد قائلا : **« جلد جيد بالطبع !.. أيها الغبى ، أرأيت مثل هذا الجلد فى حياتك من قبل ؟.. انه صناعة المانية ويساوى عشرين روبلا »** .

واجفل سيمون بعض الشىء وتمتم قائلا : « آه . حسنا .. أية فرصة تتيح لنا أن نرى مثل هذا الجلد ؟ » . فقال السيد : « حسنا . حسناً . ولكن هل يمكنك أن تصنع لى حذاء منه ؟ » .. فأجابه : « يمكننى يا صاحب السمو » .

ـ يمكنك ؟!.. ولكن ، فلتفهم جيدا ماذا أنت صانع به . أريد حذاء يعيش سنة . ويجب الا يتشقق أو يتفكك . فاذا كان

فى امكانك أن تصنع لى مثل هذا الحذاء ، ابدأ العمل واقطع الجلد الآن حالا . أما اذا لم يكن ذلك فى امكانك ، فلا تفعل شيئا . **اننى انذرك مقدما بأن الحذاء الجديد اذا تشقق أو تلف قبل سنة كاملة ، فسوف القى بك فى السجن . أما اذا لم يحدث له ذلك ، فاننى سأدفع لك عشرة روبلات نظير عملك !**

فتردد سيمون ، ولم يدر ماذا يقول ، وقد نظر الى ميشيل ، ووكزه بكوعه وهو يهمس اليه قائلا : « ماذا ترى أيها الأخ ؟ » . فأجابه ميشيل بايماءة من رأسه ، كأنما يريد أن يقول له : « نعم . خذ العملية » .

وأطاعه سيمون فقبل أن يصنع حذاء لايتشقق ولا يتفكك سنة كاملة .

***

واذ ذاك دعا السيد حارسه مرة أخرى ، وامره بأن يخلع عنه حذاءه . ومد قدمه اليسرى قائلا : «خذ قياس قدمى !» . فقطع سيمون شريطا من الورق يبلغ عشرة « فرشوكات » (وهو يساوى ١ر٦٨ قدم) . ثم ركع ، وجفف يده جيدا فى مئزره كى لايوسخ جورب السيد ، وراح يأخذ قياسه .. فقاس أولا القدم ، ثم المشط . وكان مزمعا بعد ذلك أن يقيس بطن الساق ، الا أن شريط الورق ، لم يكف لأن يلتف حولها ، اذ كانت ضخمة كالعمود . وعندئذ قال السيد العظيم : « حذار أن تجعل الحذاء شديد الضيق عند الساق ! »

فجاء سيمون بشريط آخر من الورق ، وقد جلس السيد وراح يلوى أصابع قدمه داخل الجورب ، والموجودون فى السكوخ ينظرون اليه . وما لبث أن رأى ميشيل ، فسأل

سيمون قائلا : « من هذا الذى معك ؟ » . فأجابه : « هذا هو العامل البارع الذى يشتغل معى ، وهو الذى سيصنع لك حذاءك » . فقال السيد لميشيل : « **اسمع أنت اذن .. تذكر هذا الذى أقوله لك .. ينبغى أن تصنع الحذاء بحيث يعيش عاما كاملا !** »

ونظر سيمون الى ميشيل ، فرأى أنه لم يكن ينظر الى السيد ، وانما راح يحملق فيما وراءه ، وكأنه كان ينظر الى شخص هناك . وما فتىء هكذا حتى أشرقت على وجهه فجأة ابتسامة أضاءت أساريره بأسرها . فسأله السيد : « لماذا تنظر هكذا أيها المجنون ؟.. الأحسن لك أن تنتهى من الحذاء حين أريده ! » . فأجاب ميشيل : « ستجده حاضرا فى أى وقت تريده !! »

فقال السيد : « حسنا جدا » ، ثم وضع قدمه فى حذائه ثانية ، ولبس معطفه الفرو ، وأحكمه حول جسمه ، وتحرك نحو الباب . الا أنه نسى أن يحنى رأسه ، فارتطم بسدة الباب ارتطامة شديدة ، فحك رأسه وهو يسب ويلعن ، ثم استقل العربة ورحل ..

فقال سيمون : « ياله من حجر صوان ! لقد أوشك أن يقتلع السدة برأسه ، ومع ذلك لم يأبه للأمر ! » .. فأجابت ماترينا قائلة : « كيف أمكن أن يكون صلبا هكذا ؟ ان الموت نفسه لا يستطيع أن يأخذ هذا الرجل الذى يشبه مسمارا من حديد » .

- ٧ -

والتفت سيمون الى ميشيل قائلا له : « حسنا ، لقد أخذنا العملية الآن ، وينبغى الا تقصر فيها ، فانه لجلد ثمين ، والسيد سريع الغضب . كلا . ينبغى الا نرتكب أى

خطأ . وأن لك لعينين واعيتين ، وقد غدت أصابعك بارعة أيما براعة . فخذ هـذه المقاييس واقطع الجلد ، بينما أنا ارتق هذا الحذاء ! » . فأخذ ميشيل الجلد طائعا ، وبسطه على المنضدة ، ثم ثنـاه من وسطه ، وتناول سكينا ، وبدأ يقطعه .

وفى هـــذه اللحظة ، اتفق أن اقتربت « ماترينـا » من ميشيل ، ولمحت الطريقة التى يعمل بهـا ، **فدهشت أشـد الدهشة مما رأت ، لأنهـا كانت على المام كبير بفن صناعة الأحـذية . وقـد أدركت فى التو أنه يقطع الجلد ، لا على الهيأة المعهودة فى صناعة الأحذية ، وانما على هيأة شرائح مستديرة** . ومن ثم احست بالميل لأن تقول شيئا ، ولكنهـا ما لبثت أن فكرت فى نفسـها قائلة : « لابد أننى لا أعرف كيف تنبغى صناعة احذية السادة . ولابد أن ميشيل يعرف خيرا مما أعرف . ولذلك فاننى لن اتدخل » .

حتى اذا انتهى ميشيل من قطع الشريحتين ، أخذ خيطا وبدأ يخيط الحـذاء ، لا من الطرفين ــ كما هو معهود فى صناعة الأحذية ــ وانما من طرف واحد فقط ، كما يخاط الخف الذى توضع فيه قدم جثة الميت . وازدادت دهشة « ماترينا » اذ رأت ذلك ، الا أنها لم تتدخل كذلك ، وظل ميشيل منهمكا فى العمل حتى جاءت ساعة الغذاء . وعندئذ نهض سيمون ، ونظر اليه ، فوجد أنه صنع من جلد السيد زوجا من « البوسـوفيكى » ، وهـو خف الميت ! وتأوه « سيمون » هلعا ، وفكر فى نفسه قائلا : « كيف حدث أن ميشيل ــ بعد أن عاش معى سنة كاملة ، لم يرتكب خلالها غلطة واحدة ــ يرتكب الآن هذه الغلطة ؟.. لقد أمر السيد بصنع حذاء متين ، ولكن ميشيل صنع زوجا من البوسوفيكي

واتلف الجلد ، فماذا عساى أن أفعل مع السيد ؟.. ليس بوسع الانسان أن يحصل على مثل هذا الجلد كل يوم . » ، ثم قال بصوع مسموع لميشيل : « ماذا فعلت يا صديقى الفاضل ؟.. لقد أوردتنى مورد التهلكة . فقد أمر السيد بصنع حذاء . فما هذا الذى صنعت أنت ؟ »

وشرع فى توبيخه ، لولا أن ارتفع – فى هذه اللحظة – صوت طرقات على الباب ، وأطلوا من النافذة ، فرأوا رجلا يترجل عن حصانه ويربطه . ثم ما لبث أن فتح البـاب ودخل الحارس الذى رافق السيد ، قائلا : « طاب يومكم ! »

فقالوا : «طاب يومك ، أية خدمة يمكننا أن نقدم لك ؟» .

فأجاب قائلا : « أن سيدتى ارسلتنى بشأن الحذاء ! »

فقالوا معـا : « نعم . ماذا عن الحـذاء ؟ » . فأجاب : **« ان سيدى لن يحتاج اليه بعد . فقد مات منذ حين »** .

وإذ ذاك صاحوا : « ماذا تقول ؟ » . فأجاب :

– انها الحقيقة . لقد مات فى العربة وهو عائد الى البيت من كوخكم . وقد كنا – حين وصلنا – نوشك أن نعينه على النزول ، الا أنه انزلق الى الارض ككيس الدقيق ، ولفظ النفس الأخير ، وتمدد ميتا ، فرفعناه بصعوبة عظيمة من على الأرض ، ومن ثم قالت لى سيدتى : **« اذهب وقل لصانع الأحذية أن السيد الذى طلب صنع الحذاء ، وترك الجلد لذلك ، لن يحتاج اليه ، فليصنع منه خفا لجثته ، بأسرع ما يمكن ! »** . وقالت لى : « انتظر عنـده حتى يصنعه ، وعد به » .. ومن ثم بادرت بالحضور لفورى .

فجمع ميشيل قطع الجلد من على المنضدة ، ولفها فى حزمة ، ثم أخذ الخف الذى كان موضوعا وقد تم صنعه ،

وخاط احدى فردتيـــــه فى الاخرى ، ثم مسحه بمئزره ، وأعطاه الرجل ، فأخذه هذا وانصرف قائلا : « طاب يومكم يا سادة ، وحظا سعيدا ! »

- ٨ -

• ومضى عام آخر ، ثم عامان آخران .. أكمل ميشيل ست ســنوات مع سيمون . وكان يعيش طيلة الوقت كما كان أولا . فلم يكن يغــادر البيت أبدا ، ولم يكن يتكلم عن نفسه أبدا ، ولم يبتسم الا مرتين اثنتين منذ أن جاء الى البيت : الأولى حين قدمت اليه الزوجة الفاضلة العشـــاء ليلة وصوله ، والثانية أثناء وجود السيد الغنى هناك .

وكان سيمون مسرورا جـدا بذلك الرجل الـذى راح يعمل معه ، ولم يعد يسأله من أين جاء . وكان جل خوفه ينحصر فى أن يذهب ثانية ويتركه .

وذات يوم ، كانوا يجلسون معـا فى البيت ، والزوجـة الفاضلة تلحم قطعةحديد على الموقد ، فى حين اعتلى الأطفال المقــاعد وراحــوا يتطلعون من النوافذ .. وكان ســيمون يرسم ، وميشيل يثبت كعبا فى حذاء .. وفجأة قفز الولد الصغير من فوق المقعد على ميشيل ، وراح — وهو يتكىء على كتفه — يتطلع من النافذة ، ثم صاح : « **انظر يا عمى ميشيل !.. هنالك سيدة وفتاتان فى طريقهن الى كوخنا ، واحدى الفتاتين عرجاء ! » . وما ان قال الولد الصــغير ذلك ، حتى ألقى ميشــيل بما فى يده جانبــا ، وأسرع الى النافذة ، ونظر الى الطريق .**

وقـــد دهش سيمون لذلك . فان ميشيل لم يسبق له أبدا أن نظر الى الخارج . ومع ذلك ، فقد التصق بالنافذة

ـ فى هذه المرة ـ وراح يحدق فى شىء ما . فنظر سيمون كذلك ، ورأى سيدة تتجـه مباشرة نحو الفنـاء الامامى . وكانت حسنة الملبس ، تقـود ابنتيهـا الصغيرتين ، وقـد ارتدت كل منهمـا سترة من الفرو ؛ ووضعت شالا عـلى رأسها . وكانت البنتان متشابهتين بدرجة يصعب معهـا تمييز احداهما عن الأخرى . الا ان عيبا كان يشوب القدم اليسرى لاحداهما ؛ فكانت تعرج فى سيرها .

وصعدت السيدة درجات السلم ، حتى اذا بلغت عتبة الباب ترددت قليلا ، ثم أدارت المقبض ودخلت ، وهى تدفع الصغيرتين أمامها ، قائلة : « طاب يومكم يا سادة » . فقال سيمون : « عفوك يا سيدتى .. أية خدمة يمكننا أن نقدمها اليك ؟ »

وجلست السيدة الى المنضدة ، فى حين التصقت الفتاتان الصغيرتان بركبتيها . وراح ساكنو الكوخ ينظرون اليهما فى فضول . وما لبثت السيدة أن قالت : « أريد زوجا من الباشماكى (وهى أحذية الاناث) لكل من هاتين البنتين الصغيرتين ، لفصل الربيع » . فقال سيمون : « حسـنا جدا يا سيدتى . لم يسبق لنا أن صنعنا مقاسات صغيرة كهذه من قبل ، الا أن فى امكاننا أن نصنعها . ولك أن تختارى ما اذا كان الحذاءان من الجلد الخالص ، أو الجلد المبطن بالقماش .. وهاهو ذا ميشيل .. الصانع الماهر الـذى يعمل معى » .

والتفت سـيمون حينئـذ الى ميشيل ، فرآه قد ألقى بالعمـل ـ الذى كان فى يده ـ جانبا ، وجلس ينظر بعينين ثابتتين الى البنتين الصـغيرتين . فتولته الدهشـة : **كانتا تبدوان ـ حقا ـ جميلتين ، بعيونهما السوداء المستديرة ،**

ووجناتهما المتوردة ، وسترتيهما الأنيقتين . الا أنه ــ مع ذلك ــ لم يستطع أن يفهم لماذا راح ميشيل ينظر اليهما هكذا ، كأنما كان يعرفهما من قبل . بيّد أن سيمون ، راح يتحدث مع السيدة عن الحذاءين اللذين تريدهما ، حتى اذا انتهى من ذلك ، راح يعد شريطا من الورق ليقيس قدمى الفتاتين . وهنا رفعت السيدة الفتاة العرجاء الى ركبتيها قائلة : « خذ قياس هذه الفتاة ، واصنع فردة لقدمهــا الملتوية ، وثلاث فردات عادية متساوية القياس لأن الطفلتين توأمتان ! »

فأخذ سيمون القياس ثم أشار الى الطفلة قائلا : « ما الذى أصاب قدمها ؟ .. انها لسيدة صغيرة جميلة ! .. هل ولدت هكذا ؟ » . فأجابته السيدة : « كلا ، وانما هرستها أمها » .

وعندئذ اقتربت « ماترينــا » ــ وهى تتطلع لأن تعرف من هى السيدة ومن البنتان ــ قائلة : « فأنت اذن لست أمهما ؟ » . فأجابتها قائلة : « كلا يا سيدتى ، فهما ــ فى الحقيقــة ــ لاتمتان لى بأية قرابة على الاطــلاق ، وانمــا تبنيتهما » .

فقالت ماترينا : « انك لست أمهما ، ومع ذلك يبدو انك تحبينهما حبا جما » .

فأجابتها قائلة : « كيف يمكن الا أحبهما وقد أرضعتهما ؟ .. لقد كان عندى ــ فى يوم من الأيام ــ طفل من دمى ولحمى ، وقد أخذه الله اليه .. ومع ذلك فاننى لم أحبه بدرجة حبى اياهما ! »

- ٩ -

• **وتساءلت** « ماترينا » : « وابنتا من هما ؟ » .. اذ ذاك فتحت السيدة قلبها ، وقصت القصة التالية :

« **منذ ست سنوات ، قدر لهاتين الطفلتين ان تفقدا اباهما وأمهما ، فى أسبوع واحد** . فقد دفن ابوهما يوم الثلاثاء ، وماتت أمهما يوم الجمعة الذى أعقبه . نعم .. مكثتا بغير اب ثلاثة أيام . وفى اليوم الثالث ، ماتت أمهما كذلك . وكنت ـ فى ذلك الوقت ـ أعيش مع زوجى فى الريف ، بجوارهم .. فقد كان فناءا منزلينا متلاصقين . وكان اب هاتين الطفلتين فلاح يعيش من كده وجده . وحدث أن كان يعمل ذات يوم فى الغابة ، فسقطت عليه شجرة وقضت عليه فى الحال . وحملت جثته الى بيته . وكانت زوجته قد ولدت فى ذلك الأسبوع توأمتين ، هما هاتان الفتاتان . وقد ولدتا فى الشقاء والوحدة : فلم تكن مع أمهما امرأة أخرى لا عجوز ولا شابة ، لتعتنى بها . كانت وحيدة حين رقدت فى الفراش ، وكانت وحيدة كذلك حين ماتت !

« واتفق فى الصباح التالى أن ذهبت لأزورها اداء لواجب الجوار ، فما ان دخلت الكوخ ، حتى رأيت المرأة المسكينة ميتة ، وقد تصلب جسمها وبردت أطرافها ، وسقطت ـ وهى فى سكرات الموت ـ على احدى الطفلتين فهرست قدمها . وعندئذ أرسلت فى طلب النجدة .. وغسلوا الجثة ، وأرقدوها فى تابوت ، ثم دفنوها . **ولكن ، ما مصير الطفلتين اليتيمتين ؟.. من يأخذهما ؟.. كنت الوحيدة ـ بين النسوة ـ ارضع طفلا ولد قبل ثمانية أسابيع .. ذلك كان طفلى الأول . ومن ثم فقد تكفلت بالطفلتين كذلك ، بعد**

أن تناقش الفلاحون فيما ينبغي أن نصنع بهما. وقالوا لي : « خذيهما عندك الآن يا ماريا ، حتى نقرر في أمرهما شيئا ». وقد بدأت أرضع الطفلة غير المصابة وحدها ، اذ لم أتوقع أن تعيش الأخرى . الا أنني ما لبثت أن قلت لنفسي : « لماذا أترك روح هـذا الملاك الصغير حتى تذبل ؟ » . ورحت أرضعها — هي الأخرى — وأنا ممتلئة بالحنان نحـوها .. وأخذت أضعها — مع أختها وطفلي — على صدري . وكنت اذ ذاك شابة وقوية وقادرة على الارضاع ، وقد ملأ الله ثديي باللبن حتى فاضا . فكنت أرضع اثنين منهما معا ، بينمـا يرقد الثالث منتظرا ، حتى اذا اكتفى واحد من الاثنين ، أخـذت الثالث وأعطيتـه ثديي . ومع ذلك ، شاء الله أن أظـل أرضع هاتين الطفلتين حتى تكبرا ، وأن أدفن طفلي أنا خلال عامه الثاني . ولم يعطني الله طفلا آخر بعد ذلك ، وقد ازداد — في ذات الوقت — دخلي ، فأنا الآن أقطن عند الطاحونة هنا مع الطحان ، وأعيش عيشة هانئة رخية ، الا أنني — وا أسفاه — لم أوت أطفالا من أحشـائي . **فكيف يمكنني أن أحتمل الحياة وحيدة ، بدون هاتين الصغيرتين ؟ وماذا يبقى لي بعدهما لأحبه وأعتني به ؟ انني لا أستطيع أن أفكر في ذلك ، لأنهما لي كالشمع للشمعدان ! »**

وجذبت السيدة باحدى يديها الطفلة العرجاء ، وباليـد الاخرى مسحت الدموع عن وجنتيها . ثم أضـافت قائلة : « يقينا ، أنه لحق قول القائل اننا بدون أب أو أم قد نعيش ، ولكننا بدون الله لا يمكن أن نعيش ! »

وبعد أن تحدثوا هنيهة ، نهضت السيدة لتنصرف ، وقد رافقها الجميع الى الباب .. حتى اذا التفتوا الى ميشيل ، رأوه جالسا — ويداه مشتبكتان على ركبتيه — يحدق أمامه في ثبات ، ويبتسم !

- ١٠ -

• **واقترب منـــــه** سيمون ، وقال له : « ماذا هناك يا ميشيل ؟ » . فنهض عن مقعده ، ونحى العمل الذى بيـده جانبا ، ثم خلع مئزره ، وانحنى أمام السيد وزوجته قائلا : « سامحانى يا سيدى ويا سيدتى . لقد سامحنى الله ، فهل تسامحانى أنتما كذلك ؟ »

وعندئذ أبصر سيمون وزوجته النـور يشع من ميشيل ، فانحنى سيمون أمامـــــه حتى كاد يمس الارض ، وقال : « يا ميشيل . انى أراك أكثر من مجرد انسان ، ولن اقف فى وجهك ، ولن أسألك ، ولكن .. قل لى شيئا واحدا : لماذا - حين وجـــــدتك أول الامر ، وجئت بك الى هنا ــ كنت مكتئبـــــا ، حتى اذا قدمت لك زوجتى العشاء ، ابتسمت وغدوت عندئذ اكثر بهاء ؟.. ثم ، لماذا ابتسمت مرة أخرى، حين كان السيد الغنى يأمرنا بصنع الحذاء ، وغدوت أكثـر بهاء منك فى المرة السالفة ؟.. وأخيرا ، لماذا ابتسمت ــللمرة الثالثة ــ وغدوت اكثر بهاء ؛ حين جاءت السيدةبالطفلتين ؟ **.. قل لى يا ميشيل ، لماذا ابتسمت فى هذه المرات الثلاث ، ولماذا يشع هذا النور منك الآن ؟ »**

فأجاب ميشيل قائلا : « **هذا النور يشع منى الآن لأننى عوقبت ، وقد صفح الله عنى ثانية . وقد ابتسمت فى هــذه المرات الثلاث لأنه كان ينبغى أن أتعلم ثلاث كلمـات من كلام الله . وهذه الكلمات الثلاث تعلمتها الآن** . الكلمـــــة الاولى تعلمتهـــا حين عطفت زوجتك على . لذلك ابتسمت فى المرة الاولى . والكلمة الثانية تعلمتها حين كان الرجل الغنى يأمر بصنع الحذاء . لذلك ابتسمت فى المرة الثانية . والكلمـــــة **الثالثة والأخيرة تعلمتها الآن حين رأيت الفتاتين الصغيرتين ؛**

لذلك ابتسمت فى المرة الثالثة ! »

وحينئذ قال سيمون : « قل لى كذلك يا ميشيل : لماذا عاقبك الله ، وما هى هذه الكلمات الثلاث من كلام الله ، حتى اتعلمها أنا ! » . فأجاب ميشيل قائلا : « لقد عاقبنى الله لأننى عصيته . كنت ملاكا فى السماء ، وعصيت الله . فقد بعث بى الى الارض لآخذ روح امرأة ، فطرت الى الارض ، وهنالك رأيت المرأة راقدة مريضة ، وقد ولدت فى الحال نوأمتين . وكانت الطفلتان تتحركان بجانب أمهما ، ولكنها لا تملك أن تعطيهما ثدييها ، فصاحت باكية : « يا ملاك الرب ، لقد دفنوا منذ قليل زوجى الذى قتلته شجرة فى الغابة . وليس لى أخت ولا عمة ولا جدة ، فليس ثمة من يعول صغيرتى . لا تأخذ روحى ، واتركنى أرضع الطفلتين وأربيهما ، وأجعلهما تقفان على أقدامهما . ان الصغار لا يمكنهم أن يعيشوا بلا أب ولا أم ! » . **فأصغيت للأم ، ووضعت طفلا من طفليها على صدرها ، ووضعت الثانى بين ذراعيها وصعدت ثانية الى الله فى السماء** .. طرت الى الله ، وقلت : « لا يمكننى أن أقبض روح تلك الام ذات الطفلتين . ان الاب قد قتلته شجرة . وقد ولدت الام — فى الحال — توأمتين ، وقد تضرعت الى ألا آخذ روحها قائلة : دعنى أرضع الطفلتين وأربيهما ، وأجعلهما تقفان على أقدامهما . ان الصغار لا يمكنهم أن يعيشوا بلا أب ولا أم .. وعلى ذلك لم آخذ روح الام » . وعندئذ قال الله لى : « اذهب واقبض روح هذه الام ذات الطفلتين ، **وسوف تتعلم ثلاث كلمات : سوف تتعلم ما يسكن فى الناس ، ومالم يوهب للناس ، وما يحيا به الناس** .. وحين تتعلم هذه الكلمات سوف تعود الى السماء » . وعلى ذلك طرت عائدا الى الارض ، وقبضت

روح المراة ذات الطفلتين . وقد انزلقت الطفلتان عن ثدييها ، وارتمى الجسد الميت على السرير ، فلطم احدى الطفلتين وهرس قدم الاخرى . وبعد ذلك صعدت فوق القرية ، وحاولت أن احمل الروح الى الله ، ولكن ريحا دهمتنى فاذا جناحاى ينفصلان عنى ويتطوحان بعيدا ، فى تلك الاثناء . وعادت الروح وحيدة الى الله . اما انا فسقطت الى الارض مرة اخرى على جانب الطريق » .

- ١١ -

* والآن وقد فهم « سيمون » و « ماترينا » ـ اخيرا ـ حقيقة ذلك الذى أوياه وكسياه وأطعماه ، بكيا رهبة وفرحا. ولكن الملاك استرسل قائلا :

« وهكذا تركت عريانا وحيدا فى الارض الجرداء . ابدا ما عرفت من قبل احتياجات البشر . . ابدا ما عرفت من قبل البرد والجوع ، فاذا بى أصبح بشرا ، وارتجف من البرد والجوع ، ولا أعرف ماذا أفعل . وعندئذ رأيت على جانب الطريق كنيسة مبنية من أجل الله ، فاقتربت من مبنى الرب ، يساورنى الامل فى أن أجد لى هنالك مأوى . ولكنها كانت مغلقة موصدة ، فلم استطع دخولها . وجلست قبالتها احتمى بها من الريح . وجاء المساء ، وشعرت بالبرد والجوع ، وبالالم يفرى كل جسدى . وفجاة أصغيت . فها هو ذا رجل مقبل عبر الطريق ؛ يحمل حذاء فى يده ، ويكلم نفسه . وحينذاك ـ للمرة الاولى منذ أصبحت بشرا ـ أبصرت وجه رجل يشبه الاموات ، وقد بدا لى هذا الوجه مخيفا ، فأدرت وجهى عنه . ولكنى ـ اذ فعلت ذلك ـ سمعت الرجل يكلم نفسه متسائلا كيف يمكنه أن يحمى

جسده من برد الشتاء ، ويطعم زوجته وأطفاله . ففكرت فى نفسى قائلا : « ها انذا اهلك من البرد والجوع ، وهذا ــ فى ذات اللحظة ــ رجل يفكر متسائلا كيف يكسو نفسه وزوجته بالجلد ، وكيف يطعم نفسه واسرته بالخبز !.. بوسعى بالتأكيد ان أسأله العون » .. وفى هذه اللحظة رآنى الرجل، ففقد حاجبيه ، وأصبح شكله مخيفـا اكثر من ذى قبل ، ومضى . فتملكنى اليأس . على أننى فجأة سمعته يعود ، فنظرت أمامى . **ومع أننى كنت لا اكاد أراه ، الا اننى تبينت انه ــ من قبل ــ كان يحمل على وجهه معالم الموت ، أما الآن فقد عادت الى وجهه الحياة ، وفى هذا الوجه رأيت الله !..**
وقد جاء الرجل الى ، وألبسنى ، وأخذنى معه الى بيته . فلما دخلت البيت ، قابلتنا امرأة ؛ وبدأت تتكلم . فبدت لى المرأة اكثر بشاعة مما كان الرجل .. كانت الانفاس الخارجة من فمها كأنفاس جيفة ، فكدت أختنق من رائحة الموت التى تنبعث منها . كانت تريد أن تلقى بى الى البرد مرة اخرى ، وكنت أعلم انها ــ ان فعلت ــ موتا تموت . **الا أن زوجها ما لبث أن ذكرها بالله ، فاذا بها فى لحظة تغيرت ..** حتى اذا قدمت لنا بعد ذلك العشاء ، وجلست تنظر الى ، نظرت اليها بدورى ، فاذا بى لا أرى أثرا للموت فى وجهها ، وانما تمثلت الحياة .. **وفى هذا الوجه رأيت الله !**

«وعندئذ ، تذكرت الكلمة الاولى من كلام الله حين قال لى: « **سوف تتعلم ما يسكن فى الناس** » .. وعلمت أن مايسكن فى الناس هو الحب . وقد شعرت بالفرح لأن الله رأى أن يظهر لى ما وعدنى به . ولذلك ابتسمت أول مرة . ولكننى لم أكن بعد قد تعلمت كل ما ينبغى ، اذ كان على أن أتعلم كذلك « ما لم يوهب للناس » ، و « ما يحيا به الناس » .

« ومن ثم فقد جئت لأعيش معكم . وبعد أن مكثت هنا سنة ، جاء رجل وأمر بصنع حذاء .. حذاء يعيش سنة كاملة دون أن يتشقق أو يتفتق . **فلما نظرت اليه فجأة ، رأيت خلف كتفه زميلى ملاك الموت** . لا أحد غيرى رأى ذلك الملاك ؛ وقد عرفته ، وعرفت كذلك أن الشمس لن تغيب قبل أن تقبض روح هذا الرجل . ففكرت فى نفسى قائلا : « ها هو ذا رجل يأخذ حيطته لعام قادم ، ولا يعلم إنه لم يبق من عمره ما يحياه حتى مجيء الليل » . وعندئذ تذكرت كلمة الله الثانية حين قال لى : « **سوف تتعلم ، ما لم يوهب للناس** » !

« وهكذا تعلمت من قبل ما يسكن فى الناس ، والآن كذلك تعلمت ما لم يوهب للناس : لأنه لم يوهب للناس أن يعرفوا ما هو مقدر لأجسادهم . وعندئذ ابتسمت لثانى مرة ، لأننى اذ رأيت زميلى الملاك ، أدركت ان الله قد كشف لى كلمته الثانية ..

« الا اننى لم اكن بعد قد تعلمت الكلمات كلها . فقد كان على بعد ذلك أن أتعلم ما يحيا به الناس . وعلى ذلك عشت وترقبت الوقت الذى يشاء الله أن يكشف لى فيه كلمته الاخيرة . حتى اذا كانت السنة السادسة لى معكم هنا ، جاءت امرأة مع فتاتين توأمتين . وعندئذ تذكرت الفتاتين ، وعلمت أنهما قد بقيتا على قيد الحياة . واذ عرفتهما ، فكرت فى نفسى قائلا : « لقد تضرعت أمهما الى من أجلهما ، وقد استمعت اليها حاسبا أن الصغيرتين بلا أب ولا أم لا بد ان تموتا .. الا أن هذه المرأة ـ وهى غريبة عنهما ـ أرضعتهما وربتهما » .. **وحين رأيت المرأة تحنو على الطفلتين ، وتذرف الدمع من اجلهما ، رأيت فيها الله الحى ، وعلمت ما يحيا به**

الناس . وبهذا عرفت أن الله قد كشف لى كلمته الثالثة والاخيرة ، وصفح عني .. ولذلك ابتسمت للمرة الثالثة ».

- ١٢ -

. **وفجأة** ، تجردت هيأة الملاك من الملابس ، واكتسى كله بالنور ، حتى أن العين لم تكن تحتمل أن تنظر اليه ، وازداد صوته جلالا وكأنه كان ينبعث من السماء ذاتها — وليس من فمه — وهو يقول :

« نعم . تعلمت أن كل انسان يحيا ، لا بالتفكير فى نفسه ، وانما بالحب !

« ان المرأة ذات الاطفال ، لم توهب معرفة ما هو لازم للمحافظة على حياة طفليها . والرجل الغنى لم يوهب أن يعلم ما هو مقدر لجسده .. كذلك لم يوهب أى انسان أن يعلم ما اذا كان الذى يلزمه — قبل أن تغرب الشمس — حذاء لجسده الحى ، أو خف لجسده الميت .

« حين كنت بشرا ، حفظت لى حياتى ، لا بالتفكير فى نفسى ، وانما بالحب الذى سكن عابر الطريق وزوجته ، حتى امكنهما أن يشعرا نحوى بالشفقة والعطف .. واليتيمتان كذلك ، حفظت لهما حياتهما ، لا بأى تفكير بشأنهما ، وانما بالحب الذى سكن فى قلب امرأة غريبة ، حتى أمكنها أن تشعر نحوهما بالشفقة والعطف .. **لأن كل الناس يحيون — فى الحقيقة — لا بالتفكير فى أنفسهم ، وانما بالحب الذى يسكن فى البشرية كلها** .

« لقد علمت من قبل أن الله أعطى الناس الحياة ، وانه سيحفظ الحياة لهم ، ولكننى الآن فهمت شيئا آخر .. فهمت أن الله لن يحفظ الحياة للناس — وهم متباعدون أحدهم عن

الآخر ـ لأنه لم يكشف لهم ما هو لازم لكل منهم بمفرده . **وانما يحفظ الحياة لهم متحدين جميعـــا ، لأنه كشف لهم ما هو لازم لهم ولذويهم معــا ، فقط** .. نعم . أخيرا فهمت أن الناس يحيون بالتفكير فى انفسهم حسب الظاهر فحسب ، وانما الحقيقة انهم يحيون بالحب وحده . **من يثبت فى الحب يثبت فى الله والله فيه . لأن الله محبة))** .

***

ورتل الملاك تسبيحة حمـــــد لله ، وقد ارتج الكوخ من نبرات الصوت .. ثم انشق السقف نصفين ، وانطلق عمود نار من الارض الى السماء ، فخر سيمون وزوجته وأطفـــاله على وجوههم ساجدين فى تعبد وقنوت . وفى هذه اللحظـــة انبثق للملاك جناحان ، وانطلق الى السماء .

وحين فتح سيمون عينيه بعد هنيهة ، رأى الكوخ وقـــد عاد كما كان من قبل ، ولم يكن ثمة أحد الا أهل بيته !!

.. أعقل من الكبار !

« ان لم تكونوا كالاطفال الصغار ،
فلن تدخلوا ملكوت السموات » .

• جاء الأسبوع المقدس مبكرا ، وقد انتهى بالكاد أوان استعمال مراكب الجليد ، وما زال الثلج متراكما في الأفنية ، أو منصهرا ينساب في جداول نحو شارع القرية، وقد تجمعت منه بركة كبيرة في الطرقة الواقعة بين فناءين .. ومن هذين الفناءين انطلقت فتاتان صغيرتان ، احداهما تكبر الأخرى قليلا .. كانت أم كل منهما قد ألبستها — في التو — ثوبا قشيبا ، فالصغرى ألبستها أمها ثوبا أزرق ، والكبرى ألبستها أمها ثوبا أصفر موشى . وقد ربطتا منديلين أحمرين على رأسيهما ، وخرجتا بعد الغداء ، ووقفتا على جانبي البركة .. وبدأت كل منهما — أول الأمر — تدعو الأخرى لرؤية ثوبها الجميل . ثم راحتا بعد ذلك تلعبان .

وخطر لهما أن تخوضا البركة . وبدأت الصغرى تفعل ذلك ، فاندفعت الى البركة بحذاءيها وكل ملابسها. فصاحت الكبرى قائلة لها : « لاتفعلي ذلك يا مالاشا ، والا نهرتك امك .. اخلعي حذاءيك أولا .. وسافعل أنا كذلك ! » . ومن ثم

أصل عنوان هذه القصة : « قد يكون الاطفال أعقل من ابائهم » !

خلعتا حذاءيهما ، وثنيتا رداءيهما ، وخاضتا فى البركة من جانبيها المتقابلين . وقد توغلت مالاشا حتى رسغيها ؛ ثم صاحت قائلة : « انها عميقة جدا ياعزيزتى أكولكا . . اننى خائفة . » ، فأجابتها الاخرى قائلة : « كلا . كلا . انهما لن تزداد عمقا ، فتعالى راسا ناحيتى » . ومن ثم اقتربت كل منهما من الأخرى . ثم قالت أكولكا : « على مهلك يامالاشا ، ولا تنثرى الماء على . . على مهلك ! »

ولم تكد تفوه بهذه الكلمات ، حتى ضربت مالاشا الماء برجليها فتناثر على ثوب « أكولكا » ، وغطاه بالوحل كله ، واصاب عينيها وأنفها . . فغضبت « أكولكا » من « مالاشا » غضبا شديدا ، وجرت نحوها تريد أن تضربها . . الا أن الذعر كان قد تولى مالاشا ، اذ رأت ما سببته من تلف ، فقفزت خارجة من البركة ، وانطلقت هاربة الى منزلها .

وتصادف أن كانت أم « أكولكا » مارة فى الطريق ، فرأت ابنتها وقد تلطخ ثوبها كله بالوحل ، فسألتها قائلة : « ماذا فعلت حتى صرت قذرة هكذا أيتها البنت الشريرة ؟ » ؛ فأجابتها ابنتها الصغيرة : « لقد رشتنى مالاشا . . انها فعلت ذلك متعمدة ! » . . فامسكت أم أكولكا بمالاشا ، وصفعتها صفعة شديدة ، جعلتها تملأ الشارع ببكائها وصراخها ، فخرجت أمها على صوتها ، وصاحت غاضبة فى جارتها : « لماذا تضربين طفلتى ؟ »

وراحت المرأتان تتبادلان السباب ، فخرج الفلاحون من اكواخهم وتجمعوا حولهما . واخذ الجميع يصيحون ، وما من احد يسمع ، حتى كاد الشجار أن ينشب بينهم . وعندئذ ظهرت امرأة عجوز — وهى جدة أكولكا — وراحت تصيح محتجة ، وهى تجرى وسط الفلاحين قائلة : « أيها القوم

الصالحون ، أهكذا تفعلون فى الأسبوع المقدس ؟.. انه لأخلق بكم أن ترفعوا الشكر لله ، لا أن تجتمعوا على الشر هكذا » .. ولكن الفلاحين لم يستمعوا اليها ، ودفعوها جانبا ..

***

وبينما كان الجميع يتشاجرون ، دخلت «أكولكا» وجففت ثوبها ، ثم خرجت ثانية الى البركة فى الطريق ، والتقطت حجرا صغيرا مدببا ، وبدأت تحفر الأرض لتصنع قناة صغيرة عند حافة البركة . **وبينما هى تفعل ذلك ، انضمت اليها مالاشا ، وبدأت تساعدها فى الحفر بقطعة من الخشب. وكان الفلاحون مافتئوا يتشاجرون ، حين انسابت المياه من البركة فى القناة الصغيرة التى حفرتها الفتاتان ، وتدفقت الى حيث تجمع الفلاحون . وجاءت الفتاتان مندفعتين من الزقاق ، كل منهما على جانب من جانبى المجرى الصغير ..** وصاحت أكولكا : « كفى يا مالاشا ! كفى ! » .. وحاولت مالاشا كذلك أن تقول شيئا ، ولكنها لم تتمكن وهى تكظم الضحك .

ثم انطلقت الصغيرتان تجريان وتضحكان على الخشبة التى كانت تتمايل كالمركب فى القناة ، واندفعتا وسط الفلاحين . فما رأتهما العجوز حتى صاحت فى المرأتين المتشاجرتين : « ألا تحترمان الرب قليلا ؟.. ها أنتما متماسكتان تتشاجران بشأن هاتين الصغيرتين ، فى حين أنهما نسيتا الأمر كله من وقت طويل ؛ وهاهما تلعبان معا فى سلام ووئام . أنهما أعقل منكما ! »

فنظرت المتشاجرتان للبنتين الصغيرتين ، وخجلتا من نفسيهما ، فى حين انفجر الفلاحون جميعا ضاحكين من حماقتهم ، وتفرقوا فى أكواخهم .

الله .. والناس!

• كان اهل (باتاجونيا) يتداولون فيما بينهم القصة التالية :

فى البدء ، خلق الله الناس فى غير حاجة لأن يعملوا أو يهيئوا لأنفسهم المسكن أو الملبس أو المأكل . وكانت حياة الانسان محددة بمائة عام ، ولم يكن يصيبه المرض .

ومضى الزمن .. فلما اطل الله على العالم ليرى حال البشر ؛ وجد أنهم — بدلا من ان يفرحوا بنصيبهم — راحوا يتخاصمون ، ولا يفكر كل منهم الا فى نفسه ، حتى ان الحياة لم تعد — كما كانوا يحيونها — نعمة ، بل تحولت الى نقمة .

فقال الله فى نفسه : « ان علة هذا انهم يعيشون متفرقين ، ولا يحيا كل منهم الا لنفسه » . **ولكى يضع حدا لهذا قرر أن يجعل حياتهم مستحيلة ان لم يكدوا ويعملوا ، فان ارادوا أن يتجنبوا عضة البرد والجوع ، فليبنوا لأنفسهم مساكن ، وليفلحوا الارض ، ويرعوا القطعان والسائمة .**

وقال الله لنفسه : « ان العمل سيوحد بينهم ، فما من انسان يستطيع بمفرده ان يقطع الاخشاب ، أو يبنى المساكن ، أو يصنع الادوات ، أو يزرع أو يحصد ، أو يغزل أو ينسج أو يحيك الثياب .. ومن ثم ، فسوف يضطر الناس لأن يدركوا أنهم بقدر ما يتعاونون يزداد انتاجهم وتسعد حياتهم .. ولن يمكن لغير العمل ان يوحد بينهم » !

• العنوان الاصلى لهذه القصة : «العمل والموت والمرض»

ومضى الزمن .. واطل الله ــ مرة أخرى ــ على العالم ؛ كي يرى ماذا يفعل البشر ، وما اذا كانوا قد اصبحوا راضين بنصيبهم .. فاذا به يجدهم يعيشون فى أسوأ من الحال الاولى . كانوا حقا يعملون معا ، ولكن لأنهم لم يكونوا يستطيعون الا ذلك .. على انهم لم يكونوا جميعا معا ، اذ انقسموا الى جماعات ، كل جماعة منهم تحاول أن تلقى عبء عملها على عاتق الاخرى . ومن ثم فقد ظل الصراع فيما بينهم مستمرا ؛ والوقت والجهد فى ذلك ضائع .. هكذا كانت حالهم جميعا .

***

واذ راى الله ذلك ، قرر ان يحرم الناس من معرفة اللحظة المقدرة لموتهم ؛ بحيث يكون من المحتمل ان يأتيهم الموت فى اية لحظة من لحظات العمر ، بعد أن كان مقررا للحياة مائة سنة محددة . وقال الله لنفسه : « ان الناس حين يعرفون أنهم قد يموتون فى اية لحظة ، سيصيرون اكثر حرصا على حياتهم المهددة على الدوام ، فلا يثور الواحد منهم على الآخر ، معرضا للخطر حياته التى قد لا يكون نصيبه منها الا ساعات معدودات ! »

ومع ذلك ، فقد سارت الأمور بالعكس تماما . اذ ان الله حين أطل على العالم ــ بعد ذلك ــ ليرى ما يفعل الناس ، وجدهم فى أسوأ حال .. كان بعضهم أقوى من سواهم ، ومن ثم استطاع الاقوياء ان يستفيدوا من احتمال مجيء الموت فى اية لحظة ؛ كى يرهبوا الضعفاء ، فأخذوا يقتلون بعضا منهم ، ثم يهددون بالقتل باقيهم ، ان لم يرضخوا لمشيئتهم .

وهكذا ظهر فى الحياة نظام جديد ، يخلد فيه الأقوياء

وأتباعهم الى الراحة ، فلا يعملون على الأطلاق .. ويساق الضعفاء قسرا لأن يعملوا فـوق طاقتهم ، فلا يذوقون طعم الراحـــة ابدا . **وما فتئت كل من هاتين الطبقتين تخاف الاخرى وتكرهها ، حتى أصبحت الحياة أتعس منها فى أى وقت مضى .**

وما ان راى الله كيف تجرى الامور ، حتى قرر أن يلجأ لآخر دواء يعالج به حال الناس .. فأرسل اليهم كل انواع الامراض ، قائلا فى نفســـه انهم حين يقعون تحت وطأة المرض ، قد يقتنعون بأن الرجل السليم يجب أن يشـــفق على المريض ويعينه ، حتى اذا مرض هو ذاته وجـــد من يشفق عليه ويعينه .

***

ثم ترك الله الناس بعض الوقت .. الا انه حين أطل ــ بعد ذلك ــ على العالم ، كى يرى كيف تجرى الامور ، وجد أن الناس ــ منذ أن أصبحوا عرضة للمرض ــ قد ازدادت حالهم ســـوءا على سوء . **فان المرض الذى أرسله الله ليوحدهم ويجمع شملهم ، لم يؤد الا الى ازدياد أسباب التنابذ والفرقة بينهم ..**

ذلك أن أولئك الذى اعتادوا اكراه الآخـرين على العمل بدلا منهم ، أصبحوا الآن يكرهونهم على خدمتهم اثنـــاء مرضهم ، مع انهم هم أنفسهم لا يفـكرون على الأطلاق فى آلام غيرهم .. وفى الوقت ذاته ، كان اولئك الذين يساقون قسرا للعمل من اجل غيرهم ولخدمتهم كذلك فى مرضـهم ، قد انهكوا بالعمل بدرجة لم يعد فى استطاعتهم معها رعاية المرضى من ذات اهلهم وذويهم ، فهم من ثم يتركونهم بلا راع

ولا معين. فضلا عن ان بعض الامراض عرفت بأنها معدية .. لذلك فأن كثيرا من الناس اخذوا – خوفا من العـدوى – يبتعدون جهدهم عن المرضى المعـــذبين .ولا يخالطون من يعاشرهم .

وعندما رأى الله ذلك ، قال فى نفســـه : « مادمت لم استطع – بهذه الوســـائل – ان اجعل الناس يفهمون أين تكمن سعادتهم الحقيقية ، فأننى سأتركهم ليصلوا الى ذلك بأنفسهم ، خلال محنهم وبلاياهم ! »

ومنذ ذلك الحين ، ترك الله البشر وشأنهم .

فلما أصبح الناس يدبرون أمرهم بأنفسهم ، ظلوا زمنـا طويلا يتخبطون ، لا يدركون الوسيلة التى يســتطيعون بها أن يعيشوا سعداء .

على ان بعضهم بدأ يدرك اخـــيرا ، ان العمل فى حقيقته ليس – بالنسبة لفئة من الناس – وسيلة يســيطرون بها على غيرهم ، وبالنسبة لفئة أخرى نوعا من الاشغال الشاقة ، وأنما هو – بالأحرى – مصدر سعادة للناس جميعا ، لأنه يوحد بينهم ويجمع بعد الفرقة شملهم .. كما بدأوا يدركون أن السبيل الوحيد أمامهم – ازاء ذلك الموت الذى يهددهم فى كل لحظة – أن يجتهدوا فى قضاء ما قدر لهم من أعوام ، أو شهور ، أو أيام ، او ساعات ، او دقائق ، فى محبـــة ووئام وسلام . واخيرا تحققوا ان المرض لا ينبغى ان يكون سببا للتباعد والتنابذ بين الناس ، بل انه – على العكس – ينبغى أن يكون سببا للتآلف والتعاطف ونبــل الاحساس .

خاطئ على أبواب الفردوس!

• حدث ذات مرة ، أن عاش رجل فى الدنيا سبعين عاما ، قضاها كلها فى الخطيئة ، حتى رقد آخر الامر مريضا .. ومع ذلك ، فانه لم يتب أو يندم .. ولكنه ـ حين جاءه الموت ـ لم يتمالك نفسه ، فانهمرت الدموع من عينيه ، فى ساعته الاخيرة ، وصرخ قائلا : « **سامحنى يارب كما سامحت اللص على الصليب ! »**

وكان هذا هو كل ما انفسح له الوقت لأن يقوله ، قبل أن تفارقه الروح . ومع ذلك ، فان روحه كانه تحب الله ، وتثق فى رحمته . ومن ثم فقد انطلقت الى ابواب الفردوس. وهنالك راح الخاطىء يقرع ملتمسا الدخول فى ملكوت السموات ، فسمع صوتا من خلف الابواب يقول : « أى نوع من الرجال ذلك الذى يطرق أبواب الفردوس ، وأى أعمال صنعها فى حياته ؟ »

فأجاب صوت المدعى العام ساردا كل الاعمال الشريرة التى ارتكبها الرجل ، ولم يذكر عملا صالحا واحدا .

وعندئذ تكلم الصوت الصادر من وراء الابواب ـ مرة أخرى ـ قائلا : « **أن الخطاة لا يدخلون ملكوت السموات ، فاذهب من هنا ! »**

وصاح الرجل : « أيها القاضى ، اننى أسمع صوتك

العنوان الاصلى لهذه القصة هو : « كيف دخل الخاطيء ملكوت السموات »

ولكننى لا ارى وجهك ، ولا اعرف اسمك » .

فأجاب الصوت قائلا : « أنا بطرس الرسول »

فقال الخاطىء : « اى بطرس الرسول ارحمنى وتذكر ضعف البشر ومغفرة الله !.. الم تكن تلميذا للمسيح ؟.. الم تسمع من ذات شفتيه تعاليمه ؟.. الم تر اسلوب حياته ؟.. الا تذكر حين كان هو فى محنة الروح ، وقد عاتبك ثلاث مرات لأنك تنام ولا تصلى ، ومع ذلك فقد نمت لان عينيك كانتا ثقيلتين ، وثلاث مرات وجدك نائما ؟.. الا تذكر ـ كذلك ـ كيف وعدته بألا تنكره حتى الموت ، ومع ذلك فقد انكرته ثلاث مرات ، حين جيء به الى قيافا ؟.. هذا هو الذى حدث معى .. **الا تذكر كيف صاح الديك ، وكيف ذهبت خارجا وبكيت بكاءا مرا ؟ هذا هو الذى حدث معى .. فليس لك ان ترفض دخولى !) »**

ولكن الصوت الآتى من وراء ابواب الفردوس سكت ولم يتكلم .

***

وبعد فترة قصيرة ، بدأ الخاطىء يلتمس الدخول فى ملكوت السموات ، مرة أخرى . فارتفع صوت ثان من وراء الابواب قائلا : « من ذلك الرجل ؟.. وكيف عاش فى الدنيا ؟ »

فأجاب صوت المدعى العام ساردا مرة أخرى كل الاعمال الشريرة التى ارتكبها الخاطىء ، ولم يذكر عملا صالحا واحداً .

وعندئذ أجاب الصوت من وراء الابواب قائلا : **« اذهب من هنا . ليس للخطاة مثلك أن يعيشوا معنا فى الفردوس ! »**

ولكن الخاطىء صاح قائلا : « ايها القاضى ، اننى أسمع

صوتك ، ولكن وجهك لا أراه .. واسمك لا أعرفه » .

فقال له الصوت : « أنا الملك داوود (النبى) » .

فلم ينكص الخاطىء أو يغادر الابواب ، وانما صاح — مرة أخرى — قائلا :

« أيها الملك داوود ، ارحمنى !.. تذكر ضعف البشر ومغفرة الله . لقد أحبك الله ورفعك فوق قومك .. أفلم يكن لك كل شىء ؟.. ألم يكن لك مملكة ، ومجد ، وثروات، وزوجات ، وابناء .. ومع ذلك فانك نظرت من سطح بيتك الى زوجة رجل فقير ؟.. ألم يدخلك ملكوت السماء برغم ذلك ؟.. ثم ألم تأخذ زوجة «يوريا» وتذبحه بالسيف ؟.. انت الرجل الغنى ؛ ألم تأخذ من الرجل الفقير نعجته ثم تقتله ؟.. **هكذا الحال معى .. ألا تذكر كذلك أنك لم تتب بل قلت : « ان آثامى وذنوبى أمامى فى كل حين » ؟.. هكذا الحال معى .. فانت لا تملك أن ترفض دخولى ! »**

ولكن الصوت الآتى من وراء أبواب الفردوس سكت ولم يتكلم .

***

وبعد فترة قصيرة ، بدأ الخاطىء يقرع الابواب من جديد ، ويلتمس الدخول فى ملكوت السموات .

فارتفع صوت ثالث من وراء الابواب قائلا : « من هذا الرجل ؟ وكيف عاش فى الدنيا ؟ »

وأجاب صوت المدعى العام ، سارداً — للمرة الثالثة — الاعمال الشريرة التى ارتكبها الرجل ، ولم يذكر له عملا صالحا واحدا .

وعندئذ تكلم الصوت مرة أخرى من وراء الابواب قائلا : « اذهب من هنا .. ان الخطاة لا يدخلون ملكوت السموات » .

ولكن الخاطىء صــــاح قائلا : « أيها القاضى ، صـــوتك أسمعه ، ولكن وجهك لا أراه ، وأسمك لا أعرفه » .

فأجاب الصوت قائلا : « أنا يوحنا اللاهوتى ، التلميـذ الذى كان يسوع يحبه » .

وعندئذ فرح الخاطىء وتهلل قائلا : « اذن لن يمكنك أن ترفض دخـــولى . ان بطرس وداوود رفضا ذلك ، لأنهما يعرفان ضــــعف البشر ومغفرة الله . . اما أنت فستسمح لى بالدخول ؛ **لأن فيك الكثير من الحب . ألم تكتب — أى يوحنا اللاهوتى — قائلا فى الكتاب أن الله محبة ، وان الذى لا يحب ، لا يعرف الله كذلك ؟ . . ألم تقل للناس فى الزمن القديم : « ايها الأخوة ، حبوا بعضــكم بعضا » ؟ . .** فكيف يمكن — اذن — أن تكرهنى أو تطردنى من هنا ؟ . . انك امـــا أن تحبنى وتقبل دخولى ملكوت السموات ، واما أن تنكر ما قلته أنت نفسك » .

وعندئذ فتحت أبواب الفردوس ، ودخل الخاطىء التائب ملكوت السموات .


القاتل

• كان يعيش فى مدينة (فلاديمير) تاجر شـاب ، يدعى « أكسـيينوف » ، يملك حانوتين ومنزلا .. وكـان أحمـر البشرة ، أجعد الشعر ، وسيما فى جملته . فضلا عن انه كان رخيم الصوت ، محدثا من الطراز الأول .. غير أنه اكتسب ـ منـذ صغره ـ عادة شرب الخمر ، حتى غـدا سـكيرا عربيـدا . لكنه لم يكد يتزوج حتى هجر الخمر ولم يعـد يقربها ، الا بين الحين والحين .

وذات صيف ، كان مزمعا ترك عائلته والرحيل الى مكان الاحتفال بـ « المولد » فى (نيزنى) ، حين قالت له زوجته : « لاتذهب اليوم يا ايفان ديمتريفيتش ، فقد حلمت عنك حلما مزعجا فى الليلة الماضية ! » .. ولكن اكسينوف ضحك وقال : « أخائفة انت ؟ .. اننى سأذهب فأقضى وقتا ممتعا فى المولد » .

ـ لست أعـرف ما يخيفنى ، غـير اننى رأيت فى حلمى رؤيا مرعبة .. رأيتك آتيا من المدينة ، فلما رفعت قبعتك ، رأيت شعرك قد اشتعل شيبا !

فضحك اكسينوف ـ مرة أخرى ـ وقال لها : « لا تخافى ، فلسوف أعقد هناك بعض صفقات رابحة ، وآتى لك ببضع هدايا ثمينة » .

وقبل أفراد عائلته ، ثم رحل .

***

وفى منتصف الطريق ، التقى بتـاجر آخر من معارفه ، واتفقا على قضاء الليل فى خان هناك .. ومضيا الى فراشهما فى غرفتين متلاصقتين . غير ان « إكسينوف » ـ الذى لم يكن مولعا بالنوم ـ استيقظ فى منتصف الليل . ولمـا كان

السفر بهيجا فى نسمة الليل الرطيبة ، فقد أيقظ سائس الخيل ، وطلب اليه اعداد جواده للرحيل ، ثم ذهب الى مكتب صاحب الخان فدفع ما عليه ، وواصل رحلته .

وبعد أن ابتعد حوالى اربعين فرسخا ، توقف ليطعم جواده فى خان آخر .. وأخلد الى النوم بعض الوقت ، ثم دخل الى الشرفة ليتناول فيها غداءه . وطلب ابريقا من الشاى ، وتناول الجيتار (القيثارة) وبدأ يعزف عليه . وفجأة دخلت الفناء عربة ذات ثلاثة جياد ـ (ترويكا) ـ مجهزة بالأجراس .. وترجل منها ضابط وجنديان . ثم تقدم الضابط من « أكسينوف » وسأله من هو ومن أين جاء . فأجاب اكسينوف عن ذلك فى الحال . ثم سأل بدوره الضابط عما اذا كان يتفضل ويشاطره ابريق الشاى . **وكان الجواب الوحيد للضابط ان امطره باسئلة اخرى ، قائلا له أين نام فى الليلة الماضية ، وهل كان وحده او معه تاجر آخر ، وهل رأى التاجر فى الصباح قبل ان يرحل ، ولماذا رحل مبكرا هكذا ، وغير ذلك من الأسئلة ..**

ودهش اكسينوف أيما دهشة لاستجوابه بهذه الطريقة ، الا أنه أنبأ الضابط بكل ماكان يعلم . ثم قال له : « لماذا تريد معرفة هذه الخصوصيات ؟ . . لست لصا ولا قاطع طريق ، وانما أنا تاجر مسافر فى عمل يخصنى ، ولم أفعل ما أستحق أن أستجوب عليه هكذا » . فلم يفعل الضابط الا أن دعا الجنديين ، وقال لاكسينوف : « اننى مفتش الشرطة ، والسبب الذى من أجله أسألك هو أن التاجر الذى كنت معه فى الليلة الماضية قد قطعت رقبته . . أرنى كل أمتعتك » .. ثم استدار الى الجنديين وقال لهما : « فتشاها ! » . .

وهكذا قادوا اكسينوف الى الداخل ، واخذوا منه حقيبته

ومحفظته وفتحوهما وفتشوهما .. وفجأة أخرج الضابط سكينا من الحقيبة وصاح قائلا : « ما هذه السكين التى فى حقيبتك ؟ » .. **فحملق اكسينوف بعينيه ، ورأى سكينا ملطخة بالدم ، أخرجها الضابط من الحقيبة .. ومن ثم شعر بأن صاعقة انقضت عليه** .. واسترسل الضابط قائلا : « وكيف حدث أن تلطخت السكين بالدماء ؟ »

وحاول اكسينوف أن يجيب ، ولكن الكلمات وقفت فى حلقه . وفى النهاية أخذ يدمدم قائلا : « أنا .. أنا لا أدرى .. هذه السكين ليست .. ليست لى على الاطلاق » . فرد عليه الضابط : « فى هذا الصباح ، وجد التاجر مقتولا فى فراشه ، ولا أحد غيرك يمكنه أن يفعل ذلك ، لأن باب غرفة النوم كان مغلقا من الداخل ، ولم يكن فيها أحد معه غيرك .. **وها قد وجدنا هذه السكين الملطخة بالدماء فى حقيبتك ، وفضلا عن ذلك ، فان وجهك يفضحك .. قل لى كيف قتلت هذا الرجل وكم من المال سرقت منه ؟ »**

واقسم « اكسينوف » بالله أنه لم يرتكب هذا الفعل ، وأنه لم ير التاجر بعد أن تناول الشاى معه ، وأنه لم يكن يحمل سوى ثمانية آلاف روبل مملوكة له ، وأن السكين ليست سكينة .. بيد أن صوته كان متهافتا ، ووجهه فى صفرة الموت ، وهو يرتعد من الخوف ، شأن الرجل الذى ارتكب جريمة .. وعلى الرغم من دموعه واحتجاجاته ، أمر الضابط الجنديين بأن يضعا القيد فى يديه ، وأن يقوداه خارجا الى العربة . وأخذوا منه كل أمتعته ونقوده ، وأرسلوه الى السجن فى المدينة المجاورة . وأجريت المباحث فى فلاديمير للاستعلام عن أخلاقه ، فأجمع كل سكان البلد وتجاره على الشهادة بأنه — وان اعتاد الاكثار من شرب الخمر من

صـغره ـ كان رجـلا محترما كل الاحتـرام .. ثم جاءت المحاكمة ، وادين ـ آخر الامر ـ بالقتل وبسرقة عشرين الف روبل .

***

وتملكت الحيرة والدهشة زوجته .. ولم يكن فى مقدورها ان تعرف الحقيقة . ومع أن اولادها كانوا صـغارا ، وكان احدهم رضيعا بعد على صدرها ، فقد أخذتهم الى المدينة ، حيث كان زوجها محبوسا . وفى مبدأ الأمر ، لم تستطع أن تحصل على تصريح برؤيته ؛ ولكنها ـ بعد أن قدمت عـدة استرحامات الى السلطات العليا ـ استطاعت أخيرا دخول السجن .. فما ان رأته يرتدى ملابس السجن ، والحـديد فى يديه ورجليه ، والمجرمون يحيطون به ، حتى سقطت على الأرض مغمى عليها ، ولم تفق الا بعد وقت طويل .. وعندئذ جمعت أطفالها حولها وجلست معهم بجانب زوجها ، وبدأت تتحدث معه فى الشؤون العادية ، وتسأله عن كل ما حدث له . فلما أجابها ، قالت له : « وماذا عسانا نفعل الآن ؟ » . فقال : « لنستعطف الرؤساء ، فانهم لايمكن أن يسجنوا رجلا بريئا ! »

فقالت له انهـا حاولت ذلك بالفعـل ؛ وانهم رفضـوا استعطافهـا .. فلم يقـل شيئا ، وانمـا جلس ناظرا الى الأرض . واستطردت هى تقول له : « **وهكذا ترى اننى كنت على حق حين حذرتك من الرحيل بسبب الحلم الذى رأيت فيه شعرك قد اشتعل شيبا .. فها هو ذا شعرك قد بدأ يشيب فعلا ، من جراء متاعبك . آه لو انك فقط لم تذهب فى ذلك اليوم !** » .. ثم راحت تربت على رأسه وهى تقول : « يا حبيبى ايفان ، قل لى ، أنا زوجتك ، حقيقة الأمر ..

هل حقا ارتكبت هذا الجرم ، الم ترتكبه ؟ » .

فقال لها : « ايخطر ببالك انت – من بين الناس جميعا – انني أفعل هذا ؟ »

كان ذلك كل ما استطاع اكسينوف أن يقوله . وقد غطى وجهه بيديه وانفجر باكيا .. وفي هذه اللحظة ، دخل جندي وقال أن وقت انصراف الزوجة واولادها قد حان . وهكذا رأى اكسينوف عائلته ، للمرة الأخيرة .

وعندما انصرفوا ، بدأ اكسينوف يفكر في المحادثة التي دارت بينه وبين زوجته . فلما تذكر ان زوجته نفسها ظنت انه مجرم ، وسألته بالفعل عما اذا كان لم يقتل التاجر ، قال لنفسه : « من الواضح ان الله وحده يعلم الحقيقة .. فله وحده يجب أن أصلي ، ومنه وحده اطلب المغفرة » ..

ومنذ تلك اللحظة ، استبعد اكسينوف كل امل ، وكل تفكير في ان يتظلم مرة اخرى ، وراح يصلي لله وحده .

وحكم عليه بالجلد والاشغال الشاقة ، وفي الحال نفذ الحكم : فجلد اولا ، حتى اذا اندملت جراح الجلد ارسل مع مذنبين آخرين الى سيبريا .

وفي سيبريا ، قضى «اكسينوف» في الاشغال الشاقة ستا وعشرين سنة ، غدا خلالها شعر راسه ابيض كالثلج ، واستطالت لحيته واسترسلت ووخطها الشيب . وقد بارحه مرحه القديم ، وانحنت قامته ، واصبح صموتا رصينا . ولكنه ظل مداوما على الصلاة لله .

وتعلم – في السجن – صنع الأحذية ، واشترى بالنقود التي كان يكسبها كتابا مقدسا ، اعتاد أن يقرأ فيه كلما كان الضوء متوفرا في السجن . وكان – في أيام الأعياد – يذهب الى كنيسة السجن ، فيقرأ الانجيل هناك ، ويرتل مع

المرتلين ، اذ ظل صوته رخيما . وقد احبه رجال السلطة في السجن بسبب حسن سلوكه ، ونال احترام الضباط حتى لقد كانوا يلقبونه ((ديديشكا)) أى الجد ، كما كانوا يدعونه رجل الرب . واصبح كل راغب — من زملائه — فى ان يقدم تظلما فى السجن ، يلجأ اليه ويأخذه معه للسلطات . وحينما كانت تحدث مشادات بين المسجونين ، كانوا دائما يسعون اليه لينهيها .

ولم يصل ابدا أى خطاب لاكسينوف من عائلته . وعلى ذلك لم تكن لديه وسيلة للتأكد مما اذا كانت زوجته وأبناؤه على قيد الحياة ، أم طواهم الموت .

***

وذات يوم ، وصلت الى السجن شرذمة من المذنبين الجدد . فلما كان المساء ، تجمع المسجونون القدماء حول هؤلاء القادمين الجدد ، ليسألوهم من هم ، ومن اية مدينة أو قرية جاءوا ، ومن أجل أية جرائم حكم عليهم . وجاء أكسينوف كذلك ، فجلس على فراش من القش بالقرب من القادمين الجدد ، واستمع — وعيناه الى الأرض — لما راحوا يقولونه . وراح سجين طويل القامة ، قوى البنيان ، متقدم السن — فى حوالى الستين من عمره — ذو لحية سنجابية مشذبة .. راح يحكى قصة الجريمة التى سجن من أجلها ، وختم قصته قائلا : ((وهكذا يا أصدقائى ترون انني أرسلت الى هنا من اجل لا شيء .. كل ما فعلته انني أخذت جواد صبى من صبيان البريد ، من عربة فى فناء الخان . وقد اعتقلوني قائلين انني سرقته .. فقلت لهم طبعا ، ان غرضى الوحيد من أخذ الجواد كان هو ان اصل بأسرع ما يمكن لغايتى ،

وكنت مزمعا ان أعيده بعد ذلك لصاحبه . ومع ذلك قالوا : « كلا . انك سرقته ! » .. قالوها هكذا دون ان يعرفوا كيف ومتى سرقته !.. وقد حاكمونى . ولو كانوا حصلوا على الدليل اللازم لادانتى ، لكنت هنا من زمن طويل ؛ ولكنهم لم يستطيعوا الحصول عليه ، فأخذونى مخالفين القانون » .

ثم صمت قليلا وقال : « حسنا . لقد كنت فى سيبريا من قبل ، ولم أقض هنا زمنا طويلا » . فسأله أحد المسجونين الاخرين : « من أين جئت ؟ » . فأجابه : « من فلاديمير ، حيث كنت مسجلا .. واسمى مقار ، ولقبى سيمنوفيتش » .

وعند ذلك رفع اكسينوف رأسه وسأله : « **ألم تسمع فى فلاديمير عن عائلة تاجر اسمه اكسينوف ؟.. أما زال أفرادها أحياء ؟** » . فأجابه : « كيف لم أسمع عنهم ؟.. انهم قوم ميسرون ، الا أن والدهم لسوء الحظ فى سيبريا .. انه — فى الواقع — فى نفس المحنه التى نحن فيها . ولكن أنت .. ماذا كانت جريمتك ؟ »

ولم يكن أكسينوف يحب أن يتحدث عن متاعبه ، ولذلك اكتفى بأن تأوه وقال : « **أنا هنا من أجل ذنوبى ، قد قضيت الآن فى الاشغال الشاقة حوالى ست وعشرين سنة** » .

وسأله مقار : « ولكن أية ذنوب ؟ » .. فقال اكسينوف : « ذنوب استحققت من أجلها هذا » .. ولم يقل شيئا آخر .. الا أن زملاءه حكوا لمقار قصة التاجر الذى وجد مقتولا اثناء سفره ، والسكين التى دست لاكسينوف ، وما أدى اليه ذلك من الحكم بالسجن عليه خطأ من اجل جريمة لم يرتكبها . فما أن سمع مقارهذا ، حتى حملق فى اكسينوف ، وخبط بيديه على ركبتيه وقال : « عجيب ! عجيب !.. ولكن الأمر جعلك كهلا جدا ، يا أبى الصغير ! » ... فلما

سألوه عما ادهشه هكذا ، وعما اذا كان قد رأى اكسينوف من قبل ، لم يجب . وانما قال فقط : « انه لأمر مدهش يا أصدقائى .. كيف يلتقى الناس فى هذا العالم ؟ »

***

وفى الحال ، خطر لأكسينوف انه من الممكن أن يكون هذا الرجل على علم بالقاتل الحقيقى .. ومن ثم قال له : « أما سمعت أبدا عن هذا الأمر من قبل يا سيمنوفيتش ؟ أو لم ترنى من قبل ؟ » . فأجابه : « بالتأكيد سمعت عن هذا الأمر من قبل ، فالناس جميعا قد تحدثوا عنه فى ذلك الوقت .. ولكن ، لقد حدث هذا منذ زمن بعيد .. واذا كنت قد سمعت الشىء الكثير عنه يومذاك ، الا اننى قد نسيت أكثره الآن » .

فلاحقه اكسينوف بالسؤال : « ولكن الم يحدث لك قط ان سمعت من القاتل الحقيقى للتاجر ؟ » .. فابتسم مقار وهو يقول : « لابد أن يكون الرجل الذى قتله هو الذى وجدت السكين فى حقيبته .. فلو أن رجلا دس عليك السكين ، لما قبضوا عليك كما حدث ، لأن هنالك السرقة أيضا .. وفضلا عن ذلك ، فانه لكى يدس القاتل السكين لك ، كان ينبغى عليه أن يقف بجانبك . أليس كذلك ؟.. وحينئذ كان ينبغى أن تسمعه » .

وما أن قال مقار ذلك ، حتى بدأ اكسينوف يشك فى أن يكون مقار نفسه هو القاتل الحقيقى ، فنهض ومضى .. وظل هذه الليلة بطولها لايطوف به النوم ، فأخذ الاجهاد منه كل مأخذ ، وراح يستعيد فى ذهنه صور الماضى ، فتراءت له — أولا — زوجته وهى تنظر اليه كما كانت تفعل حين رأته

يخرج لآخر مرة ، فى طريقه الى احتفال المولد . وقد رآها كما لو كانت حية حقــا أمامه .. رأى عينيهــا ووجهها ، وسمع ضحكتها وحديثها . ثم رأى أطفاله كما كانوا فى تلك الأيام ؛ صــغارا ، وأحــدهم فى سترة جميلة من الفــرو ، وأصغرهم يرضع ثدى امه . ثم رأى نفسه كما كان فى تلك الايام ، شــابا ممتلئا بالحيوية والروح المتوثبــة . وتذكر جلوسه فى الشرفة ، وعزفه على ((الجيتار)) فى الخــان ، حيث قبض عليــه .. كم كان سعيــد القلب اذ ذاك ! .. وما لبث الفكر أن انتقل به الى مكان التنفيذ حيث جلدوه ، فتذكر الجــلاد ، والنــاس المتجمهرين حوله ، والقيــود الحــديدية ، والمسجونين الآخرين ، وكل الاعوام الســتة والعشرين التى عاشها فى السجن ، والسن التى تقدمت به ؛ وهذه الرجفة التى أصبحت تنتابه — من فرط اليأس — كلما مس جسده بيديه .. وراح يفكر فى نفسه قائلا : ((كل هذا بسبب ذلك الوغد !))

وكانت ثورته عــلى مقــار سيمنوفيتش كفيلة — فى تلك اللحظة — بأن تدفعه لأن يهجم على الرجل ويثأر لنفسه منه الى الأبد .. وقد ظل طول الليل يتلو صلواته ، ومع ذلك لم تهدأ نفسه .. وفى اليوم التالى ، لم يقترب أبدا من مقار ، ولم ينظر ليه .

***

ومر اسبوعان آخران ، لم يتسن لاكسينوف طوالهما أن ينام الليل . وكان هذا الارهاق يضنيه حتى لم يعد يدرى مايفعل بنفسه . وذات ليلة ، كان يجول فى السجن ، حين رأى بعض التراب يقــــذف من تحت فراش من القش . فتوقف لينظر . وفجاة خرج مقار سيمنوفيتش من تحت

الفراش ، فحدجه بنظرة مرعبة . وكان اكسينوف على وشك ان يمضى ليتجنب النظر اليه ، حين أمسك مقار بذراعه ، وقال له آنه كان يحفر ممرا تحت الجدران .. وأنه اعتاد أن ينقل التراب الى الخارج كل يوم فى قاع حذائيه ، ويتخلص منه فى الطريق وهم ذاهبون للعمل . ثم استطرد قائلا : « لاتقل شيئا عن هذا . ولسوف آخذك معى .. أما اذا وشيت بى ، فلن أدعك حتى أقتلك ! »

وراح « اكسينوف » ينظر الى الرجل الذى أثم فى حقه اثما شنيعا ، فارتعد من فرط الغضب ، وسحب ذراعه من قبضة الرجل ، وقال له : « **ليس لى شىء أهرب من أجله ، ولن يمكنك أن تقتلنى مرة أخرى . لقد فعلت ذلك ، من زمن بعيد . اما اذا كنت ساشى بك أو لا اشى ، فذلك رهن بما يلهمنى الله ! »**

وفى اليوم التالى ، كان المسجونون يسيرون الى العمل ، واذا بعض الجنود يلاحظون أن مقار سيمنوفيتش كان ينشر ترابا على الأرض . وقد أدى ذلك الى تفتيش السجن واكتشاف الحفرة .. وجاء حاكم السجن ، فبدأ يسأل كل رجل بدوره ، بأمل العثور على صانع الحفرة . ولكنهم انكروها جميعا . ولم يش الذين كانوا يعلمون الحقيقة بمقار ، اذ كانوا يعلمون ان جزاء هذه الجريمة هو الجلد حتى الموت .. وحينئذ ، استدار الحاكم الى اكسينوف ، وكان يعلم انه رجل يقول الصدق ، فقال له : « أيها الشيخ ، انك واحد من أولئك الذين يقولون الحق ، فقل لى الآن ، أمام الله ، من فعل هذا ؟ »

وكان مقار واقفا وكأنما لا حيلة له فى الامر ، وهو يحملق فى الحاكم ، دون أن ينظر قط إلى اكسينوف . وكانت يدا

اكسينوف وشفتاه ترتعدان ؛ وقد مر وقت قبل أن يستطيع أن يجد كلمة يقولها .. فى هذا الوقت ، راح يفكر فى نفسه قائلا : « **لو اننى تسترت عليه ، فاننى أكون قد عفوت عن الرجل الذى دمرنى وأضاعنى . فلماذا أفعل ؟.. لأدعه يدفع أخيرا ثمن كل ما قاسيته من آلام .. ولكن ، مع ذلك .. لو أننى وشيت به ، فمعنى ذلك انه سيجلد ، فماذا لو كان شكى فيه فى غير محله ؟.. وعلى أية حال ، أترانى سأشعر بأية راحة لو اننى فعلت ؟** »

وتكلم الحاكم مرة أخرى : « قل لى الحقيقة أيها الكهل .. من الذى حفر هذه الحفرة ؟ » . فنظر اكسينوف هنيهة الى مقـار ، ثم أجاب : « لا أستطيع أن أقول لك يا صاحب السعادة .. ان الله لا يسمح لى بذلك ، ومن ثم فلن أتكلم .. افعل ما تشاء ، فأنا تحت سلطانك ! » .. ولم يزد كلمة ، بالرغم من كل تهديدات الحاكم . وبذلك لم يعرفوا أبدا من الذى حفر الحفرة .

***

وفى ذات الليلة ، كان اكسينوف مستلقيا على فراشه القش ، نصف نائم ونصف صاح ، واذا به يسمع شخصا يقترب منه ؛ فيجلس عند مؤخر الفراش . وحملق خلال الظلام ، فعرف فى القادم «مقار» ، فقال له : « ماذا تريد منى أيضا .. لماذا انت هنا على الاطلاق ؟ » . فلم يجب مقار . واستوى اكسينوف قليلا فى فراشه ، وقال مرة أخرى : « ماذا تريد ؟.. اذهب عنى والا دعوت الشرطة ! » . فمال مقار عليه وقال فى همس : « **أيفان ديمتريفيتش . اصفح عنى !** »

وسأله اكسينوف قائلا : « أصفح عنك من أجل ماذا ؟ »

.. فأجابه : « لأننى أنا الذى قتلت التاجر ودسست السكين فى حقيبتك . لقد كنت أريد أن أقتلك أنت أيضا ، لولا ان ارتفع صوت فى الفناء ، فألقيت السكين فى حقيبتك وفررت من النافذة » .

لم يقل اكسينوف شيئا ، لأنه فى الحق لم يدر ما يقول ، فانسل مقار من الفراش وجثا على الأرض ، وراح يقول : « ايفان ديمتريفيتش ، اصفح عنى .. أصفح عنى .. من أجل خاطر الرب !.. سأعترف بقتل التاجر ، وعندئذ يعفون عنك ، ويتركونك تذهب الى بيتك ! » .. ولكن اكسينوف أجابه : **« لقد كان سهلا عليك أن تتكلم ، ومع ذلك ماذا بقى لى لأعانيه بعد ؟ .. ثم أين عساى أذهب ؟.. لقد ماتت زوجتى ونسينى أولادى ، ولم يعد امامى الا الموت »** .

وراح مقار يضرب رأسه فى الارض ، وهو لايزال جاثيا على البلاط ، يردد : « ايفان ديمتريفيتش ، أصفح عنى ! أصفح عنى !.. حتى لو كانت السياط ألهبتنى ، لما آلمتنى الجلدات كما يؤلمنى منظرك الآن .. أيمكن أن يكون فى قلبك رحمة نحوى ولا ترحمنى ؟!.. أصفح عنى ، من أجل خاطر المسيح ، بالرغم من أننى وغد تعيس ! » .. ثم انفجر باكيا .

فلما سمع أكسينوف مقار يبكى بكى هو الآخر ، وقال له : **« ليغفر لك الله !.. قد أكون أنا آثما قدر اثمك مائة مرة »** .

وعندئذ أضاء النور قلبه .. وكف عن حنينه لأهله .. وشعر بأنه ما رغب قط فى مغادرة السجن .. وكل ما فكر فيه ــ بعد ذلك ــ هو نهايته الأخيرة .

وعلى الرغم مما قاله أكسينوف ، أعترف مقار بالقتل . ومع ذلك ، فحين أمر الضابط بأحضار أكسينوف لترحيله الى بلده ، كان قد مضى بالفعل الى المنزل الآخر الذى يمضى اليه الناس جميعا .. **كان قد مات !**

حبة القمح!

• حدث ذات مرة ، ان عثر بعض الصبية ــ فى وهدة من الوهاد ــ على شىء صغير مستدير ، يشبه البيضة ، الا أنه أوتى فالقا فى وسطه ، جعله اشبه بحبة القمح . وقد شهد أحد المارة هذا الشىء فى أيدى الصبية ، فاشتراه منهم بخمسة كوبيكات ، واخذه الى المدينة ؛ حيث باعه للملك على أنه تحفة من التحف ، وطرفة من الطرف .

وأرسل الملك فى طلب الحكماء من رجاله ، وسألهم أن يفحصوا هذا الشىء الصغير المستدير ، وأن يقرروا ما اذا كان هو بيضة أم حبة قمح . وقد تمعن الحكماء ثم تمعنوا ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يصلوا الى حل لهذا الاشكال .

ومن ثم فقد ألقى الشىء الصغير المستدير على رف نافذة ، وترك هنالك ، حتى حدث ــ ذات يوم ــ ان قفزت الى الرف دجاجة ، فنقرت هذا الشىء بمنقارها ، وحفرت فيه حفرة . **وعندئذ تسنى للجميع ان يقطعوا بانه كان حبة قمح .. فاسرع الحكماء الى الملك مؤكدين له ان الشىء الصغير المستدير انما كان حبة قمح !**

ودهش الملك لذلك أيما دهشة ، وطلب الى حكمائه أن يفكروا ويقرروا : أين ومتى نبتت هذه الحبة .. فتمعن الحكماء ، ثم تمعنوا . وراحوا ينقبون فى كتبهم ، ولكنهم لم يستدلوا على شىء . فعادوا الى الملك قائلين : « ليس بوسعنا أن نجيب عن هذين السؤالين ، لاننا لم نجد شيئا فى كتبنا

عنهما . فابعثوا جلالتكم برجالكم يستعلمون بين الفلاحين ؛ عسى أن يكون بينهم واحد قد سمع من أسلافه أين ومتى نبتت هذه الحبة ! »

***

وعلى هذا ، أرسل الملك فى طلب احد الطاعنين جدا فى السن ، من الفلاحين . وبعد بحث طويل ، جيء فى حضرته برجل هرم ، ادكن اللون ، مخلوع الأسنان ، يمشى بصعوبة على عكازين . فعرض عليه الملك حبة القمح التى لم تكن تشبه اى شيء رآه العجوز من قبل .. وبطبيعة الحال ، كان من الصعب عليه ان يراها بوضوح بعينيه ، او يحس بها كل الاحساس بيديه . وسأله الملك قائلا : « هل تعرف - ايها الجد الطيب - أين زرعت هذه الحبة . وهل سبق لك أن رأيت شبيها لها فى حقلك او اشتريت فى زمانك مثلها ؟ »

وكان الرجل فاقد السمع ، فلم يتمكن من ان يفقه كلام الملك الا بصعوبة عظيمة . ومن ثم فقد أبطأ فى الاجابة . ثم قال أخيرا : « كلا ، لم يحدث لى قط ان زرعت مثل هذه الحبة فى حقلى ، او حصدت مثلها او اشتريته . فحين كنا نشترى القمح ، كان القمح صغيرا جدا! » . ثم أضاف قائلا : « ولكن يحسن أن تسأل ابى ، فربما يكون قد سمع اين زرعت هذه الحبة » .

فطلب الملك احضار أبيه .. وبعد بحث طويل ، وجدوه ، وجاءوا به وهو يتوكأ على عكاز واحد فقط . فأطلعه الملك

على الحبة ، وكانت عينا العجوز مازالتا سليمتين ، فأمكنه ان يرى الحبة بقدر كاف من الوضوح . وحينئذ سأله الملك قائلا : « هل تعرف أيها العجوز الطيب ، أين زرعت هذه الحبة ، وهل سبق لك ان رايت مثلها فى حقلك ، أو اشتريت مثلها فى أيامك ؟ »

وكان العجوز ثقيل السمع قليلا ، ومع ذلك فقد كان اكثر مقدرة على السمع من ابنه ، فأجاب قائلا : « كلا .. لم يحدث لى قط ان زرعت مثل هذه الحبة ، أو حصدتها أو اشتريت مثلها ، فلم تكن النقود على أيامى قد استعملت بعد فى التجارة .. وكان كل واحد يزرع قمحه بنفسه . وأما الحاجيات الأخرى فكان الناس يتقاسمونها . اننى لا اعرف أين عسى أن تكون هذه الحبة قد نمت ، لأن قمحنا — وان كانت حباته أكبر من حبات قمح اليوم ، وكانت تعطى قدرا أكبر من الدقيق — لم يكن فى حجم هذه الحبة التى لم أر قط فى حياتى مثلها . ولكننى سمعت أبى يقول: ان القمح فى أيامه كان أجود منه فى أيامى ، وأن حباته كانت أكبر ، وما يعطيه من الدقيق كان أوفر . فيحسن أن ترسلوا اليه وتسألوه » .

فطلب الملك احضار ابيه ، فجيء به الى حضرته ، وقد دخل دون عكاز على الاطلاق ، بل كان يمشى فى يسر ، ويتكلم فى وضوح ، وعيناه ما زالتا سليمتين مبصرتين .

***

وإذ أطلعه الملك على الحبة ، اخـذها بين يديه ، وراح يقلبها ثم يقلبها . وقال أخيرا : « لقد مضى زمن طويل جدا منذ أن رأيت حبة من حبوب العهد الغابر كهذه ! » .. ثم قضم الحبة ، وراح يلوك جزءا منها ؛ وهو يقول : « انها هى ذاتها ! »

فقال الملك : « قل لى اذن يا جـدى ، أين ومتى زرعت هذه الحبة ؟ .. وهل سبق لك أنت ذاتك أن زرعت مثلها فى حقلك ، أو اشتريت مثلها من اى مكان ؟ »

فأجاب العجوز قائلا : « لقد كان مثل هذه الحبة على أيامى يزرع فى كل مكان . وكنت على مثلهـا أعيش وأعول الآخرين .. لقد طالما زرعت وحصدت مثل هذه الحبة ! »

وعاد الملك فسأله قائلا : « قل لى أيها الجد الطيب ، هل اعتدت فى أيامك أن تشترى مثل هـذه الحبـة ، أو كنت تزرعها بنفسك فى حقلك ؟ »

فابتسم العجوز وقال : « فى أيامى ، لم يكن هنـاك من يفكر - على الاطلاق - فى اقتراف هذا الاثم العظيم ، الذى هو بيع القمح أو شرائه .. فاننا لم نكن نعرف شيئا عن النقود .. وكان كل انسان يملك من الحنطة قدر ما يريد ! »

فسأله الملك مرة أخرى قائلا : « قل لى أيها الجد الطيب ، أين زرعت مثل هذه الحبة ؟ .. أين كان حقلك ؟ »

فأجاب العجوز قائلا : « كان حقلى هو أرض الله ، فحيث كنت أحرث كان ذلك هو حقلى . كانت الأرض للجميع ،

ولم يكن أحد يقول هذه أرضي . كان كل ما يملكه المرء هو عمل يديه ! »

فقال الملك : « اجبني الآن عن سؤالين .. أولا : لماذا كان هذا القمح ينمو في تلك الأيام ، ولا ينمو الآن ؟.. وثانيا : لماذا يمشي حفيدك بعكازين ، وابنك بعكاز واحد ، بينما تمشي أنت نفسك بسهولة ، دون ما عكاز على الاطلاق .. وفوق ذلك فان عينيك ما زالتا سليمتين ، وأسنانك ما زالت قوية ، وكلامك مازال واضحا فصيحا ؟.. هلا عللت هذه الأمور ؟ »

فأجاب العجوز : **« ان سبب هذه الأمور هو أن الناس لم يعودوا يعيشون بعملهم وحده ، وانما بدأوا يشتهون ما لغيرهم . اما في الزمن القديم فلم يكونوا يعيشون هكذا . في الزمن القديم ، كان الناس يعيشون بمقتضى كلمة الله .. كانوا سادة أنفسهم ، ولم يكونوا يشتهون ما للغير ! »**


شوط
الحياة

« كم يلزم الانسان من الارض ؟ »

- ١ -

• جاءت الأخت الكبرى من المدينة لتزور أختها الصغرى .. وكانت الكبرى متزوجة من تاجر ، والصغرى متزوجة من فلاح . وفيما هما تحتسيان الشاى وتتحادثان ، راحت الكبرى تتباهى وتشيد بحياتها فى المدينة ، شارحة كيف تعيش وتتنقل فى راحة ويسر ، وتلبس أطفالها فاخر الثياب ، وتأكل وتشرب ما لذ وطاب من المآكل والمشارب ، وتذهب لتتزحلق على الجليد ، وتتمشى ، وتشهد المسرح .

فاغتاظت الأخت الصغرى من ذلك ، وانطلقت — وهى ترد على اختها — تندد بحياة زوجة التاجر ، وتتفاخر بحياة الريف التى تحياها هى ، قائلة لها : « اننى من جانبى لا يعنينى ان استبدل حياتى بحياتك . واؤكد لك أننا نحيا حياة بديعة ، فلا نعرف الثورة أو التذمر . أما انتم فعلى العكس .. مع كل حياتكم الرخية ، اما أن تصيبوا ربحا عظيما ، أو يصيبكم الدمار . وانك لتعرفين الحكمة القائلة ان « الخسارة هى الأخت الكبرى للمكسب » . فمن الممكن ان تكونوا أغنياء اليوم ، ولكنكم قد تجدون انفسكم فى الشارع غدا . **أما نحن فحياتنا أفضل من ذلك هنا فى الريف . فقد تكون معدة الفلاح رفيعة ، ولكنها طويلة .. أى انه قد لا يكون غنيا ابدا ، ولكنه مع ذلك يملك على الدوام كفايته ! »**

وهنا بادرت أختها الكبـــرى الى مقاطعتها قائلة لها : « أحقا تقولين كفايته ؟.. كفايته ؟ مع لا شيء ســـــوى خنازيرك وابقارك العجفاء ؟.. كفايته ، مع لا شيء من الملابس الجميلة أو الصحبة الطيبة ؟.. فلماذا اذن مع كل ما يقوم به زوجك من عمل شاق ، تجـــدين ان عليك أن تعيشى فى الوحل الذى ستموتين فيـــه كذلك ، أنت وأطفالك من بعدك ؟ »

فأجابتها الصغرى قائلة : « كلا . كلا . ان الامر لا يجرى معنا هكذا ، فمع أننا قد نقضى حياتنا فى عيشة جافية ، الا ان الأرض على الأقل هى أرضنا ، ولا حاجة بنا لأن ننحنى ونتمسح بأى انسان .. أما أنتم فى المدينة ، فتعيشـــون فى جو من الفضيحة .. فاليوم قد يكون كل شيء حسنا معكم ، ولكن العين الشريرة لا تلبث أن تصيبكم غدا ، فاذا زوجك يجد نفسه قد أغواه الميسر أو شرب الخمـــر ، أو خطف بصره بعض بريق الحب .. واذا بك تجدين نفسك وأبناءك وقد ضعتم وتحطمتم .. أليس كذلك ؟ »

وكان « باخوم » ــ زوج الاخت الصـــغرى ــ ينصت للحديث بالقرب من الموقد .. فقال : « هذا حق . اننى ما افتأ أقلب أرض أمى منذ طفولتى ؛ فلا وقت لأية حماقة من الحماقات كى تنفذ الى رأسى .. **ومع ذلك فلدى هم واحد : هو ان رقعة أرضى صغيرة جدا .. فأعطينى ارضا فقط ، وستجدينى لا اخاف انسانا .. كلا ، ولو كان الشـــيطان نفسه ! »**

وفرغت المرأتان من احتساء الشاى ، وثرثرتا قليلا بعد ذلك عن الملابس ، وغسلتا الآنية ، ثم ذهبتا الى فراشهما ».

وكان الشيطان جالسا خلف الموقد — فى تلك الاثناء — وقد سمع كل شىء ، وامتلأ سرورا حين قادت زوجة الفلاح زوجها الى التفاخر والتباهى ، والتبجح بأنه — اذا هو حصل على الأرض — فلن يتسنى للشيطان نفسه أن يأخذها منه . وقال الشيطان لنفسه : « بديع !.. لسوف أحاول ان أوقعك .. فسأعطيك كثيرا من الأرض ، ثم آخذها مرة اخرى منك ! »

— ٢ —

• وكانت تقطن على مقربة من اولئك الفلاحين ، سيدة يسمونها « البارينا » ، تملك ضيعة صغيرة مساحتها مائة وعشرون « دسياتين » .. وهو يساوى ما يقرب من الثلاثة أفدنة . وكانت هذه السيدة تعامل الفلاحين معاملة حسنة ، ولا تسىء استعمال حقوقها ابدا . الا أنها لم تلبث ان اتخذت لها ناظرا كان فى الاصل جنديا شكسا ، فبدأ يضايق الفلاحين ويضطهدهم ، ويثقل بالجزاءات عليهم . وعلى الرغم من الحرص الذى كان يلتزمه « باخوم » ، كان يحدث أن يدلف أحد خيوله الى حقول الشوفان التى تملكها السيدة ، أو تتسلل بقرة من ابقاره الى حديقتها ، او تنطلق بعض صغار العجول فى مروجها . ومن ثم كان يترتب على ذلك اقتضاء غرامات كثيرة من « باخوم » . فكان « باخوم » يدفع الغرامات ، ثم يروح يضرب ويشتم اهل منزله .

وقد دخل فى مشاجنات كثيرة مع الناظر من أجل ما حدث فى الصيف ، حتى لقد شكر الله على أن رأى قطيعه واقفا فى حقل العشب لا ينفلت الى هنا أو هناك . وقد راح يأسف على الثمن الذى يدفعه لقاء اقامته فى ذلك المكان ، على الرغم من أنه كان يتكلف فيه من القلق والجزع أقل مما يتكلفه فى أى مكان آخر .

وفى ذلك الشتاء ، ذاعت اشاعة مؤداها أن السيدة مزمعة ان تبيع أرضها ، وان الناظر يعد العدة لأن يشتريها ، مع حقوق الارتفاق المتعلقة بها . وقد بلغت هذه الاشاعة آذان الفلاحين ، ومن ثم فقد تولاهم الهم والجزع .. وراحوا يفكرون قائلين : « لو حصل الناظر على الارض ، فلسوف يزعجنا ويثقل كواهلنا بالجزاءات والغرامات ، بصورة أبشع مما كان يفعل وهو تحت أمرة السيدة .. فيجب ان نحصل على ملكية الأرض بطريقة ما ، مادمنا كلنا نعيش حولها ونحوط بها كالدائرة » .

وعلى ذلك ، ذهب وفد عن القرية لمقابلة السيدة ، وتوسل اليها الا تبيع الارض للناظر ، وان تعطيهم الحق فى شرائها ، فيزايدون عليها ويكسبونها من منافسهم . ووافقت السيدة على ذلك . فأعد الفلاحون العدة ليشتروا الضيعة كلها ، وعقدوا لهذا الفرض اجتماعا ، ثم عقدوا اجتماعا آخر . الا ان الامر ظل معلقا . وكانت حقيقة الامر أن الرجل القذر كان يحبط دائما تدبيرهم ، ويفل عزيمتهم بأن يعرض عليهم من الشروط ما يجعلهم عاجزين عن الموافقة . الا ان الفلاحين

قرروا ان يحاولوا شراء الارض صفقات مجزأة بحيث يشترى كل منهم ما يستطيع . وقد وافقت السيدة على ذلك أيضا .
وسمع « باخوم » ـ ذات يوم ـ أن جارا له اشترى عشرين « دسياتين » ، وأن السيدةوافقت على أن ترجىء دفع نصف الثمن عاما . فأكل الحسد قلب باخوم ، وفكر فى نفسه قائلا : « لو أن الآخرين اشتروا كل الارض ، فلسوف أشعر بأننى متروك فى البرد ! » . ومن ثم فقد استشار زوجته قائلا لها : « كل منهم يشترى جزءا من الارض ، فخير لنا إن نشترى نحن كذلك عشرة دسياتينات ، فلسنا نملك أن نعيش والاحوال تجرى هكذا ، لأن الناظر سيستنفد مالنا كله فى الغرامات » . وهكذا راحا يفكران فى الوسيلة التى يشتريان بها الأرض .

وكان ثمة مائة روبل فى أيديهما ، فبيع مهر ، ونصف ما لديهما من النحل ـ بالاضافة الى دفع ولدهما للعمل ـ يمكنهما الحصول على نصف المبلغ .. وقد جمع باخوم هذا النصف ، واختار خمسة عشر « دسياتين » ، ومساحة صغيرة من أرض الغابة ، ثم ذهب الى السيدة ليتفق معها ، فتمت الصفقة ، وتصافحا ، ودفع باخوم التأمين اللازم .. ثم انطلق الى المدينة ، فاستكمل اجراءات نقل الملكية ـ على ان يدفع نصف الثمن فى الحال ، والنصف الآخر خلال سنتين .

مرحى !.. لقد أصبح باخوم مالك أرض ! وقد اقترض ـ كذلك ـ مبلغا صغيرا من شقيق زوجته ليشترى حبوبا ،

قام فى الحال ببذرها فى ملكه الجديد ، فنتج له منها محصول جيد ، حتى لقد أوفى — فى بحر سنة واحدة — ما عليه للسيدة لشقيق زوجته كذلك . وهاهوذا الآن مالك مطلق !

لقد كانت الارض التى يبذر فيها الحب أرضه وحـــده ، المحصول الذى يحصده محصوله وحده ، والغابة التى يقطع منها الاخشاب غابته وحـــده ، والقطيع الذى يرعاه قطيعه وحده !

وكان كلما انطلق الى ملكه — الذى لا سـبيل الى انتزاعه منه — كى يحرث الارض ، أو يرقب المحصول ويجوس خلال المروج ، يشعر بسعادة لا نهاية لها ولا مزيد عليها . . فالعشب كان يبدو له مختلفا عن كل عشب آخر ، والازهار اكثـــر نضرة وتفتحا . وقد كانت أرضه — ذات يوم — مجرد أرض بالنسبة اليه . أما الآن ، فعلى الرغم من أنها مافتئت أرضا ، اصبح يراها أرضا مختلفة كل الاختلاف عن سائر الأراضى !

— ٣ —

• عاش باخوم هكذا زمنا . وكان سعيدا . . وكان خليقا ان يكون سعيدا حقا ، لو أن الفلاحين الآخرين تركوا حنطته وعشبه وشأنهما . فانه عبثا احتج ، وعبثا اعترض وكـرر احتجاجاته واعتراضاته . اذ كان الرعاة يدلفون بقطعانهم الى مروجه ، وكانت الخيل تجد طريقها — بوسـيلة ما — الى حقول القمح تحت جنح الليل . وكان باخـــوم لا ينى عن طردها وعن الرجوع فى ذلك لأصحابها . . الا أنه فقد آخـــر الامر السيطرة على أعصابه ، واســتبد به الغضب ، ورفع شكوى الى المحكمة المركزية ، وهو يعلم حق العلم أن الفلاحين

انما يفعلون ذلك من فــرط عوزهم الى الارض ، وليس عن خبث أو بدافع الاذى . ومع ذلك ، فما كان ليسمح بهــذه الأمور ماداموا يأكلون خيرات ارضه .. فكان مضطرا الى أن يلقنهم درسا .. وقد القى على أحدهم درسا فى المحكمة ، ثم ألقى درسا على آخر . اذ حكمت المحكمة بالغرامة على الأول ثم على الثانى . **وقــد أثار ذلك موجة الكراهية له ، وبدأ جيرانه يسرقون محصوله .**

وحدث أن تسلل أحدهم ذات ليلة الى زراعتــه ، ونزع قشور ما لا يقل عن عشر من اشــجار الزيزفون . فلمــا ذهب باخوم ــ فى اليوم التالى ــ الى تلك الجهــة ، ورأى ما حدث ، امتقع لونه . واقترب من الأشجار فرأى أن قشرها قد انتزع وألقى بعيــدا واستؤصلت الجــذوع . ولم يترك اللئيم الا شجرة واحدة ، بعد أن اجتث كل فروعهــا .. أما باقى الاشجار، فقــد نجح كل النجــاح فى الحاق الاذى بها .. ومن ثم فقد احتدم غيظ « باخوم » ، وهاج هائجه ، وفكر فى نفسه قائلا : « آه ، لو اننى فقط عرفت من فعــل هذا ، لطرحته فى الحال وجعلته تحتى ! »

واستبدت به الدهشة والتساؤل عمن يكون قد فعل هذا. وراح يقــول انه لو كان شخصا معينــا ، فلابد أن يكون « سيميكا » . ومن ثم ذهب يبحث عن « سيميكا » . الا انه لم يحصل منه الا على شتائم ، جعلته أشد تأكدا منه فى أى وقت مضى ، من ان « سيميكا » هو الذى ارتكب تلك الفعلة. وقد قدم شكوى ضده ، واستدعيا أمام المحكمة ، فتداول القضاة ثم تداولوا ، ثم رفضــوا الدعوى ــ فى النهــاية ــ لافتقارها الى دليل . وقد زاد هذا من غضب باخوم ، فراح

يسب رجال الشرطة والقضاة جميعا . وقال فيما قال : «أنتم أيها القضاة شركاء اللصوص ، فلو انكم شرفاء ، لما حكمتم قط ببراءة سيميكا » .

نعم .. لم يكن ثمة شك فى ان « باخوم » كان ساخطا على القضاة وعلى جيرانه كلهم ، وقد بدأ يزداد انطواء على نفسه داخل حدود أرضه ، وقل شيئا فشيئا تعامله مع اهالى القرية ..

وذاعت فى ذلك الوقت اشاعة مؤداها أن بعض الفلاحين فى تلك الجهات يفكرون فى الهجرة والرحيل ، مما جعل « باخوم » يفكر فى نفسه قائلا : « أما أنا فليس من سبب يدفعنى لأن أترك أرضى .. بل أن رحيل بعض الآخرين يفسح لى مجالا أوسع هنا ، اذ يمكننى من أن أشترى أراضيهم ، وبذلك أقيم لى سياجا من جميع الجهات من حولى ، وأعيش فى راحة أعظم . فاننى فى الوقت الحاضر شديد الهم والضيق » .

***

وحدث بعد ذلك بزمن وجيز ، أن كان « باخوم » جالسا فى منزله — ذات يوم — حين أقبل عليه فلاح مسافر . فأتاح له « باخوم » مكانا يقضى فيه ليلته ، وقدم اليه طعاما . وسأله فى غضون الحديث عن المكان الذى جاء منه ، فأجابه الفلاح بأنه آتى من بلدة فى سهل يحف بنهر (الفولجا)، حيث كان يعمل . ثم استرسل يحكى كيف تكونت هنالك مستعمرة ، **وكيف أن كل مواطن يسجل اسمه فى سجل القرية ، يمنح عشرة « دسياتينات » من الارض بديعة ،**

وحنطتها بالغة الجودة ، حتى لقد كانت عيدانها من الطول بحيث تخفى جوادا ، ومن الكثافة بحيث أن خمس قبضات منهـا تكون حزمة !.. واستطرد الرجل يقـول أن أحـد الفلاحين كان قد وصل الى هناك فقيرا معدما ، لايملك الا يديه اللتين يعمل بهما ، فأصبح يمتلك خمسين « دسياتين » يزرعها حنطة . ومن المؤكد أن هذا الرجل قد اكتسب خلال السنة الماضية ـ وحدها ـ خمسة آلاف روبل من حنطته !

وهنا احتدمت روح « باخوم » بحرارة النار ، وفكر فى نفسه قائلا : « لماذا أبقى هنـا ، فقيرا مملقا متضـايقا ، فى حين يمكنني أن أحيا مثل هذه الحياة ؟.. لسوف أبيع هذه الأرض . نعم ، سأبيع الأرض والبيت جميعا ، وأذهب الى هناك لأبنى لنفسي بيتا جديدا ، وأزرع هنالك .. ما الحياة في هـذه البقعـة الشنيعة الا هم متصـل ، فلأرحل الى هناك ، وأجمع المعلومات ، مهما يكبدنى هذا من ثمن ! »

وحين جاء الصيف ، تأهب للرحيل ، ثم استقل سفينة عبـر (الفولجا) الى (سمارا) ، وقطع أربعمائة فرسخ حتى وصل الى المكان الذى يقصده ، فوجـده كما وصف له . فالفلاحون يعيشـون فى بسـطة من العيش ، وقـد خصصت لكل نفس منهم عشرة « دسياتينات » . واستوثق من أنه سيجد من أهل القرية مودة وترحيبا . كما قيل له ـ فضلا عن ذلك ـ أن أى شخص يفـد الى هنـاك ومعه مال ، يستطيع أن يشترى قدر ما يريد من الأرض ، فوق القـدر الممنوح له ، فتصير ملكا خالصـا له الى الأبد .. ولقـاء ثلاثة روبلات لكل « دسياتين » ، يسـتطيع المرء أن

ياخذ ما شاء من أجود الأرض !

كل ذلك علمه باخـوم ، ثم عاد الى منزله فى الخريف ، فبدأ ـ على الفور ـ يبيع ما لديه . وقد نجح فى أن يرتب أمر الأرض والمبانى والماشية ، وحقق فى كل ذلك ربحا .. ثم شطب اسمه من سجلات القرية وانتظر قدوم الربيع . فلما أقبل ، بادر بالرحيل الى المكان الجديد مع أسرته .

- ٤ -

وما أن وصلوا الى غايتهم ، حتى سـجل « باخوم » اسمه فى عداد سكان المستعمرة الكبرى ـ بعد أن بلل أفواه الرؤوس الكبيرة طبعـا ـ وأنجز المسـتندات اللازمة . ثم أخذوه ومنحوه خمسين « دسياتين » من الأرض ـ بواقع عشرة « دسياتينات » لكل فرد من أفراد الأسرة ـ فى أماكن مختلفة من المستعمرة ، فضـلا عن المراعى العـامة . وبنى « باخوم » منزلا وأثثه . وكانت أرضه الممنوحة ـوحدهاـ ضعف ما كان يملك فى موطنـه الاول ، فوق انهـــا كانت أرضا صالحة لزراعة القمح . وعلى العموم ، كانت الحيـاة تفضـــل عشرة أضـعاف ما كانت من قبـل ، اذ بات تحت تصرفه أرض صالحة للزراعة ، ومراعى خصبة معا .. فقد كانت المراعى مسـاحة واسـعة يطلق فيهـا من القطعان ما يشاء .

وراح فى مبدأ الأمر ـ وهو بعد يبنى ويؤثث ـ يرى كل شىء بديعا رائعا . الا أنه ما لبث ، حتى استقر به الأمر قليلا ، أن بدأ يشعر بالضيق مرة اخرى .. فقد كان يريد

أن يزرع غلة قمح تركية بيضاء — كما يفعل الكثيرون غيره — ولكنه لم يجد أرضا صالحة لزراعة القمح فى حصصه الخمس .. اذ لابد للقمح من أرض جديدة معشبة ، أو أرض بور .. ومثل هذه الأرض ينبغى بذرها سنة ، وتركها بورا سنتين حتى ينمو العشب فيها مرة أخرى .. ولقد كان لديه من الأرض الرخوة ما يشاء ، ولكنها لم تكن تصلح الا لزراعة « الجودار » ، وهو حب يشبه الحنطة . أما القمح فكان يحتاج الى أرض صلبة ، والأرض الصلبة يكثر طالبوها ، وليس ثمة منها مساحة تكفى الجميع ، ولذلك فانها كانت مصدر كثير من المشاحنات والمنازعات .. أما الفلاحون الميسرون ، فكانوا يبذرون أرضهم ، وأما الفقراء فعليهم أن يرهنوا أرضهم للتجار !

وفى السنة الاولى ، بذر «باخوم» أرضه بالقمح ، وحصل منها على محصول رائع . ثم اراد أن يبذرها بالقمح سنة أخرى ، ولكنها لم تكن متسعة بقدر يكفى لأن يستبقى جزءا من المساحة التى زرعها — فى السنة الماضية — بورا . وبات لزاما أن يحصل على قدر آخر من الأرض .. ومن ثم فقد ذهب الى السوق ، وحصل على ايجار سنة لأرض صالحة لزراعة القمح ، وبذر فيها على قدر ما استطاع من المساحة ، وفاز بمحصول عظيم .. غير أنه تصادف — لسوء الحظ — أن كانت الأرض بعيدة عن المستعمرة ، وكان عليه أن ينقل المحصول على العربات مسافة خمسة عشر فرسخا . ولذلك فان « باخوم » كان كلما رأى التجار المزارعين يقطنون بيوتا جميلة — ويزدادون غنى فى الاقليم الذى تقع فيه الأرض — فكر فى نفسه قائلا : ((ماذا عساها تكون الحال ، لو أننى حصلت على ايجار هذه الأرض لمدة أطول ؟

يبنيت فيها بيتا كما يفعلون ؟.. اننى عندئذ سأغدو فى مكانى الصحيح ! » .

وراح يدبر الأمر ليحقق فكرته .. بينما واصل العيش — على هذا المنوال — خمس سنوات ، يأخذ على الدوام أرضا ويبذرها بالقمح . وكانت الأعوام كلها مواتية فنجح القمح . وجاء المال .. ومع ذلك فقد بدت له الحياة — فى استرسالها على هذه الوتيرة — أمرا مملا ، فبدأ يتعب من تأجير الأرض كل سنة ، فى اقليم غريب ، وينقل ماشيته اليه .. وكان هذا يضيع عليه الفرص . فحيث كانت تسنح صفقة حسنة من الأرض ، كان الفلاحون يتزاحمون ، فيتم تقسيمها قبل أن يتأهب هو لاستئجارها وبذرها جملة واحدة .. وقد حدث أن ذهب — ذات مرة — ليشارك تاجرا فى استئجار مرج كامل لبعض الفلاحين وحرثه ، فألفى الفلاحين قد فرطوا فى المرج لآخرين بثمن بخس ، وذهب كل تعبه هباء .. **آه لو كانت هذه الأرض مملوكة له ملكا خالصا !. اذن لما احتاج لأن يعطيها لأحد ، ولا أن يقع فى أية متاعب !**

ومن ثم بدأ يبحث عن ضيعة يشتريها فى الحال . واذ كان بصدد هذه المحاولة ، وقع على فلاح تدهورت حاله ، فكان على استعداد لأن يبيعه أملاكه البالغة خمسمائة «دسياتين» بثمن بخس . وما لبث باخوم أن دخل معه فى ممارسة ومباحثات . وبعد كثير من المحاورة والمداورة ، اتفقا على ألف روبل ثمنا للأرض ، يدفع نصفها فى الحال ، بينما يدفع نصفها الآخر على آجال . وتصادف — بعد أن اتفقا على ذلك — أن جاء الى بيت باخوم ، ذات يوم ، تاجر ليفحص خيوله . وبعد أن شربا معا أبريقا من الشاى ، وراحا

يتحادثان ، قال التاجر ـ خلال الحديث ـ أنه جاء من بلاد بعيدة جدا هي بلاد رجال « الباشكير » ، حيث ـ على حد قوله ـ اشترى خمسة آلاف « دسياتين » بألف روبل لاغير !.. فراح باخوم يوجه اليه الأسئلة ، وراح التاجر يجيبه على أسئلته . وأخيرا قال له : « **كل ما فعلت أنني أعطيت كبار السن هناك بضع هدايا ـ هي عباءات ، وأبسطة ، وصندوق شاي ـ ووزعت قرابة مائة روبل وقدمت الفودكا لكل من وجدته يميل اليها . وكانت النتيجة أنني حصلت على الأرض بواقع عشرين كوبيك للدسياتين** » .. وقد أطلع باخوم على وثيقة البيع ، ثم ختم كلامه قائلا : « ان الأرض تقع على نهر ، وكلها أرض خلاء معشبة مخصبة » .

وراح باخوم يلحف عليه فى السؤال ، فاسترسل التاجر قائلا : « انك لن تجد مثل هذه الأرض فى سنة . وهكذا الحال بالنسبة لكل أراضى الباشكير . وفوق ذلك ، فان الناس هناك بسطاء كالأغنام . ويمكنك الحصول منهم على كل شيء لقاء لاشيء ! » .. ومن ثم فكر باخوم قائلا : « ما جدوى أعطائى ألف روبل لقاء خمسمائة دسياتين فقط ، ويبقى ـ مع ذلك ـ دين فى رقبتى ، فى حين يمكننى أن أغدو مالكا حقيقيا بالمبلغ ذاته ؟ »

— ٥ —

• **سأل** باخوم التاجر عن الطريق الموصل الى بلاد « الباشكير » ، فما خرج هذا الآخير من عنده ، حتى تأهب للرحلة . وغادر بيته ، تاركا فيه زوجته ، ولم يأخذ معه سوى خادمه .. واتجه ـ أولا ـ الى المدينة ، فاشترى

منها صندوقا من الشاى ، وزجاجات من « الفودكا » وبعض الهدايا الأخرى ، كما نصحه التاجر . ثم انطلق الاثنان ، وظلا فى سفر حتى قطعا خمسمائة فرسخ ، وفى اليوم السابع ، وصلا الى مضارب « الباشكير » ، فبدا لهما كل شىء كما قال التاجر .. **كان الناس يعيشون فى عربات مضمورة على سيف نهر يجرى ، وهم لا يحرثون الأرض ولا ياكلون القمح ، فى حين تتجول فى الوادى قطعان من الماشية وخيول القوزاق** . أما الافراس الصغيرة فكانت مقيدة فى مؤخر العربات ، ويأتون لها بأمهاتها مرتين فى اليوم لارضاعها .. وكان أهم غذاء للناس هنالك هو لبن القرس — وهى أنثى الخيل — الذى تحوله النساء الى شراب يسمى « الكوميس » ، ثم تمخضن «الكوميس» فتستخرجن منه الجبن . والواقع أن « الكوميس » كان الشراب الوحيد المعروف لدى « الباشكير » ، الى جانب الشاى .. أما الأكل الوحيد الذى كانوا يعتبرونه غذاءهم ، فهو لحم الضأن .. وكانت ملهاتهم الوحيدة هى العزف على المزمار . وكانوا جميعا يبدون لطافا مرحين ، يقضون العام كله فى بطالة . أما التعليم فكانوا متخلفين فيه بصورة محزنة ، ولم يكونوا ملمين باللغة الروسية ، ولكنهم كانوا قوما ودودين جذابين برغم هذا كله .. أو ربما بسببه !

وما أن رأوا «باخوم» حتى خرجوا من عرباتهم واحاطوا بضيفهم . وسرعان ما جاءوا بمترجم أنهى اليه « باخوم » أنه جاء ليشترى أرضا .. فما عرف القوم ذلك حتى تملكهم السرور ، وعانقوا باخوم فى حرارة وحماس ، ورافقوه الى عربة فخمة ، حيث أجلسوه على كومة من الطنافس تعلوها وسادات ناعمة ، وجاءوا له ببعض الشاى و « الكوميس » ،

وذبحوا شاة وأعدوا له غذاء من لحم الضأن . حتى اذا انتهى باخوم من ذلك كله ، جاء بالهدايا من عربته ذات العجلتين — وتسمى « التارنتاس » — ووزعها ، وقسم الشاى . ثم راح رجال « الباشكير » يتكلمون فيما بينهم برهة ، ثم طلبوا من المترجم أن يتكلم ، فقال : « **انهم يقولون أنك أسرتهم ، وأن من عاداتنا أن تلبى طلبات الضيف ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، فى مقابل الهدايا التى يعطينا اياها . ولما كنت قد جئت لنا بهدايا فماذا تطلب منا حتى تمنحك اياه ؟** »

فأجاب باخوم قائلا : « الذى اريده — على وجه الخصوص — هو بعض أراضيكم » .. ثم استطرد قائلا : « ليس فى البلد الذى جئت منه الكفاية من الأرض ، وما هو موجود منها مزروع فعلا ، فى حين أن لديكم الكثير .. وهى أرض جيدة لم أر لها نظيرا من قبل » . وترجم المترجم .. وتكلم رجال « الباشكير » فيما بينهم مرة أخرى . ومع أن باخوم لم يفهم ما كانوا يقولون ، فقد استطاع أن يرى أنهم راحوا يتصايحون معبرين عن شىء ما بصوت مرح . ثم انفجروا ضاحكين . وأخيرا توقفوا ، ونظروا الى باخوم ، فى حين راح المترجم يقول له : « **يقولون لك أننا — فى مقابل كرمك — على استعداد لأن نبيعك ما تشاء من الأرض ، فما عليك الا أن تشير بيدك مبينا الحد ، وسوف يكون ما تطلبه ملكا لك** » .

الا ان القوم — عند هذا الحد — بدأوا يتكلمون فيما بينهم مرة أخرى ، ويختلفون فيما يتعلق بأمر ما .. فلما سأل باخوم عن جلية الأمر ، قال له المترجم : « ان بعضهم يقول أن الرئيس — الذى يسمونه الستارشينا — ينبغى أن يكون

له الراى الأعلى فيما يتعلق بالأرض ، وأنه ما من شيء يمكن ابرامه بدونه .. فى حين يقول الآخرون أن هـذا ليس ضروريا » .

- ٦ -

• وفيما كان رجال الباشكير يتناقشون هكذا ، دخل العربة فجأة ، رجل يرتدى قبعة من فرو الثعلب ، فوقف الجميع لمقدمه ، فى حين قال المترجم لباخوم : « هـذا هو الرئيس بنفسه » . وفى الحال ، تناول باخوم أفخم عباءة فمنحها للقادم ، مع خمسة أرطال من السكر . وقبلها الرئيس فى الحال ، ثم جلس فى مكان الشرف . وبدأ رجال الباشكير يشرحون له الأمر ، فأنصت اليهم ، ثم ابتسم وتكلم مع باخوم بالروسية قائلا : « اختر البقعة التى تعجبك ، أينما تكون ، فان لدينا الكثير من الأرض » .

ففكر باخوم فى نفسه قائلا : « اذن لى أن آخذ ما أشاء ، فعلى رسلك !.. لسوف أؤكد هذه الصفقة بعض الشيء ، فمن يدرى ؟.. لعلهم يقولون ، أن الأرض لى ، ثم يأخذونها منى مرة أخرى ! » . ثم قال للرئيس بصوت مرتفع : « اننى اشكرك من أجل قولك المشرب بالعطف .. ولما كنت تقول أن لديك كثيرا من الأرض ، وأنا فى حاجة الى بعض منها ، فاننى أريد أن أعرف أيها تكون لى بالتعيين ، لذلك يحسن أن نقيسها بطريقة ما ، ثم أن نتخذ اجراءات نقل ملكيتها لى .. فان الله وحده هو سيد الحياة والموت ، ومن يدرى ؟.. انكم قوم طيبون اذ تعطونها لى الآن .. ولكن قد يأتى من بعدكم أبناء ، يأخذونها منى مرة أخرى ! »

فابتسم الرئيس وقال : « ان نقل الملكية قد تم بالفعل ، وهـذا الاجتماع هو وسيلتنا فى فعل ذلك ، وما من شيء

أدعى منه للتأكد والثقة » . فقال باخوم : « ولكننى سمعت أن تاجرا زاركم أخيرا ، وأنكم بعتموه أرضا ، وأعطيتموه وثيقة تفيد نقل الملكية ، فأرجوكم أن تفعلوا المثل معى » .
اذ ذاك فهم الرئيس قصده ، فأجابه : « حسنا جدا ، ان لدينا كاتبا هنا ، ولسوف يذهب الى المدينة ويحصل على الأختام اللازمة » .

وسأله باخوم قائلا : « ولكن ما الثمن الذى تريدونه للأرض ؟ » . فأجابه الرئيس : « الثمن الذى نريده هو الف روبل فى اليوم فقط ! » . ولم يكن باخوم قد ألف أن يحدد الثمن باليوم ، فتساءل :

ــ وكم « دسياتين » يعنى هذا ؟

ــ اننا لانحسب بهذه الطريقة ، وانما نبيع فقط باليوم ، أى أن الأرض التى يمكنك أن تمشى حواليها فى اليوم ، تكون لك . هذا هو طريقتنا فى القياس ، والثمن ألف روبل !

فقال باخوم مندهشا : « ولكن الانسان يستطيع أن يمشى حول مساحة كبيرة من الارض فى اليوم ؟ » . فابتسم الرئيس مرة أخرى ، وقال : « حسنا ، فانها على أى حال ستكون لك ، ولكن بشرط واحد فقط ، وهو انك اذا لم تعد فى ذات اليوم الى النقطة التى بدأت بها ، ضاعت عليك النقود ! »

ــ ولكن ، كيف تحكمون فى هذا ؟

فقال الرئيس : « اننا نقف عند موضع تختاره أنت ، فأظل مع رجالى هناك ، بينما تمشى أنت ملتفا حول الأرض ، وبعض شبابنا يتبعك ليغرس عصا فى كل مكان تريده . ولك عندئذ أن تصنع الدائرة التى تروق لك .. **كل ما هنالك أنك يجب أن تعود الى النقطة التى بدأت منها عند**

غروب الشمس .. وأية مساحة من الأرض تحوطها أثنـاء سيرك ، تكون لك ! »

وقبل باخوم هذه الشروط .. وتم الاتفاق على أن تبدأ فى الصباح الباكر . ثم تحـدث القوم مرة أخرى ، وشربوا مزيدا من « الكوميس » ، وأكلوا قـدرا أكبـر من لحم الضأن ، ثم انتقلوا الى شرب الشـاى . واستمر احتفالهم حتى أرخى الليل سدوله .. ثم ذهب باخوم الى فراشه ، وتفرق رجال « الباشكير » بعـد أن تواعدوا على التجمع ـ فى الصباح ـ عند النهر ، حيث ينطلقون الى المكان المعين قبل طلوع الشمس .

- ٧ -

• استلقى باخـوم فى فراشه ، ولـكن النـوم لم يوافه بسبب تفكيره فى الأرض .. وقـد استرسل يقول لنفسه : « لقد عزمت على أن أفوز بمساحة كبيرة جدا ، ولذلك فان فى أمكانى أن أسير على الاقـل خمسين فرسخا فى اليـوم ، وهـذه تقـدر ـ فى أى مكان ـ بعشرة آلاف دسـياتين . وبعدها لن أكون تحت امرة انسان ، ولسوف أكون قادرا عند ذاك على استخدام زوج من الثيران وعاملين ، وسوف أحرث أجود الأرض وأرعى الماشية فيما تبقى منها » .

وهـكذا لم يغمض لباخوم ـ طيلة ذلك الليل ـ جفن ، ولكنه أغفى قبيل الفجر اغفاءة قصيرة . وفى اللحظة التى فعل فيهـا ذلك ، حلم حلما . فرأى فيما يرى النـائم أنه يستمع الى شخص يضحك ويتكلم فى الخـارج . واذ أراد أن يرى من ذلك الذى يضحك هـكذا كثيرا ، خـرج ورأى رئيس الباشكير يجلس على الأرض وهو يضع يديه عـلى جبينه ويتأرجح من فرط السرور . وسأله عن الأمر الذى

اضحكه ، ولـكنه تبين أنه لم يكن هو الرئيس الذى عرفه ، وانما التـاجر الذى زاره وحدثه عن هذه الأرض ، ورأى نفسه وهـو يقول للتـاجر : « الم أرك فى بيتى منذ وقت قصير ؟ » . الا ان التـاجر تحول فجأة ، فاتخذ صـورة الفلاح الذى جاء من (الفولجا) وتكلم عن حقله هنـاك . **واخـيرا ادرك باخوم ان هـذا الفـلاح لم يكن فلاحا عـلى الاطلاق ، وانما كان هو الشيطان نفسه بحوافر وقرنين ، وانه كان ينظر بامعـان الى شىء وهـو يجلس ويضحك .** وعندئذ فكر باخوم فى نفسه قائلا : « الى أى شىء ينظر ؟.. ولماذا يضحك هكذا كثيرا ؟» .. وتراجع ـ فى حلمه ـ خطوات قليلة الى الداخـل لينظر ، فرأى ـ حيث كان الشـيطان يتطلع ـ رجلا عارى القدمين ، لايرتدى الا قميصا وسروالا، وقد نام على ظهره ، ووجهه أبيض كالقرطاس .. فلما نظر بامعان الى الرجل ، رأى فيه نفسه .. رأى انه هو ذاته !

وأرسل صيحة ، ثم اسـتيقظ من نومه .. اسـتيقظ شاعرا كأن الحلم حقيقة . ثم نظر ليرى ما اذا كان النهـار قد طلع . فلما رأى الفجر اقترب ، فكر قائلا : « ان الوقت أزف .. يجب أن أوقظ اولئك الرجال الطيبين ! »

ـ ٨ ـ

• **قام** باخـوم وأيقظ خادمـه ـ الـذى كان نائمـا فى العربة ـ وطلب اليه أن يعـد الجواد ، وان يذهب ليدعو رجال « الباشكير » .. اذ كان الوقت قد حان لينطلقوا الى الأحراش ويقيسوا الأرض . واستيقظ رجال «الباشكير» ، وتأهبوا للذهاب . كما وصـل الرئيس .. وأفطروا عـلى « الكوميس » ، وأعطوا باخوم بعض الشاى ، ولكنه لم يطق

ان ينتظر ، قائلا : « اذا كان علينا ان نذهب ، فلنذهب ، فقد جاء الوقت ! » .. ومن ثم جهز رجال الباشكير خيلهم ، وامتطى بعضهم ظهورها بينما استقل بعضهم الآخر العربات .. فى حين استقل « باخوم » عربته الخفيفة مع خادمه .

ووصلوا الى الأحراش عند طلوع الفجر ، فتقدموا نحو تل صغير يسمى فى لغة الباشكير « الشيشيان » . وهنالك ترجل الذين كانوا فى العربات ، وتجمعوا .. واقترب الرئيس من باخوم فطوقه بذراعيه قائلا له : « أى ارض يقع بصرك عليها هنا أرضنا ، فاختر منها اى اتجاه تريد ! » .. فبرقت عينا باخوم ، لأن الأرض كلها كانت معشبة ، ممهدة ككف يده ، سسوداء تحت الخضرة كراس الخشخاش . الا أنه كان ثمة خندق يخف عنده العشب . اما فى بقية الأرجاء فكان العشب بارزا كصدر الحسناء . وخلع الرئيس قبعته المصنوعة من فرو الثعلب ، فوضعها فى وسط التل ، ووجه الكلام الى باخوم قائلا : « ستكون هذه علامتنا ، فضع فيها نقودك ، وسيظل خادمك بجانبها فى الوقت الذى تنطلق فيه انت .. ومن هذه العلامة سوف تبدأ ، واليها تعود .. وقدر ما تحوط من الأرض ، سيكون لك ! »

وأخرج باخوم نقوده فوضعها فى القبعة ، ثم خلع رداءه وارتدى صديريته ، وأحكم شد حزامه حول خصره ، ودس بعض الخبز فى صدره . وربط زجاجة ماء على شريط الجلد المحيط بكتفه ، وأحكم رباط حذائيه الطويلين ، وتهيأ لبدء الرحلة .. وراح يشاور نفسه اية وجهة من الأفضل أن يتجه ، لأن الأرض كانت جيدة حيثما أدار بصره . وأخيرا حزم رأيه قائلا : « مادامت كلها سوداء ، فسأتجه مع النهر الصاعد » ..

وولى وجهه شطر الناحية ، وراح يدرب أطرافه وهو ينتظر مشرق الشمس ، ويفكر قائلا : « ينبغى ألا أضيع وقتا ، ولسوف أبذل كل جهدى فى السير منتهزا فرصة الجو الرطيب فى فترة الصباح » .. ووقف رجال الباشكير بجانب باخوم ، فما أرسلت الشمس أول أشعتها عبر الأفق ، حتى بدأ باخوم رحلته خلال الاحراش ، وسار الرجال راكبين خلفه .

***

سار فى أول الامر فى غير بطء وفى غير اسراع . وبعد أن قطع نحو فرسخ واحد ، توقف وغرس عصا .. ثم واصل السير مرة أخرى ، وقد بدأ يفقد جموده الأول ، ويطيل خطواته . ثم وقف مرة ثانية ، وغرس عصا أخرى . ونظر الى الشمس — التى كانت الآن تضىء الأحراش وتكشفها — وقد بدا على ضوئها القوم الواقفون على التل . وقدر أنه مشى حوالى خمسة فراسخ . ولما كان قد بدأ يستشعر الحرارة ، فقد خلع صديريته ، وشد حزامه مرة أخرى ، ثم سار خمسة فراسخ أخرى وتوقف . وكان القيظ قد بدأ يشتد . فنظر الى الشمس مرة أخرى ، ورأى أن الضحى قد حان . ففكر فى نفسه قائلا : « **هل أتجه وجهة أخرى .. ثمة أربع وجهات أمامى أقطعها فى سحابة النهار ، ولكن الوقت مازال مبكرا لأفعل ذلك . ومع هذا فلأخلع حذائى !** » . وخلع حذاءه ، ثم نهض وواصل السير مرة أخرى ، وقد أصبح السير أيسر عليه . وفكر قائلا : « سأقطع خمسة فراسخ أخرى ، ثم أتجه الى الشمال . وهذا التقدير حسن جدا ، فعلى قدر ما أتوغل ، تكون الأرض أكثر جودة » . ومن ثم فقد ظل محتفظا باتجاهه

الاول . ومع ذلك فانه ــ حين تلفت حواليه ــ رأى ان التل قد اختفي عن النظر ، وقد غدا الرجال الواقفون هنـــاك كأنهم النمل الاسود الصغير .

واخـيرا قال لنفسه : « الآن ، اصبحت المســـافة التى رسمتها متسعة اتساعا كافيـا ، وينبغي لى الآن أن أتجــه وجهة أخرى » . وكان الجهد قد أخذ منه ، وانتابه العطش. فرفع الزجاجة وبلل حلقه بجرعة من الماء ، ثم غرس عصـا اخرى فى النقطة التي وصل اليها ، واتجه الى الشمال بميل شــديد ، وراح يغذ السير بين العشب المرتفع والحــرارة المتقدة . وقد بدأ يتعب .. فلما نظر الى الشمس أيقن أن وقت الغداء قد حان ، ففكر فى نفسه قائلا : « الآن ينبغى لى أن أجازف بالاســتراحة قليلا » .. ومن ثم توقف وأكـل قطعة من الخبز ، وان لم يجلس . **اذ قال فى نفسه : « لو أنني جلست مرة ، فلسوف أستلقي ، وينتهى بى الحال الى ان أستغرق فى النوم » . على انه انتظر قليلا حتى شعر بانه أخذ قسطا من الراحة ، ثم واصل السير مرة أخرى .**

ووجد السير سهلا بعد ذلك اذ جدد الأكل قواه . ولكنه مالبث بعد برهة ان أحس أن حرارة الشمس تزداد حــدة وهى تميل نحو مغربها . وكان قد غدا قريبا من الارهاق ، وان راح يقول فى نفسه فى مرح : « ساعة الم يعقبها زمان من الراحة والكسب ! » .

وكان قد اجتاز حوالى عشرة فراسخ من دائر الأرض ، وهم أن يتجه مرة أخرى نحو الشمال ، حين وقعت عينــه على رقعة أرض رائعة حول واد جاف . كان من الحماقة ترك هــذه الرقعة . وفكر قائلا : « ان الكتان ينمو نموا رائعــا هنــا » .. **ومن ثم فقــد واصل السير حتى عبر الوادى**

وغرس عصا فى تلك البقعة ثم غير اتجاهه مرة أخرى . فلما صوب نظره تجاه التل ، لم يعد يمكنه أن يميز القوم هناك .. كانوا على بعد لايقل عن خمسة عشر فرسخا . وعلى ذلك فكر قائلا : « لقد قطعت المرحلة الكبرى ، وينبغى لى أن اقطع هذه المسافة الأخيرة فى أقصر وقت ممكن » .

وشرع فى الحال ، وأسرع الخطى . ومرة أخرى ، نظر نحو الشمس .. كانت تنحدر انحدارا سريعا نحو مغربها ، ولم يكن قد قطع من تلك المسافة سوى فرسخين . وكانت نقطة الابتداء على ثلاثة عشر فرسخا ، فقال فى نفسه : « يجب أن أسرع الآن . فقد طوقت مساحة كافية ! » .. ثم اتجه رأسا الى التل .

– ٩ –

. وحث الخطى رأسا فى اتجاهه ، ولكنه بدأ يحس بمشقة السير ، وغدت قدماه تؤلمانه ألما شديدا ، لأنه أرهقهما وآذاهما ، فبدأتا تترنحان من تحته . وكان على استعداد لأن يعطى أى شىء فى نظير أن يصمد بعض الوقت فى رحلته هذه ، فقد كان يعلم أن الشمس لن تنتظره ، بل انها كانت كسائق لا يكف عن الهابه بالسياط . وأخذ يترنح من وقت لآخر ، وهو يفكر فى نفسه : « اننى بالتأكيد لم أخطىء التقدير .. بالتأكيد لم آخذ قدرا من الأرض أكبر من أن يجعلنى أقدر على بلوغ الهدف مهما أسرعت .. أن أمامى كل هذه المسافة لأصل وقد قتلنى التعب ، ولا يعقل أن مالى وتعبى قد ذهب كله سدى .. آه . حسبنا . يجب أن أبذل كل جهدى ! »

وراح يجر نفسه محاولا أن يجرى .. ومزق قدميه حتى أدماهما ، ومع ذلك ظل يجرى ويجرى ويسرع ثم يسرع .

وقد امسك بالصديرى ، والحذاء والزجاجة والقبعة ورماها جميعا .. وكان يفكر قائلاً : ((اواه !.. لقد سررت اول **الأمر اعظم السرور بما رأيت . والآن قد ضاع كل شيء ، ولن اصل ابدا الى العلامة قبل الغروب !))** . وعملت مخاوفه على أن تزيد من تقطع أنفاسه ، ولكنه - مع ذلك - ظل يجرى ، وقد التصق قميصه وسرواله بأطرافه من التعب ، وجف حلقه . وكأنما راح يعمل فى صدره منفاخ حداد ، وأخذ قلبه يدق كمطرقة بخارية ، فى حين أحس بأن قدميه كانا يتفتتان تحته وكأنهما ليسا قدميه . وفقد كل تفكير فى الأرض .. كل ما بات يفكر فيه هو أن يتجنب الموت من فرط الاجهاد . ومع ذلك ، وبالرغم من أنه كان خائفا جدا من الموت ، فانه لم يقو على أن يتوقف . وراح يفكر قائلا : « الذهب هكذا بعيدا ثم أقف ؟.. لسوف يعتبروننى مجنونا اذن ! » .

وبات فى وسعه أن يسمع الرئيس الواقف عند التل ، وهو يضحك ويصيح له مع رجاله ، فأخذت صيحاتهم تبعث روحا جديدة فيه .. وراح يجرى ويجرى بما تبقى لديه من قوة ، فى حين كانت الشمس تلمس حافة الأفق . آه !.. **لقد اصبح قريبا من العلامة الآن !.. ان فى استطاعته أن يرى القوم على التل وهم يلوحون له بأيديهم ويستحثونه .. وبات فى امكانه أن يرى القبعة المصنوعة من فرو الثعلب ملقاة على الأرض ، والنقود فيها ، والرئيس بجانبها ويداه على جنبيه** .. وفجأة تذكر باخوم حلمه .. وراح يفكر قائلا : « ولو اننى أصبحت مالكا لأرض كثيرة الآن ، فكم أتمنى على الله فقط لو أوصلنى سالماً لأتمتع بها .. ولكن قلبى يحدثنى باننى قد قتلت نفسى ! »

وما فتئ يجرى .. وفى آخر لحظة ، نظر نحو الشمس، فاذا بها تبدو كبيرة ، وحمراء ، وقد مست الأرض وبدأت تغوص خلف الأفق .. ووصل الى التل فى الوقت الـذى غربت فيه ، فصاح فى يأسه قائلا : « آه !.. » اذ ظن أن كل شىء قد ضاع . وفجأة ، تذكر أن الرجال فوق التل على مرتفع منه ، وان الشمس بالنسبة اليهم لم تغرب بعد .. فاندفع الى الرابية . **وأمكنه أن يرى – وهو يزحف – أن القبعة مازالت هناك . ثم كبا وسقط . ولكنه مد ذراعيه – وهو يسقط – نحو القبعة امسك بها !**

وصـاح الرئيس قائلا : « آه . لاشك أنك – أيهـا الشاب – قد حزت لنفسك كثيرا من الأرض » .

وجـرى خادم باخوم نحو سيده ، وحاول أن يرفعـه ، ولـكن الدماء كانت تجرى من فمه . وقد رقـد ميتا .. وصاح الخادم فى فزع .. ولكن الرئيس ظل جالسا يضحك، ويداه على جنبيه . **وأخيرا ، وقف وأخذ معولا من الارض ، والقى به الى الخادم . وكان كل ما قاله له : ((ادفنه !))**

ووقف رجـال « الباشـكير » فترة ، ثم انصرفوا . ولم يبق الا الخادم ، الذى حفر قبرا على قدر طول « باخوم » – من رأسه الى قدميـه – وكان ثلاثة أذرع روسيـة .. فدفنه فيه !

حكمة سولون

• فى قديم الزمان ، قبل مجىء المسيح بوقت طـويل ، تولى حكم بلد من البلدان ملك عظيم يسمى «كروسوس» ، كان يمتلك كثيرا من الذهب والفضة ، وعـددا وفـيرا من الاحجار النفيسة .. وتحت امرته ما لا يعد ولا يحصى من العسكر والعبيد . وكان يعتقد موقنا أنه ليس فى العـالم كله من هو أسعد منه .

واتفق ذات يوم ، أن زار البـلد الذى كان ذلك الملك يحكمه . فيلسوف يونانى عظيم اسمه « سولون » ، اشتهر فى البلاد كلها بأنه عادل وحكيم . واذ كانت شهرته قد بلغت مسامع « كروسوس » . فقد أمر بأحضاره لبمثل امامه .

وكان الملك متربعا على عرشـه ، ومتسربلا بأبهى حلله ، حين جاء سولون . فسأله الملك : « أرأيت من قبل أفخـر أو اكثر أبهة مما ترى ؟ » .

فأجاب سولون قائلا : « **بالتأكيد .. رأيت كثيرا من الطواويس والديكة ، تتألق بأبهى الاردية وازهى الالوان ، التى لا يمكن أن تضاهيها صنعة أو يحاكيها فنان** » .

فصمت كروسوس ، وراح يفكر فى نفسه قائلا : « مادامت هذه لم تبهره أو ترضيه ، فلأطلعنه على المـزيد ، ولأثيرن.

دهشته ! » .. ومن ثم انطلق يعرض أمام عيني الفيلسوف كل ثرواته ومقتنياته ، وراح يزهو ويتباهى بعدد من ذبح من الاعداء ، وما فتح من البلاد ، وما سبى من العبيد والاماء . ثم التفت الى الفيلسوف قائلا : « لقد قدر لك ان تعيش كثيرا من السنين ، وان تزور كثيرا من البلدان ، فقل لى ، من ذا الذى تعتبره أسعد انسان فى الدنيا ؟ »

فأجابه قائلا : **((ان الذى اعتبره أسعد انسان فى الدنيا هو رجل فقير يعيش فى آتينا))** .

فدهش الملك من هذا الجواب ، لأنه كان واثقا من أن الفيلسوف سيذكره هو بالذات ، فاذا به — برغم ما رأى — يذكر انسانا مغمورا لا يعرفه أحد . ومن ثم سأله قائلا : « لماذا تقول ذلك ؟ »

فقال سولون : « لأن الرجل الذى أتكلم عنه قد كافح كل حياته ، وقنع بالقليل ، وقد قام بتربية أطفاله بأخلاص ، وخدم أهل مدينته بشرف ، وجعل لنفسه أحدوثة طيبة وسمعة نقية طاهرة » .

فلما سمع كروسوس ذلك قال محتدا : « واذن فهل تعتبر سعادتى غير ذات قيمة ، وتعتبرنى غير اهل لأن اقارن بالرجل الذى تتحدث عنه ؟ »

فأجابه سولون قائلا : **((كثيرا ما يحدث أن يكون رجل فقير اسعد من رجل غنى . ولا ينبغى لك أن تصف رجلا بأنه سعيد ، حتى تنتهى أيامه ويموت !))**

فاستاء الملك من كلمات سولون ، واستشاط غضبا من

حكمته فطرده ، قائلا فى نفسه : « انه لمجنـــون ! وان على الانسان طالما هو حى ان يفترف قدر طاقته من المسرات » .

***

ونسى الملك بعد ذلك « سولون » ، تمام النسيان .

الا أنه لم يمض وقت طويل ، حتى حدث أن ذهب احـد ابناء الملك ليصطاد ، فأصيب — لسوء الحظ — بجرح مات من جرائه . ثم جاءت الانبـــاء الى « كروســوس » بأن الامبراطور القوى « سيروس » قادم ليحاربه .

وخـــرج « كروسوس » على راس جيش عظيـم للقاء « سيروس » .. ولكن العدو ما لبث أن تفوق عليه ، وأفنى جيشه ، ودخل ظافرا الى عاصمة ملكه .

وبدأ الجنود الاغراب ينهبـــون أملاك الملك كروسوس ويذبحون رعيته ويحرقون المدينة . وقبض احد الجنود على « كروسوس » نفسه ، وكان على وشك أن يطعنه ، لولا أن اندفع ابن للملك متصديا للذود عن ابيه ، وصرخ قائلا : « لا تلمسه ! انه كروسوس الملك ! » ..

ومن ثم أحاط الجند بكروسوس وأوثقـوه وحملوه الى الامبراطور . ولكن هذا كان يحتفل بنصره فى مأدبة عظيمة ، فلم يتمكن من مخاطبة الأسير ، وأصدر الأمر بأعدامه .

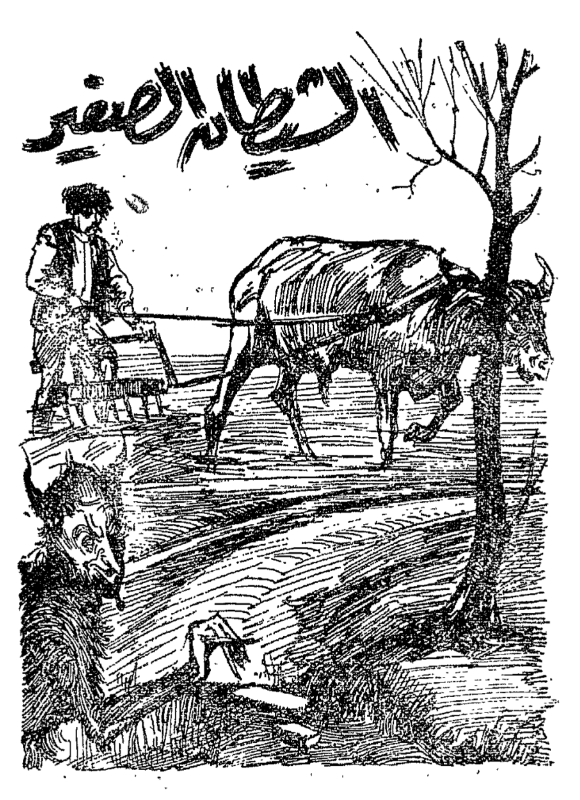
وفى وسط ميدان المدينة ؛ أعد الجنود كومة كبيرة من الحطب ، ووضعوا الملك على قمتها ، وقد ربطوه فى صارية ؛ وأشعلوا النار فى الحطب .

وتطلع كروسوس حواليـــه الى مدينته ، والى قصره ، وعندئذ تذكر كلمات الفيلسوف اليونانى ، فانفجرت الدموع من عينيه وهو يردد قائلا : « سولون !.. سولون ! » .

وكان الجنود يحيطون بالحطب المشتعل حين وصـــل الامبراطور «سيروس» بشخصه ليشهد الاعدام ، فالتقطت أذناه الكلمات التى فاه بها كروسوس ، ولكنـــه لم يفهمها ، فأمر باقصاء « كروسوس » عن الحطب ، وطلب اليـــه ان يحدثه عما كان يقول ، فأجاب كروسوس قائلا : **« انما كنت أردد اسم رجل حكيم ، كان قد ذكر لى حقيقة عظيمة .. حقيقة تساوى اكثر من كل ثروات الارض .. اكثـــر من مجدنا الملكى ! »**

وروى « كروسوس » حديثه مع ســـــولون ، فمست القصة قلب الامبراطور ، لأنها علمته أنه هو الآخر لا يعـــدو ان يكون بشرا .. وانه كذلك لا يعلم ما يخبئه له القدر من احداث .

ولم يتمالك — فى نهاية الامر — ان عفا عن « كروسوس » واكرمه ، وقربه اليه ، فأصبحا صديقين حميمين .



اصل عنوان هذه القصة : ((كيف كفر الشيطان الصغير عن حادث كسرة الخبز)) !

• خرج فلاح فقير يوما ليحرث أرضه ، ولم يكن لديه ما يفطر به ، فلم يأخذ معه الا كسرة خبز للغداء .. وفى الحقل ، وضع الكسرة فوق أكمة ، وغطاها بثوبه ، ثم أمسك بالمحراث ، وبدأ يشق بطن الأرض .. حتى اذا عضه الجوع ، ترك محراثه وذهب ليأتى بغذائه ، فما ان رفع الثوب حتى اجفل .. فأين كسرة الخبز ؟.. انها لم تكن هناك .. وأخذ يبحث عنها ، وقلب الثوب وهزه ، ولكنه لم يجدها .. فدهش أيما دهشة .. وبدا له الأمر عجيبا غاية العجب ، وقال فى نفسه : « لم أر أحدا يأتى هنا ويأخذها ! »

الا أن واقع الأمر أن شيطانا صغيرا أتى وسرق الكسرة حين كان الفلاح يحرث ، وقبع خلف الأكمة ليستمتع بسماع الفلاح وهو يسب ويلعن بسبب ما فقده .

وقنط الفلاح واكتأب جدا ، الا أن كل ما فعله هو أن قال : « حسنا ، اننى لن أموت من الجوع . ولابد أن الذى أخذ الكسرة محتاج اليها ، فليأكلها وليهنأ بها » .. ثم ذهب الى النبع ، وشرب جرعة ماء ، واستلقى قليلا على الأرض حتى استراح ، قبل أن يعود الى المحراث مرة أخرى ، ويستأنف عمله .

ومن ثم فقد خاب أمل الشيطان الصغير ، اذ فشل فى دفع الفلاح الى ارتكاب الخطيئة . وانطلق مسرعا الى الجحيم ليروى لرئيس الشياطين كيف انه سرق كسرة الفلاح ، فلم يفعل هذا الا أن دعا للسارق وباركه . فلما سمع رئيس الشياطين ذلك منه غضب غضبا شديدا ونهره قائلا : « اذا كان الفلاح قد انتصر عليك فلابد انك انت المخطىء دون سواك ، ولابد انك لم تسلك فيما فعلت سواء السبيل .. وأنها لسابقة خطيرة — ولا شك — أن يمتنع الفلاحون عن

السب واللعن ، ثم يتبعهم فى ذلك العجائز من نسـاءهم . وتكون النتيجة أننا يستحيل علينا أن نعيش على الاطلاق . كلا . ان الأمر لايحتمل أى تهاون ، من جانبنا ، ولا ينبغى أن يترك هكذا » .. ثم أردف قائلا : ((**اذهب مرة أخرى واعد للفلاح كسرته ، واذا عجزت خـلال ثلاث سنوات منـذ اليوم ، عن أن تحصـل منه على نتيجـة أفضـل ، فاننى سأغطسك فى الماء المقدس !))**

وفزع الشيطان الصغير فزعا شديدا لمجرد ذكر المـاء المقدس ، فمرق مسرعا نحو الأرض . وهناك استغرق فى التفكير منقبا فى ذهنه عن الوسيلة التى يصلح بهـا خطأه .. وراح يفكر ثم يفكر ، وأخيرا اهتدى الى الخطة الكفيلة بذلك .. فاتخذ لنفسه مظهر أحـد الحجاج ، واشتغل عاملا عنـد الفلاح . وقد أشار عليه أول الأمر بأن يأخذ حذره من شدة حرارة الصيف القادم ، فيبذر حبوبه فى الأرض المنخفضة. وبالفعل جاء الصيف قانطا فاحترقت محاصيل الفـلاحين جميعا من شواظ الشمس ، الا حنطة فلاحنا هذا ، فانهـا ما فتئت تنمو وتطول عيدانها ، ثم انبجست الحبوب آخر الأمر فى أطرافها مكتنزة وفيرة ، حتى لقد كفى محصولها الفلاح طول الموسم ، وفاض منه بعد ذلك الكثير .

***

. **واذ** جاء الصيف التالى ، أشار الحاج على الفلاح بأن يبذر غلته فى الأرض المرتفعة . وقد كان الفصل بالفعل غزير الأمطار ، فغرقت محاصيل الفلاحين جميعا أو عطنت فلم تنضج أبدا ، الا محصول فلاحنا ــ فوق التل ــ فقد كان محصولا رائعا ، غل من القمح قدرا يفيض عن حاجته ، ولم يكن ليعرف ماذا يفعل به . فأشار عليـه الحاج بأن ينتفع

بالفائض ، فيستقطر منه شراب « الفودكا » .. وقد استقطره الفلاح فعلا ، ثم شربه . وما لبث أن دعا جيرانه ليشربوا معه . وعند ذلك أسرع الشيطان الصغير الى رئيسه ليقول له مختالا بأنه قد كفر عن ذنبه فى حادثة كسرة الخبز ، فجاء رئيس الشياطين ليرى بنفسه .

واذ بلغ رئيس الشياطين كوخ الفلاح ، وجده قد دعا بعض أثرياء الفلاحين ، وأعد لهم وليمة « فودكا » . فلما جاءت زوجته بالشراب ، زلت قدمها فانقلبت احدى الزجاجات ، وانسكب على الأرض كل ما كان فيها ، فكاد الفلاح أن ينشق غضبا . وراح يعنف زوجته أشدالتعنيف ، قائلا لها : « ماذا فعلت أيتها المجنونة الخرقاء ؟.. أتريقين كل هذا الشراب على الأرض ؟ »

فوكز الشيطان الصغير رئيسه بكوعه قائلا له : « أنظر !.. انها ليست كسرة خبز التى يسب من أجلها الآن ويلعن ! »

وعاد الفلاح — بعد أن نهر زوجته — يوزع « الفودكا » ويدور بها على ضيوفه بنفسه . وفى هذه الأثناء ، دخل الكوخ عامل فقير عائد من عمله . ولم يكن أحد قد دعاه ، الا أنه حيا الجماعة وجلس . وما لبث أن أدرك أن الضيوف يشربون « الفودكا » فتاقت نفسه لجرعة منها ، لأن التعب كان قد أنهكه . الا أن الجلوس طال به ثم طال ، وراح لعابه يسيل ثم يسيل ، ولم يقدم له أحد شيئا!

وانشرح رئيس الشياطين أيما انشراح بما رأى ، الا أن تابعه قال فى زهو : « انتظر قليلا ، ولسوف ترى ما هو أفضل ! »

وشرب الفلاحون زجاجتهم الأولى من « الفودكا » ، واشترك مضيفهم معهم ، ثم بدأوا يطرون بعضهم بعضا فى رياء وملق ، ويتبادلون الكلمات الناعمة المعسولة .. ورئيس

الشياطين ينصت بانتباه ، وقد أعجبه ذلك ، فغمز قائلا : « اذا كانوا قد أصبحوا ماكرين هكذا بعد أول زجاجة ، فلسوف نراهم — بعد هنيهة — يوغلون فى خداع بعضهم البعض . وعندئذ سنكسبهم جميعا ! » . فقال الشيطان الصغير : « انك لم تر شيئا بعد ، فانتظر وانظر ما سيحدث بعد ذلك .. سترى مافيه الكفاية بعد ان يشربوا زجاجتهم الثانية ، فهم الآن يتمسحون — كل بفروة الآخر — كما تفعل الثعالب . ولكن انتظر وانظر اى ذئاب مفترسة سيغدون بعد حين ! »

***

وشرب الفلاحون زجاجة أخرى ، فازداد حديثهم ارتفاعا ، وقل تأدبا .. وبدلا من الكلمات المعسولة ، بدأوا يقذفون بالشتائم والتهديدات ، ويلكزون بعضهم البعض ، ويقرصون الواحد منهم أنف الآخر . واشترك مضيفهم كذلك فى المعمعة ، وساهم فى المعركة . فلما رأى رئيس الشياطين ذلك ، استخفه السرور وصاح قائلا : « عظيم ! » .. الا أن الشيطان الصغير اعترضه قائلا : **« انتظر حتى يحتسوا زجاجتهم الثالثة . فهم الآن كالذئاب المزمجرة ، ولكن .. صبرا قليلا ، واعطهم زجاجة أخرى ، فسوف تراهم قد انقلبوا محض خنازير ! »**

وشرب الفلاحون زجاجة ثالثة أداروها بينهم ، فسكروا تماما . وراحوا يصرخون ويصخبون دون أن يدرى أحدهم ما يقول ، أو يفقه ما يقول الآخرون . وأخيرا ، غادروا الكوخ ، وذهب كل منهم فى طريقه .. فسار بعضهم منفردا ، والبعض الآخر اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة .. **وهم جميعا يتمايلون ويتأرجحون** . وقد خرج مضيفهم ليودعهم ، فوقع

منبطحا على أنفه فى بركة موحلة ، وتلطخ من رأسه الى قدميه ، وظل مستلقيا مكانه كالخنزير البرى ، وهو يخور !

وامتلأت بالسرور جوانح رئيس الشياطين ، واستخفه الطرب ، فالتفت الى الشيطان الصغير قائلا : « انها لخطة بارعة تلك التى دبرتها ، وقد كفرت الآن عن خذلانك فى حادثة كسرة الخبز ، وأوفيت على الغاية . ولكن أخبرنى الآن : كيف صنعت هذا الشراب ؟.. أظن أن عنصرك الأول فى تركيبه هو دم الثعلب ، ليجعل الفلاح يغدو ماكرا .. وعنصرك الثانى هو دم الذئب ، ليجعله يغدو متوحشا .. وعنصرك الثالث هو دم الخنزير ، ليجعله يغدو خنزيرا ! »

فأجاب الشيطان الصغير قائلا : « كلا .. لم أستعمل شيئا من ذلك على الاطلاق ، وانما **كل ما فعلته هو أن جعلت الفلاح يزرع كمية من القمح تفيض عن حاجته . هذا كل ما فى الأمر !.. أما دماء الوحوش ، فقد كانت تجرى فيه بالفعل من قبل . وهى تجرى فيه دائما . ولكنها لاتجد منفذا للظهور مادام لايزرع من القمح الا القدر اللازم لغذائه.** لقد جاء وقت ـ كما قد تذكر ـ لم يكن يتذمر فيه حتى لفقدان كسرته الوحيدة . فلما توفر لديه قدر فائض من القمح ، راح يبحث عن وسيلة يسلى بها نفسه . وقدتدرجت معه ثم تدرجت ، حتى علمته هذه الوسيلة الجديدة للتسلية .. وهى الشراب . فما ان حول نعمة الله الى شراب ، حتى تيقظت فيه دماء الثعلب ، ودماء الذئب ، ودماء الخنزير جميعا . والآن وقد ذاق طعم الشراب مرة ؛ فسيظل وحشا مفترسا الى الأبد ! »

فهنأ رئيس الشياطين تابعه الصغير تهنئة حارة ، وعفا عن زلته فى حادثة كسرة الخبز ، وأنعم عليه برتبة عالية فى مملكة الشياطين .


السعادة

• كان يعيش فى ولاية (أوفا) رجـل غنى ؛ اسـمه « الياس » . وكان أبوه قد مات بعد سـنة من زواجه ، وتركه فقيرا . فلم تكن ثروته فى ذلك الحين تتعدى سبعة أفراس وبقرتين وعشرين شاة . الا أنـه ما لبث أن انكب على العمل والكدح مع زوجته ، وراحا يصلان الليل بالنهار ، فيقومان من نومهما مبـكرين ، حتى اذا غابت الشمس استمرا يكدان تحت جنح الظلام ، متجاوزين فى السهر أكثر من كل جيرانهما . ومن ثم فقد راح غناهما يزداد سنة بعد أخرى . حتى اذا انقضى خمسة وثلاثون عاما فى هذا الكفاح ، كانا قد جمعا ثروة طـائلة ، تألفت من مائتى فرس ، ومائة وخمسين كبشا ، ومائتين وألف شـاة .. واصبح لدى « الياس » رجال يرعون خيله وغنمه وماشيته ، ونسـاء تحلبن الافراس والابقار وتصنعن منها الـزبد والجبـن و « الكوميس » .

وبات لديه الكثير من كل شىء .. فأصـبح كل من فى الولاية يحسدونه على ثروته ، ولا ينفكون يقولون : « ياله من رجل سعيد ، فكل شىء عنده متوفر ، وليس ثمـة ما يحبب اليه الموت ! ».. وكان الاعيان يعجبون لكثرة معرفته وتهذيبه ، متسائلين : « متى حصل على كل هـذا ؟ » .. وكان الضيوف يأتون من أقصى الاماكن ليزوروه ، فـكان يستقبلهم ، ويرحب بهم ، ويدعوهم الى الطعام والشراب .. وما من شخص كان يدخل بيته ، الا قدم اليه «الكوميس» والشاى وعصير الفواكه ولحم الضأن المقـدد .. وما من ضيف نزل عليه ، الا بادر « الياس » الى ذبح شـاة أو اثنتين .. فاذا كان الضيوف عديدين ، ذبح فرسـا من أجلهم !

ولقد رزق « الياس » بولدين وبنت ، زوجهم جميعا حين

بلغوا سن الزواج . وكانوا قد اشـــــتغلوا معه ــ فى ايام الفاقة ــ وتولوا بأنفسهم رعى الماشية . بيد انهم لم يكادوا يثروا ، حتى اقبلوا على الملــــذات ، واسرفوا فى اللهو .. ومنهم واحد افرط فى معاقرة الخمر .. على ان اكبر ولدى « الياس » لم يلبث ان قتل فى مشاجرة ، بينما خرج الثانى على طاعة ابيه ، اذ كان قــد وقع تحت سلطــان زوجــة خبيثــة .. فطرده أبوه ، وان منحــه منزلا وقطيعــا من الماشية . فتناقصت بذلك بعض الشيء ثروته .

ثم حدث ــ بعــد ذلك ــ أن أصيبت ماشية « الياس » بوباء ، ومات جانب منها .. وتلا ذلك عام من القحط ، لم تنم فيه الحشائش والمراعى ، فنفق كثير من الأغنام خلال الشتاء ، وأغارت عليه بعــد ذلك قبائل الشركس فسرقوا احسن أفراسه . ومن ثم راحت ثروته تتنــاقص بسرعة مروعة ، وبدأ يسقط فى هوة الافلاس بخطوات شاسعة ..
بينما قل جهده ، ونقص مقدار كده وكدحه . حتى اذا بلغ السبعين من عمره ، كانت الحال قد تدهورت به الى حد أن باع ثيابه ، وأبسطته ، وعرباته ، وأسرجة خيله .. وأخيراً باع آخر قطيع بقى له من ماشيته ، فوصل الى الفقر المدقع . واذ رأى انه لم يبق لديه شيء ، ذهب هو وزوجته يقضيان البقية من سنى حياتهما الغاربة بين الغرباء ، بعد أن فقد الرجل كل شيء ولم يعد له من حطام الدنيا الا الملابس التى على جسده ــ وهى معطف من جلد الماعز ، وقبعة ، وسروال ، وحذاءان ــ ولم يعد له من يعينه على شيخوخته الا زوجته « شام شيماجى » ، التى كانت فى سن الشيخوخة مثله .. فقــد كان ابنه الذى سبق له أن طرده قــد رحل الى بلاد بعيدة ، وكانت ابنته قد ماتت . ومن ثم فقد أصبح الشيخ وزوجته فى حال مؤلمة من البؤس واليأس .

***

الا ان احد جيرانهما ، المسمى « محمد شاه » ، تألم لحالهما . وكان رجلا متوسط الحال ، فلا هو بالفقير ولا هو بالغنى . الا انه كان مستقيما ، ومستورا ، وموضع احترام . واذ تذكر الأيام التى أكل فيها العيش والملح فى بيت الياس ، تفطر قلبه ألما عليه ، وقال له : « تعال وعش معى يا الياس ، وهات امرأتك العجوز معك .. ففى امكانك — فى موسم الصيف — أن تقوم من أجل خاطرى ، وعلى قدر طاقتك ، بملاحظة حقول الشمام . وفى امكانك — فى موسم الشتاء — أن ترعى ماشيتى ، فى حين يمكن لزوجتك « شام شيماجى » أن تحلب الأفراس وتصنع « الكوميس » . وسوف اقدم لكما الطعام والملبس ، فاذا احتجت لشىء آخر فقل لى سريعا ، وانا امنحك اياه » .

وشكر الياس جاره الطيب القلب ، وذهب مع زوجته العجوز ليعيش فى خدمة « محمد شاه » . وكانا — فى أول الأمر — يجدان غضاضة فى ان يفعلا ذلك . الا انهما ، مع الوقت ، ألفاه واطمأنا الى العيش هناك ، لاسيما انهما لم يكونا يعملان الا قدر ما تسمح به قوتهما .

وقد ارتاح السيد اليهما ، لانهما — وقد مارسا السيادة والعز — كانا يعرفان كيف يحسنان التصرف . فضلا عن انهما لم يكونا قط كسولين ، ولا قليلى الفهم ، وانما كانا يؤديان عملهما كأحسن ما يؤدى العمل . ومع ذلك فقد كان « محمد شاه » ما يفتأ يستشعر الأسى والأسف اذ يرى هذين الشيخين — اللذين بلغا ارفع مكانة — ينحدران هكذا الى مثل هذا المصير !

وحدث ذات مرة ، أن جاء بعض اقارب « محمد شاه »

ليزوروه . وكان معهم شيخ من رجال الدين ، فطلب محمد شاه من الياس أن يذبح شاة ليقدمهـا لضيوفه .. فذبح الياس الشاة وسلخها وطهاها وأرسلها الى غرفة الطعام .. وأكل الضيوف من لحم الشاة ، واحتسوا أقداح الشـاي و « الكوميس » .. وبينما هم جلوس مع مضيفهم فوق الأبسطة والوسائد الوثيرة ، يشربون ويتسـامرون ، مر الياس أمام باب الغرفة وهو يؤدى عمله ، فلمحه « محمـد شاه » .. واذ ذاك مال على أحد الضيوف قائلا له : « أرأيت هذا الرجل الهرم الذى مر بالباب الآن ؟ » . فأجابه الضيف قائلا : « نعم رأيتـه ، فما حكايته ؟ » . فقـال له : « ان اسمه الياس ، وقد كان فى يوم من الأيام أغنى رجل فى هذه المقاطعـة ، ولابد أنك سمعت عنـه ! » . فقـال الضيف : « نعم ، سمعت عنه ، الا ان هذه أول مرة أراه فيها ، عـلى الرغم من ذيوع شهرته » . فقال محمد شاه : « انه الآن لا يملك شيئا على الاطلاق ، وهو يعيش فى بيتى كخادم لى ، وزوجته العجوز تعيش معه ، وتحلب الأبقار » .

ودهش الضيف أعظم الدهشـــة ، وهز رأسه فى أسف وهو يقول : « **حقا ان الثروة كالطاحونة الدائرة ، فهى ترفع حينا وتخفض حينا آخر .. ولـكن هل الرجل متألم مما آلت اليـه حـاله ؟** » .. فأجـابه المضـيف قائلا : « من يدرى ؟.. إنه يعيش فى دعة وسـلام ، ويؤدى عمله خـير أداء » . فقال الضيف : « هـل يمكننى اذن أن أتحـدث اليه ؟.. اننى أحب أن أسأله عن حياته السالفة » . فأجابه قائلا : « بالتأكيد ! » .. وصاح مناديا خلال فرجة الباب : « يا عم ، تعـال وهات لنـــا معك بعض الكوميس ، وادع زوجتك أيضا ! »

***

وأقبل الياس وزوجته على الغرفة . وبعد أن أديا التحية لسيدهما وضيوفه ، جثا الشيخ قرب الباب ، وجلست زوجته خلف الستار ، حيث كانت سيدتها جالسة .. وقدم الحاضرون الى الياس كوبا من «الكوميس» ، فدعا لسيده وضيوفه بدوام الصحة ، وانحنى لهم ، ثم شرب قليلا من الكوب ووضعه . وحينئذ سأله الضيف : « أيها الشيخ ، قل لي .. هل يؤلمك الآن ـ اذ تنظر الينا ـ أن تتذكر ثروتك الغابرة ، فتقارن بين حالك ـ اذ ذاك ـ وما أنت فيه الآن من بؤس ؟ »

فابتسم الياس وأجاب قائلا : « **اذا حدثتكم عن سعادتنا أو شقائنا ، فلن تصدقوني .. فالأفضل ان تسألوا زوجتي ، فان لها قلب امرأة ولسان امرأة معا ، ولسوف تقول لكم الحقيقة كلها فيما يتعلق بهذا الموضوع** » .

اذ ذاك نادى الضيف المرأة العجوز الجالسة خلف الستار قائلاً لها : « قولي لنا أيتها العجوز ، ما احساسك نحو سعادتكما الغابرة وشقائكما اليوم ؟ » . فأجابت شام شيماجي ، من خلف الستار : « لقد عشت مع زوجي نحو خمسين سنة ننشد السعادة ولا نجدها ابدا .. أما الآن ، فاننا ـ وان عشنا كخدم ـ قد وجدنا السعادة الحقيقية ، ولا نطمع في شيء آخر ! »

وعجب لذلك الضيوف والمضيف على السواء ، حتى ان هذا الاخير وقف على قدميه ـ لفرط دهشته ـ ورفع الستار لينظر الى المرأة العجوز .. وكانت واقفة هناك ، ويداها متشابكتان على صدرها ، وابتسامة مشرقة على وجهها ، وهي ترنو الى زوجها فيبتسم لها بدوره . ثم عادت تقول : « **انني أذكر الحقيقة ، ولست امزح . فقد**

ظللنا – نصف قرن – ننشـد السعادة ولا نجـدها ، على الرغم من اننا كنا أغنياء .. أما الآن ونحن لانملك شيئا ، وقد أتينا لنعيش بين قوم فاضلين ، فقد وجدنا من السعادة ما لا مطمع لنا فى زيادة عليه ! »

وعاد الضيف وسألها : « وما الذى يسعدكما ؟ » .. فأجابته قائلة : « عندما كنا أغنياء ، لم نعرف قط ساعة من ساعات السلام التى يمكننا فيها أن نتبادل الحديث ، أو أن نفكر خلالها فى أنفسنا ، أو ان نصلى الى الله .. فقـد كنا – اذا أقبل ضيوف علينا – نشغل تماما بالتفكير فى اكرامهم حتى لايسخروا منا أو يهزأوا بنا .. ثم ما نفتأ نبذل أقصى جهدنا فى خدمتهم والاحتفـاء بهم ، حتى لاندع سبيلا لهم لأن يقـارنوا مائدتهم وضيافتهم بمائدتنا وضيافتنا ، وأن يجعلوا هذه المقارنة فى غير مصلحتنا .. كنا نبذل كل ما فى طاقتنا لارضائهم ، وتجنب كل ما يثير سخطهم أو حنقهم علينـا .. **وذلك فضـلا عن المخاوف العديدة التى كانت تساورنا باستمرار ، من ان يفترس الذئب كبشا من كباشنا أو بقرة من أبقارنا ، او ان يسرق اللصوص بعض خيلنا ، او ان ترقد النعاج على حملانهـا فتقتلها** .. حتى اذا غشينا فراشنا لننـام ، امتنع النـوم علينا ، اذ نجـدنا محاصرين بأسباب الجزع والقلق وانشغال البال بصدد المشاكل التى تعترضنا .. الى جانب ما كان ينشب بينى وبين زوجى من خلاف حول الطريقة التى نحل بها هذه المشاكل ، اذ كنـا لا نتفق ابدا على رأى واحـد .. فهـو يقول ان الأمر يجب أن يعالج بهذه الطريقة ، وانا اقول بل يجب معالجته بطريقة أخرى ، ومن ثم نبـدأ فى الشجار .. فنرتكب بذلك عملا آخر من اعمال الخطيئة . **وهكذا كانت الحياة تقودنا**

من هم الى هم ، ومن اثم الى اثم ، ولكنها لم تكن تقودنا أبدا الى السعادة التى ننشدها ! »

وسألها الضيف قائلا : « وكيف حالكما الآن ؟ » . فأجابت العجوز : « حينما نصحو — أنا وزوجى — فى الصباح ، يحيى كل منا الآخر فى محبة ووئام .. ولم نعد نتشاجر او نختلف على شيء ، أو نحمل هم شيء ، بل أصبح همنا الأوحد هو التفكير فى الوسيلة التى نحسن بها خدمة سيدنا .. وأصبحنا نعمل على قدر طاقتنا ، وعن طيب خاطر ، لكى يستفيد مخدومنا ولا تلحق به خسارة من جرائنا .. ونحن على الدوام واجدان فى بيته غداءنا ؛ وعشاءنا ؛ وشراب « الكوميس » .. وفى البرد نجد الوقود ليدفئنا ، وأردية الجلد لتقى من الصقيع جسدينا .. ولدينا — فوق ذلك — الوقت الكافى لنتبادل الحديث ونفكر فى روحينا ؛ ونصلى الى الله .. وهكذا ظللنا خمسين سنة ننشد السعادة ، ولكننا لم نجدها الا الآن ! »

وانفجر الضيوف ضاحكين ، ولكن الياس صاح قائلا :

« لا تضحكوا أيها السادة الأفاضل . فليس هذا مزاحا ، وانما هو حقيقة الحياة البشرية ، فقد كنا أنا وزوجتى منفطرى القلب .. وكم بكينا حين فقدنا ثروتنا وغنانا .. أما الآن ، فان الله قد كشف لنا الحقيقة .. وها نحن قد كشفناها لكم بدورنا ، لا على سبيل التسلية ، وانما لصالحكم ومنفعتكم ! »

فقال رجل الدين ، الذى كان حاضرا مع الضيوف : « انه لقول حكيم .. ولقد قرر الياس الحقيقة ، كما هى موجودة فى الكتاب المقدس » .

وحينئذ كف الضيوف عن ضحكهم ومزاحهم ، وغرقوا فى تأمل عميق .

هذه هى الحياة!

• حدث ذلك فى اليوم التالى لعيد القديس « نيكولا » ، وكان سادن الكنيسة « فاسيلى أندريتش بريخانوف » ، قد بقى بالمنزل كى يقوم بواجب الضيافة نحو بعض أصدقائه وأقربائه ، حتى اذا انصرف آخر أولئك الضيوف ، أخذ أهبته لزيارة أحد الملاك المجاورين ، كى يبتاع منه مخزن أخشاب كان يساومه على شرائه منذ زمن طويل . **فقد كان « فاسيلى » — الى جانب وظيفته فى الكنيسة — يشتغل بالتجارة . ومن ثم فقد كان — فى ذلك اليوم — شديد اللهفة على التبكير بالخروج ، لئلا يحرمه المنافسون — الآتون من المدينة — هذه الصفقة الرابحة .**

وانطلق نيكيتا لاعداد الجواد ، اذ كان هو الوحيد بين الخدم الذى لم يكن مخمورا فى ذلك اليوم .. كان فيما سلف أكبر عربيد ، الا أنه — بعد ان رهن رداءه وحذاءيه من اجل الشراب — أقسم الا يقرب كل انواع الخمور ، واحترم قسمه فعلا طيلة الشهر التالى ، وظل مصمما عليه فى هذه المناسبة الأخيرة ، رغم الذى عاناه من اغراء الخمر التى كانت تتدفق اينما ذهب خلال اليومين الأولين من ايام العيد .

وكان من طبقة الفلاحين الملقبين « بالمازيك » .. فى نحو الخمسين من عمره ، وقد نزح من احدى القرى المجاورة ، حيث لم تكن له أسرة مقيمة ، وانما كان معروفا لدى الجميع بأنه عاش معظم حياته متنقلا بين منازل الآخرين . وكان اينما حل يلاحقه الاعجاب والتقدير لمهارته ومثابرته وقوة

بنيته .. ولدماثته ومـــرح طبيعته فوق ذلك . على ان الاستقرار لم يكن يطول به فى مكان واحد . اذ كان قد اعتاد أن يسرف فى الخمر مرتين أو أكثر فى الســنة .. وفى تلك المرات ، لم يكن الامر ينتهى به الى ان يرهن كل شيء يمتلكه ، فضلا عن انه كان يغدو عربيدا شرسا شديد الرغبــة فى الشجار والشحناء . وقد اضطر فاسيلى ذاته الى طرده أكثر من مرة . الا أنه كان لا يلبث أن يعيده الى خدمته ، لما لمسه من أمانته ، وعنايته بالماشية .. وأهم من كل هذا ، لما آنسه من قلة أجره ! .. فالواقع ان « فاسيلى » كان ينقد « نيكيتا » أجرا .. ولكن هـــذا الاجر لم يكن ثمانين من الروبلات فى السنة ، كما جرى عليه العرف لمثل هذا العامل .. وانما كان يعطيه اربعين لا تزيد بأى حال . ثم كان ــ فوق ذلك ــ لا يدفع له هذا القدر دفعة واحـــدة ، وانما كان يتفضل به عليه قطرة قطرة ، على اقساط وآجال .. وكان بعد ذلك كله لا يعطيه الجانب الاكبر منـــه نقدا ، وانما فى صورة سلع من متجره يبيعه اياها بالثمن الغالى .

أما « مارتا » ، زوجة نيكيتا ــ وهى امرأة خشـــنة ، مشعثة ، برغم انها كانت جميلة فى يوم من الايام ــ فقـــد كانت تعيش فى المنزل مع ولد صغير وبنتين . ومع ذلك ، فما كانت تدعو أبدا زوجها ليأتى ويراها .. لانها ــ قبـــل كل شيء ــ كانت تقيم فى العشرين عاما الاخيرة مع صـــانع براميل ، كان فى الاصل من طبقة الفلاحين فى قرية بعيدة ، ثم جاء ليقيم معها .. ولانها ــ بعـــد ذلك ــ كانت تخشى زوجها وتخافه ــ اذا ما ثمل ــ برغم انها كانت تتصرف معه حسب هواها حينما يكون مفيقا . فقد حدث مرة انه اكثر من احتساء الخمر ، وانتهز فرصة سكره ، فاعتزم أن ينتقم لنفسه من زوجته عن كل ما صنعت به خلال افاقته . ومن

ثم انقض على صندوقهاالخاص ، وكسره ، وأخذ كل ما كان به من ثياب ، فوضعها على كتلة خشبية ثم انهال عليها بالفأس حتى أحالها الى قطع صغيرة مهلهلة .. ومع ذلك فقد كان يسلم مارتا كل ما يحصل عليه من الاجر . وما من مرة نازع فى هذا النظام .. بل انها ذهبت ــ قبيل هذا العيد الاخير ــ الى متجر فاسيلى ، فأمدها هذا بالدقيق الابيض والسكر والشاى وزجاجة كبيرة من الفودكا ، باعتبار كل ذلك بثلاثة روبلات . واذ كان ما أعطاها اياه يساوى خمسةروبلات ، فقد شكرتلفاسيلى كرمه ومعروفه .. **الا أن فاسيلى ــ فى الحقيقة ــ حاسب نيكيتا على هذه السلع فيما بعد ، باعتبار ثمنها عشرين روبلا !**

وقد قال فاسيلى مرة لنيكيتا : « أى حساب مكتوب تريد أن أقدمه اليك ، وأنا اعطيك ما يتضح انه من حقك . اننى لا أفعل ما يفعله بقية الناس ، اذ أترك الدائنين لى ينتظرون ، وأشغلهم بالحسابات المفصلة عما لى فى ذمتهم وعما لهم فى ذمتى .. ففى وسع كل منا ــ أنا وانت ــ أن يثق فى الآخر .. ومادمت تحسن خدمتى ، فأننى لا اخذلك أبدا ! » .. وكان فاسيلى ــ فى قوله هذا ــ شديد الاعتقاد بأنه يقول الحق ، لأنه كان قديرا على الاقناع ، الى درجة تصل به الى ان يقتنع ــ هو نفسه ــ بأنه لا يخدع خدمه ، وانما يصنع معهم معروفا !

ولقد أجابه نيكيتا قائلا : « نعم . نعم . أننى افهمك يا فاسيلى أندريتش .. أننىأفهمك تمام الفهم ، وسأخدمك واشتغل من أجلك ، كما لو كنت والدى » .. **بيد انه لم يكن غافلا أو جاهلا بأن فاسيلى كان يغشه ويستغله .. كل ما هنالك أنه كان يدرك ان لا فائدة ترجى من مطالبة مخدومه بحساب مفصل عما يستحق من أجر** .. وكان ــ

فى ذات الوقت ـ يعلم انه ما من مكان آخر يمكن ان يذهب اليه . ولذلك كان يفضل أن يتحمل حاله معــه على ما هى عليه ، وان يقنع بما يمكنه أن يحصل عليه منه .

***

فلما أصدر اليه الامر فى ذلك اليوم بأن يسرج الجواد ، اتجه فورا الى الحظيرة فى مرحه المعتاد ، وطبيعته الدمثة . وكان جوادا جميل الشكل ، متوســـط الحجم ، منخفض الكفل ، داكن السمرة .. وما ان شعر الجواد بمقـــدم نيكيتا ، حتى استقبله بصهيل خافت ، عبر به عن تحيته .. فأقبل نيكيتا على تنظيفه ، ثم اسرجه . وما لبث أن قاده الى حيث كانت العربة ، فشده اليها . وارتقى سلم العربة ، وساق الجواد الى الخارج ، نحو مدخل الفناء .. وفى تلك اللحظة ، ارتفع خلفه صوت غلام صـــغير يصيح : « ياعم نيكيت .. ياعم نيكيت ! » .

كان هذا ابن مخدومه .. غلام فى السابعة من عمــره ، شاحب اللون ، ضعيف البنية ، يرتدى سترة قصـــيرة من الفرو الاسود ، وحذاءين ابيضين جديدين ، وقبعة أنيقة .. وقد اقبل مندفعا من داخل المنزل الى الفناء ، وراح يصرخ فى ضراعة الى نيكيتا وهو يجرى وراء العـــربة ، قائلا له : « خذنى معك ! » . فأجابه بقوله : « حسنا ، حســنا !.. تعال هنا ، اذن يا عزيزى ! » . وأخذ بيده ، وأجلســه فى العربة ، وعيناه تتألقان بالفرح ، وخـــــرج به الى عرض الطريق .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ، والجو كئيب عاصف ، ومقياس الحرارة يشير الى عشر درجات فقط فوق درجة التجمد ، وقد اكتست السماء بطبقة سوداء كثيفة من

السحب المنخفضة .. وكان المرء اذا ما خطا نحو الشارع خطوة واحدة ، يحس بالريح تغدو اشد قوة ، والصقيع يهوى فى كسف فيجتاح أسطح المبانى ، ويصفع وجوه السابلة . فما اسرع ما لوى نيكيتا عنان جواده وعاد بعربته الى الفناء . وما ان وقف بها عند مدخل البناء ، حتى خرج فاسيلى أندريتش ، ولفافة من التبغ بين شفتيه ، ومعطف من فرو الشاة فوق كتفيه ، وقد زره بأحكام ، ولفه عند خاصرته بحزام . واندفع بخطوات متسعة ، عنيفة الوقع فوق الثلج الذى راح ينسحق تحت صريف حذائيه المصنوعين من الجلد الكثيف المبطن باللباد . حتى اذا ازدرد آخر الانفاس من لفافته ، ألقى عقبها وداسه ، ثم نظر الى العربة وهو ينفخ دخان التبغ خلال شاربيه . واذ رآها على أهبه الاستعداد للرحلة ، رفع ياقة معطفه وطوق بها عنقه ووجهه ، حتى لاصق فراؤها وجنتيه .. واذ ذاك لمح ابنه الصغير جالسا فى مؤخر العربة ، فهتف قائلا له : « اذن ، فقد فعلتها أيها القرد الصغير ؟ » .

وكان فاسيلى فى تلك اللحظة منتعشا مما جرعه من النبيذ مع ضيوفه . لذلك فقد كان أكثر استعدادا لأن يستشعر الرضى عن نفسه ، وعن كل ما فعله فى حياته . وقد أبهجه — فى تلك اللحظة — منظر ابنه الصغير الذى أعتزم ان يجعله وارثه ، فراح يرمقه فى ازدهاء عظيم .

وعلى عتبة الباب ، وراء فاسيلى ، وقفت زوجته النحيفة الشاحبة اللون « فاسيليا اندريتشا » ، وقد لفت رأسها وكتفيها بدثار من الصوف ، فلم يعد يبدو منها سوى عينيها . واذ خطت فى حذر خارج عتبة الباب ، قالت : « أليس من الافضل أن تأخذ نيكيتا معك ؟ » . فلم يجبها وانما زمجر مغضبا ، مستاء من كلماتها ، وبصق على

الارض .. وحينئذ استرسلت قائلة فى لهجة بادية القلق : « أنت ترى أنك مسافر ومعك نقود .. فضلآ عن ان حالة الجو تزداد سوءا . »، فانفجر فاسيلى قائلا لها ، وقد توترت شفتاه غيظا : « السنت أعرف الطريق ؟.. اذن ، فما حاجتى الى دليل آخذه معى ؟ »

وأجابتـــه زوجته ، وهى تدير المدثار لتحمى الجانب الآخر من وجهها : « خذه معك من اجل خاطر السماء .. اتوسل اليك ! » . فصاح فيها قائلا : « بالله لماذا تلاحقيننى هكذا ؟.. اين عساى اجد له مكانا فى العربة ؟ » . فقال نيكيتا فى مرح : « أنا مســــتعد لأن اذهب » .. فأجاب فاسيلى : « حســـنا .. احسب ان من الواجب أن اطيب خاطر السيدة .. ولكن عليك أن ترتدى ثوبا أفضل من هذا ، وأكثر دفئا .. لابد من سترة رسمية غير هــــذه ! » .. وابتسم وهو يغمز بعينه نحو سترة نيكيتا الفرائية ، التى كانت — فى الحق — مهلهلة تتخللها فجوات عند ابطيها وعلى ظهرها وحول جانبيها ، فضلا عن أنها كانت ملوثة بالشحم ، متلبدة ، ممزقة الاطراف .

***

واذ انطلق نيكيتا ليستبدل ثيـــابه ، تبعه فاسيلى بقوله : « لا تتأخر طويلا فى ارتداء بدلتك الرســـمية الجديدة من فضلك ! » .. فمضى نيكيتا وثبا فى حذائيــه العتيقين الى جناح الخدم ، الواقع فى نهاية الفنـــاء .. ثم اندفـــع الى داخل الكوخ صائحا : « يا عزيزتى ارينشكا ، أعطينى بدلتى من الصيوان ، فاننى ذاهب مع السيد ! » . وانتزع حزامه الذى كان معلقا على وتد بالحائط .. وكانت الطاهية — فى تلك اللحظة — تعد الشاى لزوجها بعـــد أن نعمت بقيلولة

هائمة .. فلما سمعت صوت « نيكيتا » بادرته بالتحية فى بشاشة . واذ سرت اليها عدوى تسرعه وعجلتـــه ، بدأت تجرى هنا وهناك فى نشاط وخفة وضوضاء ، كما كان هـو يفعل . واخذت من الصيوان بدلة قديمة ، حائلة اللون ، وان لم يكن بحالها بأس . وراحت تنفض الغبار عنها وتنظفها .. وبينذاك ، راح نيكيتا يقول لها : « أنت أنسب منى للذهاب مع السيد ! » .. ولم يكن يعنى ما يقول ، وإنما كان ذلك جريا على عادته أن يقول شيئا حسنا لكل من يصادفه .. ثم راح يلف الحزام حول وسطه ويضغط عليه ضغطا عنيفا ليحبك اطرافه ، وانطلق يقول له : « أنت ياهذا !.. لا ينبغى لك أن تنفلت الى الخارج هكذا ! » .. **حتى اذا اطمأن الى حسن هيئته ، التقط اخيرا قفازيه من أحد الارفف وقال : « أنا مستعد الآن ! »** . **فصاحت الطاهية قائلـة : « ولكنك نسيت قدميك ، فأن هذا الحذاء بشع »** .

فوقف نيكيتا وكأنه بوغت بهذا ، وقال : « نعم » . الا انه ما لبث أن أتى حركة تدل على أنه غير فكره ، وقال : « كلا . فلســـوف يذهب بدونى ، لو اننى فعلت ذلك . وعلى أية حال ، فلن اكون بحاجة لأن أمشى طويلا » . ثم انطلق مسرعا الى الفناء .. فما رآته سيدته ـ حين وصل الى العربة ـ حتى بادرته قائلة : « ولكن ، ألن يصيبك البرد بهذه البذلة الخفيفة يا نيكيتا ؟ » . فأجابها : « كلا بالتأكيـــد ، كيف يصيبنى البرد ، والجو دافىء جدا ! » .. ثم راح يســوى القش فى مقدمة العربة بطريقة تسمح بأن يدس فيه قدميه .

وجلس « فاسيلى » فى مقعده ، فملأ بظهره العريض ـ ذى الدثارين من الفرو ـ مؤخر العربة كله ؛ ثم قبض على عنان الجواد وجذبه به .. فى حين قفز « نيكيتا » الى مقدم العربة ، فى اللحظة التى بدأت فيها تنطلق ، وجلس منحنيا

الى الامام بميل الى اليسار ، وهو يعتمد فى جلسته على قدم واحدة .

- ٢ -

• واندفع الجواد الوديع يجر العربة وهو يصدر صريفا خفيفا حين يخب فى منحن على الطريق المعبد المغطى بالصقيع . وفجأة صاح فاسيلى : « ويحك ! لماذا قفزت يا هذا ؟ » .. فقد لمح أحد المارة يحاول أن يدفع بنفسه أمام الجواد فى الاتجاه الخاطىء بالنسبة للمشاة . وصاح : « أعطنى السوط يا نيكيتا ! » .. فقفز العابر بعيدا عن طريقه .. بينما أسرع الجواد كل الاسراع .. الا أنه ما لبث أن عاد الى الخبب مرة أخرى .

وكانت (كريستى) ـ قرية فاسيلى ـ دسكرة صغيرة ، لا تضم اكثر من ستة منازل . فما وصلت العربة امام كوخ الحداد فى نهايتها ، حتى أدرك الراكبان أن الريح أقوى مما كانا يتوقعان ، وان الثلج أشد تراكما فى الطريق من المألوف، حتى لقد أصبح سطحه أعلى قليلا من مستوى الارض التى على جانبيه ، وان أبرزه ذلك للعين .. وكان الثلج يدور كالدوامة فى الوادى كله ، وتتسع دائرته حتى يمتد قطرها الى الافق البعيد ، فى حين أن غابة (تليالتنسكى) ـ التى كان من الممكن فى العادة رؤيتها كلها ـ لم تعد تبدو اكثر من كتلة من الظلمة ملتفة بالثلوج . وكانت الريح تهب من اليسار فتطيح بناصية الجواد الى الناحية الاخرى من عنقه ، وتدفع بذيله الطويل الذؤابة نحو خاصرته .

أما نيكيتا ، فاذ صفعته الريح ـ وهو جالس فى الجانب المعرض لها من العربة ـ راح يرفع ياقة بذلته ضاغطا اياها حول وجنتيه وأنفه .. وما لبث فاسيلى أن قال : « ان

الجواد لا يستطيع السير طويلا اليوم ، فان الثلج شـــديد التراكم على الارض » . ثم استرسل قائلا وهو يفخـــر بجواده : « لقد قدته ذات مرة الى (باسيتينو) فى نصف ساعة » .

فقال نيكيتا وقد منعته ياقته العاليـة من سماع ما قال سيده : « ماذا تقـول ؟ » . فصاح فاسيلى رافعا صوته : « أقول اننى قـدته الى باستيتينو فى نصف ساعة » . وقال نيكيتا : « انه لأمر يستحق الفخر بالتأكيد .. وانه لجواد بديع ! »

ثم صمتا برهة .. الا ان فاسيلى كان ميالا الى الثرثرة ، فما لبث أن قال صائحا : « ما رأيك ؟.. لقد قلت لزوجتك فى ذلك اليوم ، الا تدع صـانع البراميل يشرب الشـــاى كله » .. وكان موقنا بأن نيكيتا سيشعر بالزهو اذ يوجه اليه الحـديث من ذى حيثية مثله ، كما هزه الطرب جـدا بمزحته عن صانع البراميل ، غير مدرك أن هذا الأمر لم يكن ذا أهمية عند نيكيتا .. على أن هذا الأخير ، لم يسمع كلمة واحدة مما قال سيده ــ فى الواقع ــ بسبب عنف الريح .. فما كان من فاسيلى الا ان كرر مزحته بأعلى صوته . فلما فهم نيكيتا مقصده ، أجاب : « **كان الله فى عونها ، يا فاسيلى اندريتش !.. اننى لا أتدخل فى اى شأن من شؤونهـا .. فقد أتاحت لى بمسلكها سبيلا الى لومها . ولكنها مادامت تحسن معاملة الولد ، فلن اقول الا .. كان الله فى عونها !** »

اذ ذاك قال فاسيلى محولا مجرى الحديث : « هل انت مزمع أن تشترى جوادا فى الربيع ؟ » . فأعاد نيكيتا ياقته الى الخلف قليلا ، ومال ناحية مخدومه ، وقد سره موضوع الحديث الجديد ، فأراد أن يستوعب كل كلمة منه . وأجاب قائلا : « اننى لأرجو ان يكون فى امكانى ذلك .. فان ابنى

الصغير يكبر سريعا ، ويجب أن يتعلم الحرث والفلاحة . الا أننى بددت كل مالى » . فقال فاسيلى : « لو أنك أخذت جوادى الصغير المنخفض الكفل ، فلن أطلب فى مقابله ثمنا فادحا » .

وكان فاسيلى وهو يقول ذلك مرحا ، رائق المزاج ؛ وقد عاودته غريزته الغالبة التى تستغرق كل ملكاته .. وهى غريزة المساومة وملاحقة الصفقات . فأجابه نيكيتا : **« أفضل أن تقرضنى خمسة عشر روبلا ، وتدعنى أذهب وأشترى واحدا من سوق الخيل ! »**

قال ذلك اذ كان عالما كل العلم أن الجواد الصغير المنخفض الكفل – الذى كان يعنيه فاسيلى – لم يكن يساوى فى السوق أكثر من سبعة روبلات ، فى حين أن فاسيلى لن يعطيه اياه حتى يقسم أنه يساوى على الأقل خمسة وعشرين روبلا ، ثم يحتجز لذلك نصف أجره فى عام كامل ، حتى يستوفى ثمن جواده .. ولكن فاسيلى استرسل فى لهجته المتحذلقة المنمقة : « انه لجواد رائع ، وأريد أن أؤدى لك خدمة ، وأرعى مصلحتك كما أرعى مصلحة نفسى .. فيشرفنى أن بريخانوف لايمكن أن يغش أحدا ، واننى لأفضل الافلاس على أن أفعل ذلك .. نعم .. بشرفى انه لجواد رائع » . فقال نيكيتا وهو يزفر : « اننى لمتأكد من هذا » .

***

وإذ وجد من العبث أن يحاول الانصات أكثر من ذلك ؛ طوى ياقته مرة أخرى ، وغطى وجهه وأذنيه .. وخيم السكون بينهما – بعد ذلك – نصف ساعة كاملة ، راحت

قفازيه ، فلم يسعفه الا ان أحنى ظهره ، وغطى فمه بياقة سترته ، اتقاء لأذى البرد القارس ، الذى كان يصفعه فى شدة وعنف .

على أن فاسيلى ما لبث أن سأل نيكيتا : « ما رأيك ، أتذهب عن طريق كاراميشيفو أم نسلك الطريق المباشر ؟ » .. وكان الذهاب عن طريق (كاراميشيفو) هو الأبعد والأوعر ، الا انه كان عامرا بالعلامات المنصوبة الدالة على الاتجاه . **أما الطريق المباشر ، فمع انه كان أقصر جدا من الأول ، الا أنه كان خاليا من العلامات ، ومن ثم لم يكن مطروقا أو مستحبا من أغلب المسافرين** . ولذلك فقد فكر نيكيتا بعض الوقت ثم قال أخيرا : « ان طريق كاراميشيفو أطول ، ولكن السير فيه أيسر وأسهل » .

وقال فاسيلى ، وقد كان يميل الى الطريق الأقصر : « ومع ذلك ، فلو اننا ذهبنا فى الطريق المباشر ، فما علينا حينئذ الا أن نبلغ المنحنى ، ثم ننطلق بعد ذلك بلا خوف .. ولسوف يكون رائعا أن نسير خلال الغابة » . فقال نيكيتا : « كما تريد ! » . ثم طوى ياقته مرة أخرى .

وعلى ذلك ، سار فاسيلى فى الطريق الذى أراده .. حتى اذا قطع منها نحو نصف فرسخ ، استدار الى اليسار حيث كانت تنتصب سنديانة صغيرة العمر سامقة الجذع ، تحطمت فروعها وانسحقت أوراقها الذابلة — التى كانت لاتزال عالقة بها — تحت وطأة الريح المجنونة التى راحت فى ارتدادها تلطم أوجه المسافرين ، وقد بدأ يتساقط الصقيع . فما كان من فاسيلى الا أن أرخى العنان لجواده ، ونفخ أوداجه ، ثم ترك الأنفاس تخرج لاهثة من تحت شاربه .. فى حين كان نيكيتا قد أسلم نفسه لسنة من النوم .. وهكذا انطلقت بهما العربة فى صمت وسكون . الا أن فاسيلى ما

لبث ــ بعد نحو عشر دقائق ــ أن صاح منزعجا .. فانتفض نيكيتا فاتحا عينيه ، وهو يهتف قائلا : « ماذا هناك ؟ » .

ولم يجبه فاسيلى ، وانما استدار لينظر بخلفه ، ثم عاد يتطلع أمامه .. وكان الجــواد يخب فى سيره والعــرق يتصـاعد متبخرا من جانبيه .. فعـاد نيكيتا يسأل مرة أخرى : « ماذا هناك ؟ » .. فصاح فاسيلى فى حنق ، وهو يقلد صوت خادمه قائلا : « ماذا هناك ؟.. ليس هناك الا اننى لا أتمكن من رؤية أية علامات الآن . ولابد أننا حـدنا عن الطريق » . فقال نيكيتا : « انتظر لحظة اذن حتى أذهب وأرى » ..

وقفز بخفة من العربة ، وهو يسحب السوط من تحت القش . وسار أولا نحو الامام ، ثم اتجه الى اليسار .. الا أن الثلج كان بعيد الغور ، حتى أن قدما نيكيتا راحتا تغوصان فيه الى الركبتين .. ومع أنه ظل يتحايل على السير ، وهو يتكىء على مؤخر السوط ، فقد فشل فى أن يجد مواطىء لقدميــه .. واختفت معـــالم الطريق ، فما وسعه الا أن استدار راجعا .. وما ان لمحه فاسيلى ، حتى هتف متسائلا : « ماذا رأيت ؟ » .. فأجابه قائلا : « لاطريق فى هذا الجانب . فلأحاول الجانب الآخر ! » . فقال فاسيلى : « هناك شىء أسود يبدو أمامنا ، فاذهب وأنظر ما هو ؟ »

وذهب نيكيتا الى حيث أشــار اليه .. الا أنه اتبين ألا شىء هناك سوى رقعة من الأرض السوداء تهتز فيها بعض أعواد قمح الشتاء .. فاستدار عائدا الى العربة مرة أخرى ، واعتلى مقعده وهو ينفض الثلج عن ردائه وحذائيه .. ثم قال فى حزم : « يجب أن نتجه يمينا ، فقد كانت الريح الى يسارنا منذ لحظة ، ولكنها الآن تهب رأسا فى وجوهنا » .. ثم ختم قوله فى لهجــة الواثق المصمم : « نعم .. يجب أن

نتجه الى اليمين ! » .. وبعناء سمع فاسيلى قوله ، ثم لوى راس الجواد فى الاتجاه الذى أشار اليه .. ومع ذلك فقد سارا شوطا بعيدا ، وما من طريق ظهر امامهما .. اذ طمست الريح كل علامة يمكن السير على هداها ، وقد ازداد انهمار الثلج فغطى الغابة كلها ..

وفجأة صاح نيكيتا : « حسنا .. لقد ضللنا الآن تماما ، يا فاسيلى أندريتش » .. الا انه ما لبث أن صاح مرة اخرى : « ولكن ما هذا ؟ » . وراح يشير الى شيء بدا مرتفعا فوق رقعة الثلج ، فأوقف فاسيلى – فى الحال – جواده الذى أصبح الآن ينضح بالعرق ، ويحرك فى صعوبة جنبيه البدينين ، قائلا : « نعم . ما هذا ؟ » . فأجاب نيكيتا : « ان معناه اننا فى أملاك زاخاروفيتش .. واذن ، فهنا قد وصلنا » . ولكن فاسيلى قال : « كلا ، بالتأكيد » . فقال نيكيتا فى اصرار : « بل كما اقول .. ويمكنك أن تدرك هذا من صوت العجلات ، فانها تدرج فوق حقل من حقول البطاطس .. أنظر الى براعم البطاطس النابتة فى جذورها .. اجل ، هذه هى مزارع زاخاروفيتش » .

وقال فاسيلى : « حسنا ، فماذا نفعل الآن ؟ » . فأجاب نيكيتا قائلا : « يجب أن نواصل السير ناحية اليمين ، ولسوف نصل بالتأكيد الى مكان أو الى آخر . فاذا كنا لم نصادف زاخاروفيتش ، فلن نلبث أن نصل الى مزرعة احد المستأجرين » .

***

ووافقه فاسيلى ، فقاد الجواد فى الاتجاه الذى أشار اليه نيكيتا .. حتى بلغ بالعربة دغلا من الحشائش المنبسطة فوق رقعة خشنة من الأرض التى جمدها الصقيع .. ثم

اذا بالعربة تدلف مرة اخرى فوق حقل من خذامة الحنطة التى تنمو فى الشتاء وبواكير الربيع ، خلال العشب الذابل وعيدان القش المنتصبة فوق ركام الثلج ، وهى ترتعـــد مذعورة فى مهب الريح .. وقد اشتد انهمار الصقيع ، وبلغ الارهاق بالجـواد مبلغـا شنيعا ، فابيض جنباه ، وراحت أبخرة العرق تتصاعد من كل بدنه ، وهو يلتقط أنفاسه فى لهاث متقطع ، ولا يكاد يقوى بعد على نقل أقدامه .. **ثم ما لبث فجأة أن تعثر وكبا ، ثم غاص فى حفرة أمامه ، وحينئذ راح فاسيلى يستنهضه .. الا أن نيكيتا قفز فى هذه اللحظة صـائحا : « لماذا نقف هـــكذا ؟ هيـا !.. فلنرفعه من سقطته ! » ..**

وقفز من العربة ، واتجه نحو الجـواد يربته فى تشجيع وحنان ، قائلا له : « يا عزيزى ، يا حبيبى ! » .. واستدار الى العربة ، وراح يدفعهـا محاولا أن يخرجها من الحفرة بذراعيه .. فى هـذه الأثناء ، تمكن الجـواد من النهـوض بنفسه ، ثم راح يزحف الى الخلف الى أن بلغ نهاية الحفرة التى كان من الواضح أنها محفورة بيد انسان .. وحينئذ سأل فاسيلى قائلا : « أين نحن الآن ؟ » . فقـال نيكيتا : « يجب أن نعرف ذلك .. فلنتقدم قليلا ، ولسوف نصـل الى مكان ما .. »

وهنا أشار سيده الى شيء أسود يلوح خلال الثلج أمامهم ، وقال متسائلا : « أليست تلك غابة جوفيا تشكنسكى ؟ » . فأجابه نيكيتا قائلا : « قـــد يكون ذلك .. فهلم ننظر ما هنالك » .

وفعلا ، كان ما رآه رقعة من الارض ترفرف خلالها أوراق العنب الذابلة ، مما يدل على أن المكان لم يكن غابة موحشة ، وانما موضعا للسكنى . ومع ذلك ، فقد تردد كل منهما فى

الكلام ، الى أن تم تأكده من ذلك ، اذ لم يكادا يتقـــدمان عشرين قصبة ـ بعـــد الحفرة التى كان الجواد قد تردى فيها ـ حتى لاحت الحقيقة فى وضوح أمامهما ، وقد صدق حدس نيكيتا ، فلم تكن تلك التى وصلا اليها غابة ، وانمــا عريش متشابك الفروع من الاعناب التى ما زالت تعلق بهــا بضع أوراق ذابلة ترتجف على عساليجها ، فيرتفع لها حفيف كفحيح الافاعى تحت وقع الريح التى كانت تئز خلالهــا وتنوح . **وهنا ، رفع الجواد فجأة قدميــه الاماميتين ، ثم جذب مؤخرته فى اثرهما ، وما لبث بعد ذلك أن استدار الى اليسار فى سهولة واضحة ، وراح يخب مرة أخرى فى الثلج الذى بلغ ركبتيه .. واذن فقـد كانت تلك هى الطريق من جديد ..**

فصاح نيكيتا قائلا : « أخيرا .. ها نحن قد بلغناها ، ولكن الله وحده يعلم أين اتجاهها » .

أما الجواد ، فلم يتردد ، وانما انطلق رأســا فى الطريق المغطى بالثلج . حتى اذا قطع نحـــو مائة قصبة ، ارتفعت ـ أمام الراكبين ـ حوائط مخزن غلال غائص فى تلال الصقيع الذى كان يتراكم على سقفه كقطع السحاب .. فلما اجتازت العربة هذا البناء ، ابتدأ الطريق يلتف قليلا الى ناحية اتجــاه الريح ، ثم اذا بشارع قصير يبدو بين بنايتين .. ووضـــح ـ بما لا مجال للشك فيه ـ أنه شارع قرية من القرى .. وفى أقرب فناء من أفنية منازله ، بدا حبل مشدود ، يحمـل صفا طويلا من الملابس المنشورة ، وهى ترتجف وتتطاير فى ذعر وحيرة أمام لطمات الريح .. وقد تميز منه خلال الضوء الخافت قميصان أحدهما ناصع البيـــــاض والآخر أحمر اللون ، وسروالان ، وغلالة امـرأة .. وكان القميص الابيض يلوح بذراعيه المتدليين فى استغاثة وجنون .

- ٣ -

• كانت الريح فى أعنف شدتهـــا عند مدخل الشارع ؛ والثلج ينهمر على أرضه انهمارا لا هوادة فيـــــه .. الا أن العربة ما دلفت الى الساحة التى تتوسط القرية ، حتى بدا كل شيء هادئا ودافئا وبهيجا .. واقبل من أحد الافنيـــة كلب يعدو ويعوى ، كما أقبلت — من فنـــاء آخر — امرأة عجوز ، تهرول وقد لفت رأسها بمنـديل ، وراحت تتطلع نحو القادمين . ومن وسط القرية جاء صوت فتيات فى أحد المنازل تمرحن وتغنين .. فقال فاسيلى : « لا بد أن هذه هى جريشكينو » .

وفعلا .. كانت تلك هى (جريشكينو) .. وبذلك وضح لهما انهما انما تركا الطريق الى يمينهما ، وسارا نحو ثمانية فراسخ مبتعدين بزاوية عن الاتجاه الصحيح .. وما لبثا أن ابصرا رجلا طويل القامة ، يبرز فى عرض الطريق صـائحا : « من أنت يا هذا ؟ » . فلما وقعت عينه على فاسيلى ، تقدم نحو العربة ، وانحنى مزكما انف نيكيتا برائحـــة الفودكا ، قائلا لفاسـيلى : « الى أين يأخذك الله فى هـــذه الساعة يا فاسيلى أندريتش ؟ » .. وحينئذ تبين لهذا انه احـــد أصدقائه ويدعى « ايزاى » ، وكان معروفا بأنه أسوأ سارقى الخيل فى المنطقة كلها . فأجابه : « لقد كنا نحاول أن نصل الى جوفيا تشكينا » .

فقال مستعجبا : « أى طريق ذلك الذى اتخذتماه اذن ؟ »

ففمغم فاسيلى وهو يدفع بالجـــواد قائلا : « ما جدوى الكلام ؟ » .. وعندئذ نظر ايزاى فى خبث الى الجواد ، ومر بيده على كفله قائلا : «هل ستقضيان الليل هنا ؟» . فأجابه « كلا يا صديقى . سنواصل الرحيل حالا » .

وقال ايزاى : « أرى أن من الافضل أن تبقيا ، ولكن من هذا ؟ .. يا لله أليس هذا هو نيكيتا ستيفانتش ! » . فأجاب نيكيتا : « نعم . ليس غيره .. ولكن ، أرجوك أن تخبرنا أيها الاخ ، كيف نتجنب أن نضل طريقنا مرة أخرى ؟ » . فأجابه قائلا : « كيف تتجنبان أن تضلا طريقكما مرة أخرى ؟ .. سيرا على طول الطريق ، ولا تحيدا الى اليسار ، وانما استمرا حتى تصلا الى قرب قرية كبيرة ، فانحنيا نحو اليمين » .

وقال نيكيتا : « ولكن أين المنحنى بقرب تلك القرية ؟ .. أهو طريق الصيف أم طريق الشتاء ؟ » .. فأجابه قائلا : « طريق الشتاء ، ولسوف تجدان هنالك سنديانة عتيقة فارعة الطول .. فاذا وصلتما اليها فعندها تحيدان » .

***

وفى الحال أدار فاسيلى رأس الجواد ليعود به الى الطريق مرة أخرى .. وبدا ان الثلج قد كف عن الانهمار ، والريح قد فترت .. ولكنهما لم يكادا يبلغان الخلاء ، حتى اكتشفا أن العاصفة لم تكن قد خفت ، كما توهما ، وانما — على العكس — اشتدت وازدادت عنفا .. ولولا العلامات القائمة على جانبى الطريق ، لراحا يتخبطان فى الغابة مرة اخرى .. بل ان هذه العلامات ذاتها لم تلبث أن تعذر تبينها ، اذ بدأت الريح تطمس معالمها .

وقطب فاسيلى حاجبيه ، وهو ينحنى الى الامام كى يتبين مكان العلامات .. الا انه — مع عجزه عن ذلك — أطلق العنان لجواده أكثر من ذى قبل ، واثقا من فطنته .. انطلق الجواد حائدا ناحية اليسار أوناحية اليمين حسب انعطافات الطريق ، وهو يتحسسها بحوافره ، ولا يخطئها .. ملتزما

العلامات التى بقيت واضحة على الرغم من اشتداد الريح وانهمار الثلوج .. وظل منطلقا على هذا النحو ، حتى حدث بعد حوالي عشر دقائق أن لاح فجأة أمامه شيء أسود يضطرب فى دوامة هائلة من الثلج الذى تدفعه الريح .. **وسرعان ما ظهر هذا الشيء معترضا طريق الجواد ، وقد ارتطمت به قدماه الاماميتان ، فاذا هو عربة تحمل جماعة من المسافرين ، وقد انبعثت عنهم صيحات مختلطة تصرخ فى صخب : « خذ حذرك يا هذا ! أنظر امامك ! » ..**
وسارع فاسيلى ، فحاد بالجواد عن طريقه . وحينئذ تبين أن بالعربة ثلاثة فلاحين من « المازيك » ، وامرأة عجوز . وكان واضحا أنهم ضيوف عائدون بعد أن قضوا أيام العيد فى أحدى القرى .. فلما حاذاهم فاسيلى بعربته ، سألهم صائحا : « من أى بلد أنتم ؟ » . ولكنه لم يستطع تمييز اجابتهم .. بيد انه سمع احدهم يصيح الى زميل له كان يهوى بالغصن على الجواد قائلا له : «اعترض طريقهما !» . ومرة اخرى ، صاح فاسيلى : « أظنكم عائدين بعد قضاء فترة العيد ؟ » . ولكنه لم يسمع الا واحدا منهم يصرخ فى زميله : « **انهما يسبقاننا !.. أعترضهما يا سيمكا !** »
وهكذا ظلت العربتان تتسابقان .. تبطئان ، ثم تسرعان .. وتقفان ، ثم تنطلقان ، حتى بدأت عربة الفلاحين أخيرا تهن وتتداعى ، وبدأ جوادهم الضامر الصغير ينوء بحمله ، وهو يحاول عبثا أن يروغ من ضربات الغصن الذى كان يهوى على جنباته ، فراح يتخبط فى تلال الثلج التى كانت تغوص فيها أقدامه ، وأنفاسه تنطلق لاهثة من فتحات أنفه المنتفخة ، وأذناه منتصبتان ، مشدودتان الى الخلف من فرط الارهاق والفزع .. فصاح نيكيتا قائلا : « أنهم لسكارى ، وهذا ما تفعله الخمر بالناس ! »

وسرعان ما خارت قوة الجواد المكروب ، ووهنت خطواته فتخلف بعربته .. وظل تهدج انفاسه يتردد بضع دقائق ، كما اخذت صيحات الفلاحين وهى تغيب شيئا فشيئا ، حتى طواها أخيرا صوت العاصفة .. ولم يعد يمكن سماع شىء سوى صفير الريح ، وصرير العجلات وهى تقرقع فوق ارض الطريق .

***

والواقع أن هذا السباق مع العربة الاخرى أبهج فاسيلى وانعشه ؛ حتى لقد قاد الجواد ممتلىء النفس بثقة لم تكن له فى يوم من الايام .. وترك الامر كله لفطنة الجواد الاريب ، دون أن يهتم بمراقبة علامات الطريق . أما نيكيتا ، فقد أسلم نفسه — كعادته — لاغفاءة .. الا ان الجواد ما لبث أن وقف وقفة عنيفة مفاجئة ، حتى كاد ان يلقى نيكيتا من مقعده فوق العربة .. وحينئذ صاح فاسيلى قائلا : « **لقد اخطأنا الطريق مرة أخرى** » . **فقال نيكيتا منتفضا : « كيف عرفت ذلك ؟ »** . **وكان جوابه : « لم تعد ثمة علامات ترى ! »**

وقال نيكيتا فى اقتضاب : « حسنا . مادمنا قد فقدناها، فلأبحث عنها مرة أخرى ! » .. ثم غادر العربة ، وراح يشق طريقه بين الثلوج ، وهو يقفز قفزا على عقبى قدميه .. وظل يفعل ذلك وقتا طويلا ، فكان يختفى حينا ، ثم يظهر مرة أخرى .. وأخيرا ارتد فى يأس ، واعتلى مقعده على العربة قائلا : « ليس هنالك طريق ... فلنتقدم بالعربة فلا بد انه امامنا . » .. وكان الظلام قد اشتد ، فقال فاسيلى متأوها : « ليت فى امكاننا أن نسمع اولئك الفلاحين ! » . فقال نيكيتا : « لن يلحقوا بنا ، فقد تخلفوا

عنا مسافة طويلة » .. وسكت هنيهة ثم أضاف قائلا :
« لعلهم فعلوا مثلنا ! »
وقال فاسيلى متسائلا : «ولكن .. فى أى طريق نحن ؟» ..
فأجابه نيكيتا فى لهجة الناصح : « أترك الامر للجواد ، فلعله يتخذ الطريق الصحيح ! » .. ثم مد يده قائلا : « أعطنى العنان » . ولكن فاسيلى لم يناوله اياه .. ربما لأن يديه — على الأقل — كانتا نصف متجمدتين فى قفازيهما . فأخذ نيكيتا اللجام ، ولكنه تركه مرسلا فى أصابعه ، غير محاول أن يشد عليه ، وقد اطربه — فى الواقع — ان يختبر ذكاء جواده المحبوب .. وقد كان على حق ، فان الحيوان النابه ما لبث أن نصب أذنيه ناحية اليمين ، ثم نصبهما ناحية اليسار ، ثم اذا به يستدير ويعود أدراجه .
وصاح نيكيتا فى زهو وظفر قائلا : « انه ليعرف جيدا ما ينبغى أن يفعل !.. فانطلق يا صديقى ! انطلق ونحن معك ! » .. واصبحت الريح فى ظهرهما مرة أخرى ، وقد بدا لهما الجو أكثر دفئا ... واستمر نيكيتا فى زهوه بالجواد ، قائلا : « انظر ماذا يفعل بأذنيه وحدهما !.. انه يستطيع أن يشم بهما رائحة الطريق على بعد فرسخ ! » . وفعلا ، لم ينقض نصف الساعة ، حتى بدأ يلوح أمامهما على البعد شىء أسود كالغابة أو القرية .. كما بدأت علامات الطريق تظهر عن يمينهما . فتساءل نيكيتا فجأة : « أليست تلك هى جريشكينو مرة أخرى ؟ » .
ولقد كانت حقا هى (جريشكينو) ، وقد بدا عن يسارهم المخزن والثلج متراكم على سطحه ، وعلى مسافة منه بدا مرة أخرى حبل الملابس المحمل بالقمصان والسراويل .. وكانت ما تزال ترفرف وترتجف امام لطمات !.. وللمرة الثانية ، راحا يدلفان الى شارع القرية ، وقد أخذ كل شىء

يبدو لهما فى داخلها هادئا ودافئا وبهيجا ، وبدأ سمعهما يلتقط أصوات المرح والغناء المنبعثة من المنازل ، وراح الكلب ينبح كما فعل فى المرة السالفة .. واذ كان ظلام الليل قد اشتد عن ذى قبل ، فقد اصبحت الانوار اكثر تألقا فى احدى النوافذ .. وأدار فاسيلى رأس الجواد ناحية كوخ كبير ذى طابقين من القرميد ، وأوقف العربة عند عتبته .. واقترب نيكيتا من النافذة المضيئة ، المجللة بالثلج المتألق فى وهج النور ، ودق لوح الزجاج بمؤخر سوطه ، فصاح صوت من الداخل ، قائلا : « من هناك ؟ »

واجاب نيكيتا قائلا : « انه السيد بريخانوف ، من كريستى ، أيها الأخ .. أرجوك أن تسمح لنا بالدخول » .. وسمعا حركة شخص يبتعد عن النافذة ، ثم – بعد نحو دقيقتين – صوت الباب الداخلى وهو يفتح ، وصريف مزلاج الباب الخارجى . وما انفرج قليلا ، حتى ظهر فلاح شيخ ، فارع الطول ، ذو لحية بيضاء ، أمسك بالباب نصف مغلق خلفه – كى يمنع الريح من أن تتسرب الى داخل الكوخ – وقد القى على كتفيه معطفا من الفراء ، فوق جلباب أبيض مما يرتدى داخل البيت .. ووراءه شاب يافع فى قميص احمر وحذاءين طويلين ..

ولم يكد الشيخ يراهما ، حتى بادر قائلا : « كيف حالك يا أندريتش ؟ » . فأجابه فاسيلى : « لقد ضللنا الطريق يا صديقى .. كنا نحاول الذهاب الى جوفياتشكينا ، فوصلت بنا العربة الى هنا .. ثم واصلنا السير ، ولكنا ضللنا الطريق مرة أخرى » . فقال الشيخ : « ولكن ، كيف حدث أن سرتما فى اتجاه خاطىء ؟ » .. ثم وجه كلامه الى الشاب ذى القميص الأحمر ، قائلا : « اذهب يا بيتروشكا وافتح باب الفناء » .

واذ انطلق الشاب فى مرح ليفعل ذلك ، صــــاح فاسيلى قائلا : « كلا . كلا . لن نقضى الليل هنا » . فأجابه الشيخ متسائلا : « ولكن أين يمكنكما ان تذهبا الآن ؟ .. لقد خيـم الظلام ، ومن الافضل لكما البقاء » . فقال فاسيلى فى لهجة المتعجل : « كان يسرنى كل السرور أن أفعل ذلك ، ولــكنى لا استطيع ، فأنت تعرف ان العمل لا ينتظر » .

وقال الشيخ : « لاأقل اذن من ان تدخلا فتستدفئا ببعض الشاى » . فأجابه فاســيلى قائلا : « نعم . ربما نفعل ذلك .. فأن الليل لن يغدو — على أى حال — أشد ظلاما مما هو الآن ، ولسوف يظهر القمر بعد قليل .. هل ندخل وندفىء أنفســـنا بعض الشىء يانيكيتا ؟ » . فقال نيكيتا وقد كان يرتجف من البرد : « نعم ! »

***

ودخل فاسيلى الى الكوخ فى صحبة الشيخ ، فى حين دفع نيكيتا العربة الى داخل الفناء ، بعد ان فتح بتروشـــكا له الباب . ثم ساق الجواد وأوقفه تحت مظلة هناك ، فما دلف به حتى ارتفع صــوت ديك ودجاجات كانت جاثمة فى أحد الاركان ، وقد راحت ترفرف بأجنحتها ، وتصرخ وتقفز هنا وهناك ضاربة الداخلين بمخالبها ، واندفعت بعض الاغنــام فى فزع وهى تدق بحوافرها الروث المغطى بالثـلج ، وراح كلب يزوم ويزمجر فى غضب . ثم لم يلبث أن انطلق يعـوى فى وجه القادمين المتطفلين .. فالتفت نيكيتا حـوله يتأمل هذه الثـورة التى أثارها قدومه ، وقال كلمة لكل من هؤلاء الثائرين يهدىء بها خواطرهم .. ثم التفت أخيرا الــكلب ، وهو يقول ملوحا بيديه : « هاقد انتهينا الآن ، فاســكت يا مجنون !.. اسكت ولا تزعج نفسك هكذا بغير موجب .. لسنا لصوصا ! »

فقال بتروشكا وهو يدفع العربة تحت المظلة بيديه القويتين : «انهم مستشارونا الثلاثة اليقظون ؟» ..
فقال نيكيتا متسائلاً : « مستشاروكم الثلاثة ؟ » . فأجابه وهو يبتسم : « نعم ، فانك تجده مكتوبا فى كتاب «بولسون». « حينما لص يتسلل الى المنزل .. الكلب يعوى قائلا بلغته الخاصة : أصحوا !.. والديك يصيح قائلا : قوموا !.. أما القطة فانها تروح تنظف وجهها ، كأنما تقول : ثمة ضيفه مقبل ، فلنستعد للقائه ! »

وقد كان بتروشكا ذا نزعة أدبية ، وكان يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب الوحيد الذى يمتلكه ، وهو أحد مؤلفات « بولسون » .. فقال : « هذا حق صراح » . وقال بتروشكا : « ولكنى أراك متجمدا من البرد .. فتعال الآن الى الداخل كى تصيب بعض الشاى » .. ثم عبرا الفناء ودلفا الى داخل الكوخ .

– ٤ –

• **كانت** العائلة التى لجأ فاسيلى وخادمه الى منزلها ، من أغنى عائلات القرية .. اذ كانت تمتلك ما لا يقل عن خمسة أفدنة من الارض ، وتستأجر قدرا آخر يدر عليها ريعا سخيا . وكانت حظائرها تشتمل على خمسة خيول ، وخمسة ثيران ، وثلاثة أبقار ، وقطيع من عشرين رأس غنم .. وكان المنزل يضم بين جدرانه اثنين وعشرين نفسا .. أربعة أبناء متزوجون ، وستة أحفاد – كان أحدهم وهو بتروشكا متزوجا – واثنان من ابناء الاحفاد ، وثلاث يتامى، واربع من زوجات الابناء مع أطفالهن .. فضلا عن ولدين كانا يعملان فى موسكو ، وثالث كان فى الجيش .. الا انه لم يكن بالمنزل – فى تلك الساعة – غير الشيخ وزوجته ،

والابن الثانى صاحب الاولاد المتزوجين ، وأكبر الولدين اللذين كانا يعملان فى موسكو ـ وقد جاء فى العيـــد ـ والزوجات والاولاد العديدين وأحد الجيران الثرثارين .

تلك كانت احـــدى العائلات النادرة ، التى ظلت تعيش متجمعة فى بيت واحد ، برغم ما كان ناشبا بين نســائها من عوامل النزاع والشقاق العميق الجـــذور ، الذى لا يفتأ ينشب عادة بين كل النساء ، والذى كان من شأنه أن يؤدى آخر الامر الى هدم العائلة وتحطيم كيانها ..

وكان ثمة مصباح ذو غطاء زجاجى ، يعلو الخــوان الذى يتوسط ردهة الكوخ ، ويلقى ضوءا ساطعا على آنية خزفيــة منثورة فوقه ، وزجاجة « فودكا » تحيط بها ألوان متنوعة من الطعام . وفى أحد الاركان ، كانت ثمة أيقونات مزينـــة بالرسوم على جانبيها .. وفى مـــكان الشرف من المائدة ، جلس فاسيلى ـ وقد خلع معطفه وبدا فى سترته السوداء الداخلية ـ وراح يعبث بشاربه ، وهو يدير بصره فى أنحــاء الكوخ ، ويتفرس فى الجالسين حوله بعينين بارزتين براقتين كعينى الصقر .. وفى المقعد التالى له ، جلس الشـــيخ الاصلع ذو اللحية البيضاء وهو رأس العائلة .. وكان يلبس قميصا أبيض اللون مصنوعا بالمنزل . وجلس بعــده الابن الذى جاء من موسكو بمناسبة العيد ، وكان معتدل القامة عريض المنكبين يلبس قميصا أبيض يشبه قميص أبيه ، ولكنه من نسيج أجمل وأجود .. والى جانبه جلس أخــوه الذى يصغره . وكان ـ هو الآخر ـ عريض المنكبين .. وكان هو اكبر المقيمين بالمنزل من الابناء .. وتلاه الجار الثــرثار .. فلاح نحيف البنية أحمر الشعر .

وكان القوم يتناولون العشاء ، ويشربون « الفودكا » ، وقد أوشكوا أن يشربوا الشاى ، حينما وصــل القادمان .

وكان الابريق موضوعا بالفعل على النار ، والماء يغلى فيه .. وبعض الأطفـــال يحيطون بالموقد أو يجلســون على بعض الأرائك فى اطراف الردهة ، فى حين كانت المــرأة العجــوز واقفة خلف المقعــد الذى يجلس عليه فاسيلى ، وقد ملأت التجاعيد كل وجهها ، حتى الشــفتين .. فلما دلف نيكيتا الى داخل الكوخ ، كانت تتأهب لأن تقدم الى ضيفها بعض « الفودكا » فى قدح من الزجاج السميك ، وهى تقول له : « لاينبغى لك أن ترفضه يا فاسيلى أندريتش .. فانك لفى أشد الحاجة حقا الى شىء ينعشك أيها السيد العزيز ! »

وأثارت رائحــة « الفودكا » نيكيتا وهزته هزا عنيفــا ، وخاصة اذ كان شديد الاحســاس بالبرد والجوع .. واذ كان ينفض الثلج العالق بثوبه توقف لحظـــة أمام الايقونات وعيناه تجولان بين الجالسين ، ثم ركع ورسم علامة الصليب ثلاث مرات .. وعاد بعد ذلك الى مضيفه فحياه ، ثم حيا الجالسين حول المائدة ، والمرأة الواقفـــة بجانب الموقد .. ثم راح ينزع عنه معطفه ، دون أن ينظر الى المائدة ، فنفضه ، وعلقه فوق المشجب القريب .

واقترب ـ أخيرا ـ من المائدة ، فلما قدموا اليه الفودكا ، كاد أن يتناول الزجاجة ويرفعها الى فمه ، لولا أن وقعت عينه ـ فى تلك اللحظة ـ على فاسيلى ، فعادت به الذاكرة فى الحال الى حذائيه المرهونين ، كما تذكر ابنه الذى وعده بأن يشترى له جوادا فى الربيع .. وهــكذا انتهى به الأمر الى أن نحى عنـــه الزجاجة وهو يتنهــد ، وقطب حاجبيه قائلا : « اننى لا أشربها .. أشكرك شكرا جزيلا . ثم ألقى بنفسه على مقعد بقرب النافذة . فقال الأخ الأكبر متسائلا : « ولـــكن لماذا ؟ » . فأجاب نيكيتا دون أن يرفع عينيــه : « لأننى لا أشربها .. لا أشربها ! »

وقالت العجوز الرحيمة : « حسنا ، هات ابريق الشاى اذن .. سأحضر لك بعض الشاى ، لأنك لابد متجمد من البرد .. لماذاتأخرتن فى انجازالابريق يانسائى الطيبات؟» . فأجابت إحداهن وهى تمسح بقطعة من القماش ابريق الشاى المغطى قائلة : « لقد انتهينا من اعداده ! » .. ثم رفعته ببعض العناء ، ووضعته على المائدة .. وكان فاسيلى — فى ذلك الوقت — يقص على مضيفه كيف ضل وتابعه طريقهما وهاما على وجهيهما فى الغابة ، وكيف تقابلا مع الفلاحين السكارى ، وكيف عادا الى القرية مرتين .. فقالت العجوز فى لهجة اقتناع : « ولكن اليس من المستحسن أن تقضيا الليل هنا ؟.. سوف تعد النسوة لكما الفراش » .

فقال زوجها : « نعم ، ينبغى أن تبيتا هذه الليلة هنا ! »

وبادره فاسيلى قائلا : « كلا ، كلا .. قطعا لا أستطيع ذلك يا صديقى الفاضل ، فالعمل هو العمل .. وتأخير ساعة ، معناه ضياع سنة كاملة » . ثم راح يقص قصة مخزن الخشب ، والمنافسين الذين قد يسبقونه الى الفوز بالصفقة .. والتفت الى نيكيتا قائلا : « هل نذهب الآن ؟» . ولم يجب نيكيتا ، وانما بدا منهمكا بعض الوقت فى نفض الثلج عن لحيته وشاربيه . ثم غمغم أخيرا فى عبوس : « سوف يكون من الفظيع أن نضل الطريق مرة أخرى .. أليس كذلك ؟ »

وكان سر عبوسه فى الواقع أنه كان شديد اللهفة الى الفودكا ، وكان الشىء الوحيد الذى خفف عنه فرط لهفته هو ارتقاب الشاى الذى لم يكونوا قدموه اليه بعد .. الا أن فاسيلى أجابه فى اصرار : « ولكن ، لابد لنا أن نصل الى غايتنا .. ولا يمكن أن نضل الطريق بعد ذلك .. فما علينا الا أن نسلك طريق الغابة رأسا الى مقصدنا ! »

وقال نيكيتا وهو يتناول كوب الشاى الذى كان يقدم اليه فى تلك اللحظة : « حسنا ، فأنت الذى تقرر يا فاسيلى أندريتش .. ان كان لابد لنا من الذهاب ، فلنذهب .. هذا كل ما فى الأمر ! » . فقال فاسيلى : « اشرب الشاى اذن ، ولنسرع ! »

***

ولم ينفه نيكيتا بكلمة أخرى ، وان هز رأسه فى استياء واستنكار . ثم صب الشاى بعناية فى القدح ، وبدأ يدفىء — فى البخار المتصاعد — أنامله المتورمة من البرد . وقال وهو يقضم بأسنانه قطعة من السكر ، وينحنى لمضيفه : « أتمنى لكم الصحة جميعا ! » .. ثم صب الشراب اللذيذ فى جوفه . وهنا قال فاسيلى متأوها : « ليتنا نجد من يقودنا الى منحنى الطريق ! » .. فقال الأخ الأكبر : « هذا يمكن تدبيره ، ففى امكان بتروشكا أن يسرج جوادا ويذهب معكما الى أبعد من ذلك » .

فقال فاسيلى : « اسرجه اذن أيها الأخ ، ولك افضل تشكراتى » . فأجابته العجوز المضيافة : « ولك انت يا سيدى الفاضل .. فقد سررنا كل السرور برؤيتكم » .

وتناول بتروشكا قبعته وهرول خارجا .. وبينما كان يعد جواده وجواد الضيف ، استأنف أصحاب الدار حديثهم الذى كانوا فيه قبل مجىء فاسيلى ومرافقه ، وقد بدا أن الرجل العجوز كان يشكو الى جاره — الذى كان هو الآخر رب عائلة — من تصرف ابنه الثالث ، اذ لم يرسل اليه هدية العيد فى هذا العام ، بينما اهدى زوجته شالا فرنسيا .. وراح الشيخ المتوجع ، يقول فى مرارة : « ان شباب هذه الأيام قد خرجوا عن الولاء لوالديهم » . فأجابه الجار : « حقا .. ولم تعد لنا حياة معهم ، فانهم ليزدادون وقاحة

.. أنظر الى ديموتشكين ، الذى كسر ذراع ابيه في ذلك اليوم ؟!.. لم تعد لنا حياة معهم » .

وظل نيكيتا منصتا ، وهو ينقل البصر من واحد الى آخر ، وقد تملكته رغبة جارفة في أن يساهم في الحديث .. الا أنه كان منهمكا كل الانهماك في شرب الشاى ، فلم تعد لديه فرصة للكلام ، واكتفى بأن كان يهز رأسه في موافقة واستحسان بين لحظة وأخرى .. ودب الدفء في جسده واعتدل مزاجه ، بينما استمر الحديث طويلا حول هذا الموضوع ، وما يستتبعه من شر التسبب فيما يصيب العائلات من التفكك والانقسام ، وقد بلغ من اهتمام الحاضرين بالموضوع ، وتشبثهم به ، انه كان من العسير صرفهم عنه ، فراح يتشعب بهم ، ويتطرق الى ما ظهر في سماء هذه الأسرة ذاتها من خصام بات يهدد العائلة كلها بالتصدع ، بسبب السلوك الذى نحا اليه الابن الثانى لرب الأسرة ، وهوالذى كان جالسا فيهذه اللحظة بين الحاضرين، وقد غرق في كآبة وسكون .. وكان من الواضح أن موضوع الخلاف جوهرى جدا ، وأن الأدب وحده هو الذى منع العائلة حتى الآن من الخوض فيه أمام الغرباء .. الا أن الشيخ لم يستطع أن يمسك طويلا عن البوح به فانفجر ــ آخر الأمر ــ والدمع في عينيه ، قائلا أنه طالما ظل على قيد الحياة ، فلن يسمح ابدا بوقوع الفرقة أو الانفصال بين افراد عائلته ، وأنه سيحفظ وحدة بيته الى آخر رمق فيه من أجل مجدالرب .. لأنه اذاسمح لأحد أبناء هذا البيت بالانفصال عن الأسرة ، فسيتبعثر كله وينفرط عقده .

وقال الجار مؤمنا على قوله : « نعم . هذا ماحدث لبيت ماتفيف .. فقد كان يوما ما بيتا عامرا ، ولكنه انقسم وتفرق .. وما من أحد من ابنائه اصاب شيئا الا بدده .

فانهار البيت من أساسه » . **فالتفت الشيخ الى ابنه قائلا له : « هذا ما أظنك تريده بنا ؟ »** .. ولم يحر الابن جوابا .
وسكت الجميع سكوتا تاما ، حتى ارتفع بعد قليل صوت بتروشكا ، وقد فرغ من اسراج الجواد ، وعاد يقول باسما : « هـذا يذكرنى بحكاية قرأتها فى كتاب بولسون ، عن أب أعطى ولده حزمة حطب ليكسرها مجتمعة فعجز .. حتى اذا فرقها وأعطاه واحدة منها ، كسرها كلها فرعا بعد آخر ، .. وهكذا الحال فى موضوعنا » ..

وسكت بتروشكا قليلا ، ثم نهض قائلا : « ولكننى على تمام الاستعداد للرحيل الآن ! » . فقال فاسيلى : « مادمت مستعدا ، فهيا بنا .. أما عن الانفصال الذى يشغل بالك أيها الجد الطيب فلا تدعه يقلقك كثيرا .. انك انت الذى اقمت هذا البيت ، واذن فينبغى أن تكون انت صاحب الأمر فيه .. فاذا وجدت الأمر يستلزم عرضه على القاضى ، فاعرضه عليه ، ولسوف يحكم لك بما يريحك ويرضيك ! » .
فهتف الشيخ فى حزن عظيم : « ولكن أن يتصرفوا هكذا؟!.. نعم ، لا حياة لنا معهم ... فانها لمن أعمال الشيطان كلها ! »

أما نيكيتا ، فكان قد أتم قدحه الخامس من الشاى ، وتطلع منتظرا قدحا سادسا ، الا أن الشاى كان قد نضب فى الابريق ، ولذلك فان ربة البيت لم تمد يدها اليه بما يريد .. فى حين كان فاسيلى قد ارتدى معطفه الفاخر المصنوع من الفراء .. واذ رأى نيكيتا أنه لابد — والأمر كذلك — من الرحيل ، وقف وأعاد ما تبقى من السكر فى الوعاء ، ومر بطرف ردائه على وجهه — الذى بدأ العرق يتفصد منه — وراح يرتدى سترته .. وزفر زفرة عميقة ، ثم تقدم بالشكر الى مضيفيه ، واستدار مغادرا الغرفة الدافئة المضيئة المملئة بالأنفاس ، الى البرد القارس

والظلام الدامس .. واجتاز عتبة الدار الى الفناء الفارق فى الدجنة ، حيث كان بتروشكا ينتظره ، وقد تلفع بدثار كثيف من فراء الشاة ، ووقف بجانب جواده يتغنى باسما بمقطوعة من أشعار بولسون ، يقول فى مطلعها :

« **العاصفة الجارفة تحجب وجه السماء ..**
« **والريح القاصفة تقذف بالثلج المنهمر ..**
« **وهى كوحش كاسر تصرخ حينا ..**
« **وكطفل ـ حينا آخر ـ تنشج وتنوح » ..**

وأومأ نيكيتا برأسه مستحسنا ، وهو يرفع الأعنة ، بينما اقبل الشيخ الى مدخل الدار ، ممسكا بيده مصباحا يحاول أن ينير به لفاسيلى طريقه الى العربة . الا ان ضوء المصباح راح يلهث متقطع الانفاس من فرط ما كان يناله من لطمات الريح .. فقد بدا واضحا أن العاصفة كانت ـ حتى فى داخل الفناء ـ اسوأ مما كانت فى أى وقت من الأوقات! .. وحينئذ قال فاسيلى فى نفسه : « لعلنا لن نصل أبدا .. وعلى أية حال : هناك عمل ينبغى لى أن افكر فيه .. فلابد من الذهاب » .. بينما كان الشيخ يقول فى نفسه أن من الأفضل للضيفين الا يذهبا . ولكنه كان قد بذل جهده ـ فعلا ـ ليثنيهما عن عزمهما ، ويقنعهما بالعدول عن مواصلة رحلتهما .. ومن ثم فلا فائدة من الالحاح .. أما بتروشكا ، فلم يكن يخطر بباله مطلقا اى خطر ، اذ كان يعرف الطريق وكل ارجاء المنطقة المجاورة تمام المعرفة ، كما أنه كان يألف الزوابع والأعاصير والثلوج .. واما نيكيتا ، فلم تكن لديه أية رغبة فى مواصلة الرحلة ، الا أنه كان قد اعتاد منذ زمن طويل الا يكون له الخيار فى شىء ، وأن يقنع بطاعة الآخرين وخدمتهم ..

- ٥ -

• تخطى فاسيلى عتبة الباب ، واتخـذ طريقه فى الظلام حتى بلغ العربة ، فولجها وهو يقبض على اعنة الجواد .

وانطلقوا من فناء الدار الى شـــارع القرية ، واجتازوا اطرافهـــا ، مندفعين فى ذات الطريق الـذى كان فاسيلى ونيكيتا قد سلكاه من قبل .. ومروا ــ بعد ذلك ــ بحدائق الكرم ، التى تنبعث من اعماقهـا همهمة غامضة وهسيس غريب .. وهنالك غاصوا ــ مرة اخرى ــ فى بحر من الجليد الذى كان ينهمر فوقهم ومن تحتهم .. وكانت الريح تهب فى عنف ، حتى لقد كانت تميل بالعربة على جنبها ، وتدفع بالجواد فينطلق فى خطوات اوسع من خطواته المعتادة .. وبينذاك ، كان بتروشكا يطلق صيحات الفروسية والحث على الاسراع والانطلاق ، وهو يقود فرسته القوية فى مقدمة الركب ، بينما يتبعها الجواد ويكاد ان يلتصق بها .

وبعد حوالى عشر دقائق من السير ، لوى بتروشكا عنان فرسته حائدا بها قليلا الى الخلف ، وهـو يصيح لمرافقيه ببعض كلمات .. الا انه لم يمكن لفاسيلى او نيكيتا ان يسمعا ما قال ، وان حدسا انه يريد ان يخبرهما بانهم وصلوا الى منحنى الطريق ، فقـد رأياه ينعطف هنـاك الى اليمين ..

واصبحت الريح ــ التى كانت تلطمهم من الجنب ــ تصفعهم فى وجوههم ، فى حين ان ثمة شيئا قاتما اصبح فى امكانهم ان يروه بين الثلوج عن يمينهم . وكان ذلك هو العلامة التى تدل على نقطة المنحنى ..

وصـــاح بتروشكا : « امضيا فى سلامة الله ! » .. فأجابه فاسيلى : « نشكرك .. نشكرك يا بتروشكا » .. وصاح

الفتى مرة أخرى : « ان العاصفة التى تجتاح سطح الأرض تحجب السماء » .

قال ذلك ثم اختفى .. ومضت بهما العربة فى طريقها .

ولكى لايبدد نيكيتا الدفء الذى اكتسبه من اقداح الشاى التى احتساها فى الدار ، دثر نفسه بردائه ولفه لفا محكما حول جسمه ، وحدب كتفيه حتى غطت لحيته القصيرة ما كان مكشوفا من مقدم رقبته ، وجلس فى صمت مطبق ، مصوبا عينيه الى الأمام عبر الطريق الملتف بالغيوم .. وكانت علامات الطريق لا تفتأ تلوح بين فينة وأخرى ، فكان امكان رؤيتها دليلا على أنهما ما زالا فى الاتجاه الصحيح .. فأرخى فاسيلى أعنة الجواد ، تاركا اياه يقود نفسه .. الا أن « براونى » — برغم الاستراحة الطويلة فى القرية — راح يمشى على كره منه .. حتى ان فاسيلى كان كثيرا ما يقسره قسرا ، على أن يواصل السير فى طريقه ، وهو يعد علامات الطريق قائلا : « ها هى ذى علامة عن يميننا .. وهذه ثانية .. وهذه ثالثة .. وها هى ذى الغابة فى مواجهتنا ! »

وهكذا راح يحدث نفسه ، وهو يتفرس فى شىء ما كان يبدو داكنا أمام عينيه .. **الا ان ما تراءى له على البعد غابة مترامية الأطراف ، ما لبث أن اتضح أنه مجرد دغل صغير .. فلما تجاوزاه بخمسين ياردة أخرى ، حدق فاسيلى منعما النظر ، فأخذه العجب ، وصدمته المفاجاة ، اذ لم تعد ثمة غابة ، ولا علامة من علامات الطريق يمكنه أن يراها ..** على أن فاسيلى ما لبث أن قال فى نفسه ، وهو منتعش الاحساس بما احتسى من الشاى والفودكا : « لابأس .. فلسوف نبلغ الغابة بعد قليل ! »

وراح يهز اعنة الجواد مرة أخرى ، والجواد الطيع لايجد

مندوحة عن أن يمتثل لمشيئة سيده ، فيمضى الى حيث ساقه متهاديا مرة ، ومنطلقا أخرى ، وهو يعلم كل العلم انه كان يسير فى الاتجاه الخاطىء .. وهكذا مضت عشر دقائق أخرى ، دون أن تبدو الغابة أمام الركب .. وأخيرا قال فاسيلى : « لقد ضللنا الطريق مرة أخرى ! »

***

ونزل نيكيتا من العربة فى صمت مطبق ، وثنى أطراف سترته التى كانت تلتصق بجسمه حينا ، وتتطاير فى الهواء حينا آخر .. وراح يتخبط ضاربا بقدميه فوق الثلوج .. وما لبث أن رجع آخر الأمر ، وتناول الأعنة من «فاسيلى» ، وقال فى لهجة حاسمة ، وهو يميل بالجواد الى ناحية اليمين: « يجب أن نتجه يمينا » .. فأجابه فاسيلى : « حسن جدا .. اذا لم يكن بد من أن نتجه يمينا ، فلنتجه يمينا ! » .. ثم شبك يديه المخدرتين — من البرد — فوق كمى سترته .

ولكن الجواد لم يتقدم خطوة واحدة ، برغم كل مابذله نيكيتا وهو يحثه ويجذب اعنته .. بينما كان الثلج يتراكم بغزارة ، والعربة تتحرك فى لجته وهى ترتج وتترنح مع كل دفعة من دفعات الجواد .. وما لبث نيكيتا أن اهوى بالسوط على ظهر الجواد الطيب ، الذى لم يكن قد تعود الضرب ، فقفز الى الأمام ، وراح يخب فى بحر الثلوج لحظة .. ثم عاد فتخاذل ، وراح يترنح فى سيره نحو خمس دقائق أخرى .. وكان الظلام قد اشتد ، والثلج ماض فى انهماره حتى لم يعد فى وسع الراكبين ان يريا رسن الجواد ، وكانت العربة بينذاك تتأرجح بهما ، ثم ما لبثت أن وقفت جامدة . وأجفل الجواد فجأة ، اذ اشتم رائحة شىء أمامه .. فألقى نيكيتا الأعنة ، وقفز فى خفة من العربة كى يقترب

من رأس الجـواد ويتبين ما دهاه . ولـكنه لم يكد يخطو خطـوة واحـدة ، حتى انزلقت قدمه وانكفا فى هوة فتحت فاهها أمامه ، وراح يتدحرج فى منحدرها وهو يصرخ ويحاول عبثـا أن يتوقف فى اندفاعه ، حتى غاصت قدماه فى لجـة ثلجية عميقة عند القـاع .. وانهـارت فوق رأسه أكوام الصقيع المتراكمة على جنبات الهوة ، والتى حاول التشبث بها أثناء سقوطه ، وقد غطاه ركامها حتى قفاه .

وراح نيكيتا يحاول دفع الثلج عن ياقة سترته وهو يقول متأففا : « ما هـذا ؟ ما هـذا ؟ » .. بينما انطلق فاسيلى يناديه : « نيكيتا .. نيكيتـــا ! » .. الا أن هـذا لم يحر جوابا اذ كان واضعا كل همه فى أن يخلص نفسه من ركام الثلج المنهـار عليه ، وهـو يبحث - فى ذات الوقت - عن السوط الذى سقط منه وهو يتدحرج فى المنحدر . فلما وجده آخر الأمر ، بدأ يحاول أن يتسلق جدار الهوة ، ولكنه تبين - بعـد الجهد - أن الأمر مستحيلا ، وانه كلمـا كرر محاولته ، كان ينحدر الى أعمق مما كان . وأخيرا اضطر أن يبحث - فى القـاع السحيق - عن منفذ يخرج منه .. وبعد طول العناء ، وجد على بعـد بضع ياردات من البقعة التى سقط فيها ، مكانا استطاع أن يتسلق عنده زاحفا على أطرافه الأربعة ، نحـو الاتجاه الذى قدر أن يكون الجـواد واقفا فيه .. ومع أنه لم يكن يرى شيئا ، فقد استطاع أن يسمع صيحات فاسيلى ، وصهيل « براونى » الذى راح يحتفى بعودته .. فأجابهما صائحا : « ها انذا مقبـل !.. ها انذا مقبل !.. لماذا تثيران الضجيج من أجل ذلك ؟ »

وراح يقترب منهما ... الا أنه لم يتمكن من رؤية الجواد، الا بعد أن صار ملاصقا له . وكان فاسيلى واقفا بجانبه فى الظلام وقد تجمد من البرد ، فبادره قائلا فى غضب : « كيف

بحق الشيطان تسعى هكذا الى حتفك ؟.. هيا بنا نعود ، أو — على الأقل — نحاول أن نرجع الى جريشكينو » .
فأجاب نيكيتا قائلا : « لسوف أكون سعيدا جدا بهذا ، ولكن فى أى طريق نذهب ؟.. لو اننا سقطنا فى هذا الخندق — الذى سقطت فيه — فلن نخرج منه الى الأبد ... وقد تحققت بنفسى من ذلك الآن ! » .. فقال فاسيلى : « ولكنا لانستطيع ان نبقى هنا .. ويجب أن نذهب الى أى مكان ! »
ولم يقل نيكيتا شيئا ، وانما جلس على حافة العربة وخلع حذاءيه ، ونفض الثلج الذى انحشر فيهما وتراكم عليهما .. وبينذاك ، سكت فاسيلى ، وقد اعتزم أن يترك الأمر كله لنيكيتا . فلما انتهى هذا من لبس حذاءيه مرة أخرى ، دس قدميه فى العربة ، وارتدى قفازيه ، وأمسك عنان الجواد ، وأدار عنقه فى محاذاة الخندق فى حذر ..
على أن الجواد أجفل — مرة أخرى — ولما يقطع اكثر من مائة ياردة ؛ اذ اعترضهم خندق آخر .. ونزل نيكيتا من العربة ثانية ، وراح يتحسس بين الثلوج . وغاب بعض الوقت ، ثم لاح — أخيرا — فى الاتجاه المضاد للعربة ، وصاح قائلا : « هل أنت هناك يا أندريتش ؟.. لا طريق فى هذه الناحية .. والظلام حالك .. وثمة خنادق كثيرة تحيط بنا .. فعلينا أن نحاول العودة ضد اتجاه الريح » .
الا أنهما ما سارا فى هذا الاتجاه بعض الوقت ، حتى توقفا مرة أخرى .. ونزل نيكيتا يتحسس الطريق فوق الثلوج . ثم عاد فركب العربة .. وعاود الى النزول منها .. وهكذا حتى تقطعت انفاسه — فى النهاية — من فرط العناء . فسأله فاسيلى قائلا : « ماذا حدث ؟ » . فأجاب : « لاشىء الا أن التعب أنهكنى .. كما انهك الجواد » .
فقال فاسيلى : « وما العمل اذن ؟ »

وذهب ، وعاد ــ بعد لحظة ــ وصاح قائلا ، وهو يسير أمام الجواد : « اتبعني ! » .. فتبعه فاسيلي ، الذى كان قد كف عن اصدار الأوامر ، وراح يذعن لتوجيهات نيكيتا في تواضع تام .. وصاح هذا مرة أخرى قائلا : « في هــذا الاتجاه .. سر خلفي ! » . ثم استدار استدارة تامة نحو اليمين ، ممسكا « براوني » من رأسه ؛ وجاذبا اياه نحــو كومة الثلج .. واجفل الجواد ــ في اول الأمر ــ ثم اندفع الى الأمام محاولا القفز فوق الكومة .. الا أنه اذ اخفق في محاولته ، غاص في الثلج حتى طوقه .. فصـــاح نيكيتا لفاسيلي أن يساعده ، وراح يبذل كل قوته في معاونة الجواد على سحب العربة من كومة الثلج .

***

وبذل الجواد مجهودا باسلا ، ولكنه فشل ــ آخر الأمر ــ في تخليص نفسه .. ومن ثم توقف متخاذلا ، معبرا عن حنقه واستيائه من الموقف كله . ولــكن نيكيتا راح يدفعــه من ناحيــة ، وفاسيلي يدفعه من الناحيــة الأخرى .. وظل الجواد يهز رأسه لحظة ، ثم ما لبث أن نهض فجأة ، واندفع الى الأمام في محاولة أخرى .. وحينئذ صاح نيكيتا مشجعا اياه ، قائلا له : « مرحي !.. ها أنت ذا لاتريد أن تدفن هذه المرة . هيا !.. ابذل جهدك ! » .. ودفع الجــواد نفسه مرة ثانية ، ثم ثالثة .. حتى ازال كومة الثلج من حوله .. ثم وقف بعــد ذلك ينفض نفسه ، ويهز جسمه كله وهــو يتنفس تنفسا عنيفا .. بينما راح نيكيتا يدفع العربة قليلا الى الأمام . اما فاسيلي فقد كان التعب قد أخذ منه تحت عبء رداءيه الثقيلين ، فما كان منه الا أنه توقف عن أى عمل ، وجلس في العربة مرة اخــرى ، وهو يغمغم قائلا :

« **فلأسترح قليلا !** » . وراح بينذاك يفك عقدة المنديل الذي الذي كان قد ربطه حول عنقه قبل أن يغادر العربة . فأجابه نيكيتا : « استرح .. فليست بناحاجة للاستعجال .. ولسوف أقود أنا الجواد ! » .

وتقدم بالعربة نحو عشر ياردات ، عبر منحدر اعترضها ، ثم ارتفع بها في مستوى الطريق مرة أخرى .. وهناك مالبث أن توقف .. ولم يكن توقفه — هذه المرة — في الخندق ذاته ، حيث كان الثلج يتجمع منحدرا من الربى ويتراكم حتى ليوشك أن يغمرهما الى رأسيهما ويدفنهما في لجته .. على أن توقفه جاء — مصادفة — في الجانب المحمي من الريح من الخندق ، فبدا أن شدة الريح قد خفت بعض الشيء .. الا ان ذلك لم يستمر طويلا ، فما لبثت العاصفة أن انطلقت من عقالها وازداد عنفها عشرة أضعاف ، وراح الاعصار يدمدم ويحوم حولهما ، مرسلا زئيرا أرهب واشد هولا من اي وقت مضى .. وقد لطمت احدى هبات الريح المجنونة جانب العربة ، بينما كان فاسيلي يغادرها ليقترب من نيكيتا ويتشاور معه فيما يفعلانه بعد ذلك .. وحينئذ بسط براوني أذنيه في يأس وهز رأسه في اعياء واستياء . فلما انكسرت حدة العاصفة بعض الشيء بادر نيكيتا فخلع قفازيه ، ثم فرك يديه وراح يفك عنان الجواد من السرج ..

وسأله فاسيلي : « لماذا تفعل ذلك ؟ » .. فأجاب قائلا : « لأنه ليس ثمة شيء آخر يمكننا عمله .. انني متعب جدا الآن » . فقال فاسيلي : « السنا مزمعين اذن أن نحاول التقدم أي مسافة أخرى ؟ » . وأجابه : « كلا . لأننا لم نفعل سوى اننا أرهقنا الجواد في غير طائل .. **ان براوني على استعداد لمواصلة الرحيل ، ولكنه لم يعد يستطيع أن**

يقف على قدميه .. فليس من حل آخر الا ان نقضى الليل هنا ! »

قال ذلك ، وكأنما كان يقترح أن يبيتا ليلتهما هـذه فى فندق ، ثم راح يحـل حزام الجواد .. فصـاح فاسيلى قائلا : « ولكننا سنموت من الصقيع هنا » .. فقال نيكيتا : « حسنا !.. وماذا لو حدث ذلك ؟.. اننا لن نستطيع ان نتفادى حدوثه ! »

- ٦ -

• **كان** فاسيلى فى غاية الدفء ، فى ثوبيه الثقيلين ، لاسيما بعد ما بذله من المجهود فى دفع الجواد لاخراجه من كومة الثلج التى كان قد غاص فيها .. ومع ذلك ، فقـد أحس بأنفاس الصقيع تلسع ظهره ، حين أدرك أن عليهما أن يقضيا الليل فى ذلك المكان . ولكى يهدىء من روعه ، جلس فى العربة ، وأخرج ثقابه وعلبة سجائره ، بينمـا فك نيكيتا أعنة الجواد ، ورفع سرجه ، وهو يحـدثه فى مرح قائلا له : « دعنى أخرجك من أحزمتك واربطتك ها هنـا .. ولسوف أعطيك بعض التبن لتنعم بوجبتك ! » .. ولكن براونى لم يبد شـعورا بكثير من الارتياح مما فعله نيكيتا ، بل ظل متبرما ، وقد وقف وذيله يتطاير فى اتجاه الريح ، وراح — فى كل لحظة — يبدل أقدامه ، ويلقى بثقل جسمه على العربة ، ثم يحك رأسه فى كم نيكيتـا .. وكأنما لم يكن يبغى أن يبدو فظا فى التعبير عن شعوره نحو ما أبداه نيكيتا من عطف عليه ، فدس أنفه فى حفنة التبن التى ألقاها أمامه .. الا أنه ما لبث أن عاد الى ابداء تبرمه ، وأشاح بوجهه عن الغذاء ، وتركه للريح تحمله فى ومضـة ، وتعصف به فى دوامتها .

وعندئذ قال نيكيتا : « ماذا لو رفعنا اشارة استغاثة ! » ..

ثم أدار العربة قليلا فى اتجـاه الريح ، وربط عريشها بحزام الجواد ، ورفعه الى أعلا ، مسندا اياه الى اللوحة الامامية للعربة .. ثم استطرد قائلا : « الآن » اذا مر اى انسان فى هذا الطريق ، فسوف يعرف مكاننـا اذ يرى العريش ، فيأتى وينبش عنا ، ويخرجنا .. لقد تعلمت هـذه الحيـلة من العجائز ! » .. ثم ضرب أحد قفازيه بالآخر ولبسهما .

وفى ذات الوقت ، فك فاسيلى ازرار ثوبه الفرو ، وجعـل من أطرافه ستارا فى وجه الريح ، وراح — وراء هذا الستار — يحاول اشعال عود فى اثر عود من الثقاب ليشعل سيجارته ، الا أن يديه كانتا ترتعدان ارتعادا شديدا من البرد .. وبعـد عناء شديد ، اشتعل آخر الأمر عود منها ، وظل مشتعلا لحظة وجيزة ، بدا فى أثنائها على ضوئه رداؤه المصنوع من الفرو ، ويده يتلألأ فى سبابتها الخاتم الذهبى ، والقش المغطى بالثلج يبرز من تحت الفرارة .. **وقد افلح هـذه المرة فى اشعـال السيجارة واخذ منهـا نفسين فى نهم ، وابتلع الدخان ، ثم نفخه مرة اخرى خلال شعرات شاربه .. وكان على وشك أن يأخذ نفسا ثالثا ، حين اطـاحت الريح بالطرف المشتعل من السيجارة والقت به فى القش !**

على أن هذا القـدر اليسير من الدخان ، ترك فيه اثرا منعشا . فقال فى بسالة : « اذا كان يتحتم علينـا أن نقضى الليل هنا ، فلا بأس ، فلنفعل ذلك . هذا كل ما فى الامر » .. ثم وجه كلامه إلى نيكيتا قائلا : « انتظر قليـلا .. فلسوف أرفع راية ! » . والتقط المنديل الذى كان قد حله من حول رقبته ، وخلع قفازيه ، ثم ارتقى اللوحة الاماميـة للعربة ، وبسط نفسه على أطراف اصابع قدميه ليدرك حزام الجواد المربوط فى العريش ، وعقد طرفى المنديل عند نهايتيه .. وفى

الحال بدا المنديل يخفق بشدة ويصفق فى مهب الريح .

ونزل فاسيلى وهو يتيه زهوا بما فعله ، ويختـال قائلا : « أليس هذا ذكاء منى ؟ » .. ثم التفت الى نيكيتا قائلا له : « والآن ، لو أمكننا أن ننام معا ، فلسوف يكون ذلك أفضل طريقة لاكتساب الدفء .. ولكننى أخشى ألا يكون ثمة مكان لنا معا ! » .. فأجابه نيكيتـا : « لا بأس فى ذلك ، فسأجد مكانا لنفسى .. الا اننى يجب أن أغطى الجـواد أولا ، لأنه يتصبب عرقا وقد أخذ منه الجهد .. انتظر قليـلا ! » .. وولج العربة ، فجـذب الفرارة من تحت فاسيلى وطواها ، ثم أزاح السرج عن ظهر الجواد ، وغطاه بالفرارة ، وهو يقول له : « سوف تكون بذلك أكثر دفئا أيها الغر الصغير » .. ثم اتجه الى فاسيلى قائلا له : « سآخذ المئزر اذا كنت لا تحتاج اليه الليلة ... وهات بعض القش كذلك ! »

واذ أخذ ما أراد ، ذهب خلف العربة ، وحفر حفرة غطاها بالقش ، ثم جذب قلنسوته فوق عينيه ، ولف سـترته لفا محكمـا حول جسمه ، ثم تلفع بالمئزر فوق كل ملابسه ، واستلقى مقرفص القدمين فوق القش ، واسـند ظهره الى مؤخر العربة محتميا به من الريح والثلج .

وهز فاسيلى رأسه فى استياء من تصرفات نيكيتا ، ثم راح يعد عدته لقضاء الليل . فعمد ــ أول كل شىء ــ الى تسوية ما تبقى من القش فى العربة ، جاعلا اياه أكثر كثافـة وسمكا حيث كان يزمع أن يريح فخـذه .. ثم نزع قفـازيه ، ونام جاعلا رأسه فى أحد أركان العربة ، قرب اللوحة الأمامية لها حتى تحميه من الريح .

***

الا انه مع ذلك لم يشعر بالنعاس ، ولم يأنس من نفسه أية

قابلية للنوم .. فانطلق يفكر .. اتجه تفكيره ــ أول ما اتجه ــ إلى الشىء الوحيد الذى يستحوذ على كل طموحه وفخره ، ومثله الاعلى ، وغرضه الاوحد وسعادته فى الحياة .. وهو جمع المال !.. فراح يستعرض الوسائل التى أمكن لبعض من يعرفهم من الاغنياء أن يجمعوا بها أموالهم ، والاغراض التى كانوا يستغلون فيها هذه الاموال .. ثم انتقل الى التفكير فى الاساليب التى يمكنه هو أن يحذو فيها حذوهم ، فيجمع قدرا من المال فوق ما جمع .. وبدا له أن شراء غابة جيوفيا ــ تشكنسكى) يعتبر أمرا ذا أهمية عظمى ، اذ داعبه الامل فى أن صفقة كهذه قد تدر عليه عشرة آلاف روبل .. وقد راح يحصى ــ بعملية حسابية أجراها داخل عقله ــ قيمة الاخشاب التى رآها فى الخريف .. وعلى أساس الخمسة أفدنة التى كان قد عاينها ، راح يحسب قيمة المساحة كلها .. واستطاع ــ بعد طول الحساب ــ أن يقدر قيمة الغابة كلها بحوالى اثنى عشر ألفا من الروبلات .. الا انه عجز عن أن يصل بالذاكرة وحدها الى رقم دقيق .. فاسترسل يقول لنفسه : « لا بأس .. فاننى لن أقدرها بأكثر من عشرة آلاف ــ بل ثمانية الاف ــ وهذا على أى حال سيكون محلا للمساومة بالنسبة لمثل هذه المساحات غير المحدودة .. ولسوف أدس فى يد المساح مائة روبل ، أو ربما مائة وخمسين .. وفى مقابل هذا يبخس المقياس عشرة أفدنة على الاقل . نعم . ان المالك سوف يكون سعيدا بان يبيع الغابة بثمانية آلاف روبل .. ومعى ثلاثة آلاف منها » .

وهنا تحسس حافظة نقوده داخل صدريته ، ثم عاد يقول فى نفسه : « ولكن أين مالك الغابة ؟ .. لا بد أن يكون لها مالك أو على الاقل حارس .. ولا بد أن يكون مقيما فى جهة ما

من هذه المنطقة .. ولا بد أن كلبه قد سمعنا .. تبا لهذه الحيوانات الملعونة ، التي لا تنبح حينما يراد منها أن تفعل ذلك ! » .. وأزاح ياقة سسترته عن اذنه وراح ينصت .. ولكنه لم يسمع سوى أزيز الريح ، وخفق المنديل فوق العريش ، ووقع الثلج وهو يصفع جوانب العربة .. فغطى أذنه مرة أخرى ، واسترسل في تفكيره ساخطا لما أصابهما .. ثم أجاب نفسه مواسيا : « ألسنا سنبقى هنا الى غد ؟.. لا بأس . معنى هذا أننا أضعنا يوما واحدا فحسب . وفضلا عن ذلك ، فان أولئك المنافسين لي في الصفقة لن يصلوا كذلك .. لن يأتوا في مثل هذا الجو العاصف ! »

وهنا تذكر فجأة أن الجزار سيسدد له في التاسع من الشهر مبلغا من المال هو ثمن الكباش التي سبق أن اشتراها منه .. فقال في نفسه : « يجب أن أعود لأقبض هذا المبلغ ، اذ لا ينبغي أن يغلبني في السعر ، في حين أن زوجتي لا تعرف كيف تساوم .. والحقيقة انها لا تعرف كيف تتكلم مع أي شخص ! » .. وتذكر ارتباكها وهي تحادث المأمور حين زارهم — في اليوم السابق — بمناسبة العيد ، فاسترسل في تفكيره قائلا : « انها امرأة .. هذا كل ما في الامر بالنسبة اليها . وفوق ذلك ، فماذا رأت هي قبل أن أتزوجها ؟.. لقد كان أبوها مزارعا بسيطا ، وكان كل ما يمتلكه قطعة ارض صغيرة .. اما انا ، فاي شيء لم أنله في خمسة عشر عاما ؟.. لقد اقتنيت حانوتا ، وفندقين ، ومطبخا ومخزن غلال ، ومزرعتين مستأجرتين ، ودارا ذات سقف من الصاج ، ومتجرا في ذات مبنى الدار » .. وانتفضت أوداجه تيها وزهوا ، وهو يقول لنفسه : « ان البون شاسع بيني وبين أبيها .. وفي الواقع ، من هو أهم رجل في الاقليم كله ؟.. انه فاسيلي بريخونوف ، من غير شك ! »

ثم تساءل قائلا : « لماذا ؟ » .. وأجاب نفسه قائلا : «لأننى احصر كل همى فى العمل ، وأبذل فيه كل مجهودى .. فلست من أولئك الذين ينامون فى فراشهم ، ويبـــددون الوقت فى العبث .. كلا ، فأنا لا أنام كل الليـــل .. واذا كان هنالك ضرورة للخـــروج ، فاننى برغم كل الظروف أخرج ، وأنجز عملى .. انهم يعتبروننى مجنــونا ويسخرون من انكبابى على جمع المال .. ولكن لا بأس » .. وأهاب بنفسه فى حماس : « فاسيلى ، استمر فى عملك بكل جهدك ، ولو ادى ذلك الى اصابة رأسك بالصداع .. ولو وجــدت من اللازم أن تقضى ليلتك فى العراء كما تقضى هذه الليلة ، فهذا أفضـــل من أن تضيع الوقت .. ولا يهم حتى اذا كنت تعجز عن النوم ! »

وهنا قال فى زهو : « ان مجرد التفكير على هــذا النحو دليل على العبقرية فى ذاته » .. واستطرد قائلا : « ان بعض الناس يعتقدون أن الثروة تأتى للانسان بطريق الحظ .. هراء ، فليس ثمة الا ميرونوف واحد فى المليــون .. وانما عليك أن تعمل باجتهاد ، وسيعطيك الله الباقى بعد ذلك .. واذا لم يهبك الا الصحة والقوة ، فهذا حسبك ! »»

وأثار حماسه مجرد خطور هذه الفكرة فى باله ــ أنه قد يغدو يوما ما مليونيرا مثل ميرونوف ــ حتى انه ود لو أن ثمة شخصا يبادله الحديث فى هذه اللحظة .. بيــد انه لم يكن ثمة أحد .. وأثار انتباهه عنف هبوب الـــريح وهى تلطم اللوحة الامامية للعربة ، وتصفع جدارها بما تحمله من ركام الثلج ، فهتف قائلا : « ياللسماء ، ما أشد هبوبها !.. انهـــا لتجرف معها كتل الجليد بكمية رهيبة ، حتى ليوشـــك أن يغمرنا ويغطينا ، ولسوف نعجز عن أن نخـــرج أبدا من طوفانه عند الصباح ! »

***

ولم يكن بوسعه أن يرى شيئا — فى الدوامة المحملة بالثلج الابيض الكثيف — الا رأس « براونى » وذيله الاسودين ، والفرارة التى كانت تغطى ظهره .. وكانت الريح ترفع أطراف الفرارة الى أعلى — من آن لآخر — بينما تحوم الكتلة البيضاء حول العربة من كل جهاتها ، فكانت تبدو — فى لحظة خاطفة — ثم لا تلبث أن تختفى فى غمرة الظلام .

واسترسل فاسيلى فى التفكير قائلا لنفسه : « لقد كنت أحمق اذ استمعت الى نيكيتا .. كان ينبغى علينا ان نواصل السير مرة اخرى ، حتى نتمكن من قضاء ليلتنا فى مكان ما .. كان يجب أن نعود الى (جريشكينو) مرة أخرى ، وان نستقر فى مكان مسقوف .. ومع ذلك ، فهانحن هنا ، وعلينا ان نظل ملتصقين بهذا المكان حتى الصباح ؟.. ما الخير فى هذا ؟ ان الله يعطى المجتهدين ، ولكنه لا يعطى العابثين ولا الكسالى المقعدين ، ولا الحمقى .. والآن ، لأدخن ثانية ! »

وجلس ، وأخرج سيجارة ، واستدار ليحمى شعلة عود الثقاب من الريح بطرف ثوبه .. ومع ذلك ، فقد وجدت الريح منفذا وراحت تطفىء أعواد الثقاب تباعا . وأخيرا ، بذل كل جهده كى يبقى واحدا منها مشتعلا ، وقد أفلح فى أن يشعل منه سيجارته ، ففرح بذلك جدا ، وواصل التدخين .. ومع أن الريح استنفدت قدرا كبيرا من الدخان ، فقد اجتهد فى أن يفوز بثلاثة أنفاس ، ابتهج بها كل الابتهاج ، فاتخذ وضعا مريحا فى جلسته ، وحبك ثيابه حول جسمه ، وانطلق مرة أخرى يفكر ويستعرض الأمور ، حتى شعر فجأة — ودون تمهيد أو انذار — بأنه فقد وعيه ، وراح فى غيبوبة تامة .

وبعد برهة ، أحس كأن شيئا صدمه فجأة ، فتنبه وأفاق

من غيبوبته .. لعله ((براونى)) يجذب القش من تحته .. أو قد يكون ذلك أمرا ما ، حـــدث فى داخله .. المهم أنه استيقظ ، وكان قلبـــه يخفق خفقانا عنيفا ، وفى سرعة هائلة ، حتى أنه أحس ان العربة ذاتها تهتز من تحتـــه . ففتح عينيه .. وبدا له المنظر حواليه كما كان من قبـــل ، فيما عدا أنه بان أكثر وضوحا ، وأوفر ضـــوءا ، فقال فى نفســـه : « لابد أنه الفجر .. وبعد قليل ســـوف ينبلج الصباح » .. ولكنه فطن الى أن ازدياد الضوء قد لا يعنى الا طلوع القمر ، فنهض مرة أخرى ، ونظر الى الجواد .. وكان فى هذه اللحظة واقفاومؤخره فى مهب الريح ، وجسمه كله ينتفض من البرد ، وقد تراكم الثلج على ظهره ، وأفلت حزام ذيله متدليا نحو خاصرته .. أما نيكيتا فكان لا يزال نائما فى ذات الوضع الذى كان قد غطى به راسه .. وقال فاسيلى فى نفسه ، وهو يطل عليه من العربة : « ان الفلاح لا يؤثر فيه الثلج أبدا ، بالرغم من رثاثة ملابسه ! »

وفكر لحظة فى أن ينزع الفرارة عن ظهر الجواد ، ويغطى بها نيكيتا . الا أن الجو كان قارس البرد ، حتى لقد أحس بأنه عاجز عن أن يفعل ذلك ، فضلا عن أنه خشى أن يموت الجواد من البرد لو نزع عنه غطاءه .. وحينئذ قال فى نفسه حانقا : « لماذا بالله أخذت نيكيتا معى ؟ لقـــد كان ذلك من جراء حماقتها .. » وكان يعنى بذلك زوجته . ثم عاد الى وضعه الاول محتميا باللوحة الامامية للعربة .. واسترسل فى تفكيره قائلا لنفسه : ((لقد قضى عمى ليلة كهـــذه تحت وابل الثلج ، ومع ذلك لم يصبه أى سوء !)) .. الا انه مالبث أن خطر بباله خاطر آخر فغمغم قائلا : ((وكذلك سيباستيان ، اخرجوه من الثلج ، ولكنه كان قد مات ، اذ تجمـــد حتى غدا كالجيفة من فرط البرد !)) .. وهنا ندت عنـــه آهة مكبوتة

وقال في ندم موجع : « ماذا لو كنا بقينا في جريشكينو ! »
ثم احكم لف ردائه حول جسمه ، بحيث لم يدع مجالا لأقل قدر من الدفء يذهب هباء .. واغمض عينيه محاولا ان يستغرق في النوم مرة اخرى .. الا انه ـ بالرغم مما بذل من مجهود في هذا السبيل ـ اخفق في اجتلاب النعاس الى عينيه .. والحت عليه اليقظة اكثر من ذي قبل ، فراح ـ مرة اخرى ـ يجري في ذهنه احصاءات وحسابات ، متعلقة بالعمل ، ويحصر ديونه التي لم يسددها بعد . ومرة اخرى راح يثني على نفسه ، ويزجي الى نفسه التهنئة على ما نال من مكانة ملحوظة بين الناس .. ومع ذلك ، فقد كان هذا التفكير ذاته مشوبا بنوع من الخوف الدفين والاسف البالغ على انه لم يقض الليلة في (جريشكينو) ..
وراح ينقلب من جنب الى جنب ، عساه يستشعر الراحة في نومته ، أو يجد وضعا أفضل من سواه وأقل تعرضا لهبوب الريح ، الا انه عبثا كان يحاول .. وأخيرا نهض مرة أخرى ، وغير الوضع كله ، وأحكم لف قدميه ، وأغمض عينيه ، وحاول أن ينام نوما مريحا ، ولكن قدميه ـ اللتين كانتا مضغوطتين في حذائيه الطويلين ـ بدأتا تؤلمانه ، في حين كانت الريح تتسرب الى بعض أنحاء جسمه ، فتؤذيه أذى بالغا . فما لبث أن قفزت الى ذهنه مرة أخرى ـ وقد تملكه الضيق والحنق ـ فكرة أنه كان من الممكن في هذه اللحظة أن يكون نائما في فراش دافيء في (جريشكينو) ..
فنهض وأعاد حبك ردائه حول جسمه ، ثم استلقى في وضع آخر بدا له أكثر ملاءمة .. وبعد لحظة خيل اليه أنه يسمع صوت ديكة تصيح من بعيد ، فأزاح ياقة سترته في اختلاجة فرح ، وراح يرهف أذنيه . وبالرغم من كل ما بذل من الجهد في الانصات لم يستطع أن يسمع الا أزيز الريح خلال

عريش العربة ، وصوت اصطفاق المنديل ، ووقع الثلج على جوانب العربة ..

أما نيكيتا ، فقد ظل مقرفص القدمين — فى ذات الوضع الذى نام عليه فى أول الليل — فلم تصدر عنه حركة واحدة ، بالرغم من أنه ناداه أكثر من مرة .. فانفعل فاسيلى فى حنق ، وقال فى نفسه : « يبدو أنه لا يشعر بأى تعب فى نومته » .

***

وموجز القول ، أن فاسيلى نهض ثم نام عشرين مرة على الاقل . وقد خيل اليه أن الليل لن ينتهى أبدا .. وفى احدى المرات قال فى نفسه : « لابد أننا اقتربنا من الصباح الآن !.. فلو أننى تأكدت من أننا نقترب من الصباح ، لكان هذا أدعى لأن تبدو الامور أفضل ، ولسوف نستعد عندئذ لأسراج الجواد كى نواصل رحلتنا » .. ولكنه — فى أعماق نفسه — كان يدرك انه لا يمكن أن يكون الصباح قد اقترب بعد .. وكان هلعه يزداد عنفا ، وأعصابه تشتد اضطرابا ، حتى لقد راح يخادع نفسه ويصدق أن الفجر على وشك الطلوع .. وأخيرا انتهى به الامر الى أن فك أزرار ثوبه الفرو فى حذر ، ودس يده فى داخله ، وراح يتحسس بأصابعه حتى وصلت الى جيب صدرته . وبكثير من الجهد أمكنه أن يخرج ساعته الفضية المنقوش عليها باقة زهور .. ثم حاول أن ينظر فيها ، ولكنه عجز عن أن يرى أى شىء بغير أن يستعين بقبس من النور ، فاستلقى مرة أخرى على مرفقيه كما فعل حين أراد التدخين ، ثم أخرج علبة الثقاب وراح يحاول أشعال عود منها .. واذ كان قد تدرب فى المرات السالفة على هذا الامر ، فقد أشعل الثقاب قريبا من ميناء الساعة .

وعلي ضوئه نظر فيها ، وكاد آلا يصدق عينيه !.. لقد كانت الساعة الواحدة وعشر دقائق ! واذن فقد كان الليل بطوله أمامه !

وشعر كأن الصقيع قد تسرب الى ظهره ، فقال وهو يئن من فرط الألم : « آه ، من ذلك الليل الطويل الذى لا آخر له ! » . ثم انزوى فى ركن العربة وهو يزرر رداءه ويعيد حبكه حول جسمه ، وراح ينتظر بكل ما لديه من صبر وجلد .

وفجأة ، خلال عويل الريح التى كانت تولول وتنوح فى نغمة رتيبة ، سمع صوتا جديدا يصدر عن كائن حى ، وقد راح يعلو ثم يعلو حتى بلغ حده الاقصى ؛ ثم بدأ يخفت شيئا فشيئا حتى انقطع واختفى .. **ولم يكن ثمة شك فى حقيقة هذا الكائن الذى يصدر عنه الصوت .. كان ذئبا ، ولابد انه كان قد ابتعد جدا حتى تلاشى صوت عوائه بين طيات الريح** .. وأزاح فاسيلى ياقة سترته عن اذنه وراح يرهف السمع .. وكان « براونى » — فى ذات الوقت — يفعل مثله ، وقد نصب أذنيه الى آخر مداهما ، فلما انقطع العواء ، بدل أقدامه ، ونخر فى توجس وقلق .. أما فاسيلى فقد وجد أن النوم أصبح بعد هذا أكثر استحالة من أى وقت مضى ، وعبثا حاول أن يهدىء أعصابه لحظة واحدة .. وكلما حاول أن يعود الى التفكير فى أعماله وحساباته وشهرته وعبقريته وماله وثروته ، ازدادت سيطرة الرعب عليه .. وبدأ يحس بالرعدة تسرى فى بدنه ، وان لم يعلم — على وجه التحقيق — أكان ذلك من البرد ، أم من شدة الخوف .. وقد حاول ان يغطى نفسه وينام كما كان من قبل ، ولكنه وجد ذلك مستحيلا . ولم يستطع ان يبقى ساكنا ولو لحظة واحدة ، وانما شعر على العكس بأنه يجب

أن ينهض وان يفعل اى شىء كى يبـــدد الرعب الذى كان مسيطرا عليه ، وكان يشعر بأنه لم تعد له قوة أزاءه ، وقد انهارت تحت وطأته مقاومته ، فأخرج علبة سجائره وعلبة ثقابه مرة اخرى ، الا انه لم يكن قد بقى من أعواد الثقاب الا ثلاثة ، وكان الثلاثة من نـوع ردىء .. ومن ثم فأنها لم تشتعل .. فانفجر يسب ويلعن ، وهو يلقى علبـة الثقاب بعيدا ، واوشكت علبة السجاير أن تلحق بها ، لولا انه كبح يده ، وأدخل العلبـــة فى جيبه . **ودفعت به نوبة الضجر والتململ هذه الى أن ينهض من مكانه وينسل من العربة ، ثم يقف معطيا ظهره للريح ، وهو يشد حزامه حول خصره .. ثم بدا كأنما طرأت على ذهنه فكرة جديدة مفاجئـــة ، فهتف قائلا : « لماذا بالله ننام هاهنا منتظرين الموت حتى يأتى الينا ؟.. لماذا لا أركب الجواد وانطلق به ؟ »**

وخطر نيكيتا بباله ، فأجفل قليلا ، ثم عاد يقول : « وماذا لو مات ؟.. ماذا يمكن أن تكون قيمة حياته بالنسبة اليه ؟.. انه لن يخسر كثيرا لو انه فقدها .. أما أنا فأن امامى الشىء الكثير الذى أكسبه لو اننى احتفظت بحياتى » .

وعلى ذلك حل رباط الجواد وألقى الرسن فوق رقبته ، وحاول أن يمتطيه . الا أن رداءه الفرو وحذاءيه اثقلتـــه فاعتلى العربة ، وحاول ان يمتطى الجواد من فوقها ، ولكن العربة ظلت تتأرجح تحت ثقله ، ففشل مرة أخرى . وأخيرا ــ وللمرة الثالثة ــ جر الجواد ، وأوقفه بجانب العـربة ، واعتلى حافتها فى حذر ، ثم القى بنفسه على الجواد ، فاذا هو ممدد على ظهره بالعرض ، ووجهه الى اسفل ، فـراح يدير جسمه الى الامام حتى أصبحت ساقه فوق الجواد . وبعد عدة محاولات ، أمكنه أن يجلس على ظهـــره ، وقد استقر مقـــدم حذائيـــه فى ركاب السرج .. الا ان اهتزاز

العربة ـ حين تأرجحت تحت ثقل فاسيلى ـ أيقظ نيكيتا ، فنهض من رقدته . وبدا لفاسيلى أنه يقول شيئا ، فصاح فيه قائلا : « اسمع أيها الاحمق .. لقد كنت أنت السبب فى وقوعنا فى هذه الورطة ، بلا داع ولا سبب ! »

ثم طوى الاطراف المرتخيـــة من سترته تحت ركبتيه ، وأدار عنان الجواد وابتعـــد به عن العربة فى الاتجـاه الذى حدس أن يكون به مسكن مالك الغابة أو حارسها .

- ٧ -

• ولم يكن نيكيتا الى هذه اللحظة قد صدرت عنه حركة واحدة منذ استلقى مقرفصا قدميه خلف العربة وغطى نفسه بالمئزر .. فانه ـ ككل الذين يعيشون على صـــلة مباشرة بالطبيعة ، ويألفون شظف العيش ـ كان صـبورا ، وكان فى امكانه أن يجلس الساعات ، بل الايام الطوال ، دون أن يصيبه الكلل ، أو يفقد زمام أعصابه .. **وقد سمع سيده ينـــاديه مرتين ، الا أنه لم يجبه ، لسبب واحد ، هو أنه لم يشعر بالميل الى الحركة ، ولم يجد داعيا لأن يكلف نفسه عناء رفع صوته !**

.. ومع أنه كان عند ابتداء رقاده مكتمل الدفء بفعــــل ما احتساه من أقداح الشاى ، وبفضل المجهود الذى بذله فى كفاح أكوام الثلج ، فانه كان يعلم تمام العلم أن هذا لن يستمر طويلا ، وانه سرعان ما سيفقد قواه ويغدو عاجزا عن تجديد طاقة الدفء لديه بالحركة والنشاط .. **اذ كان يشعر فى تلك اللحظة شـــعور الجواد الذى توقف عن السير ، وتملـــكه الاحساس بأنه أصبح عاجزا كل العجز عن المضى فى السير ولو خطوة أخرى ، بالرغم من السياط القاسية التى تنهال عليه .. مؤكدا بذلك لسيده أنه ما من عمل آخر يمكن أن ينتظر منه ، ما لم يأخذ راحته ويتناول طعامه ..**

وفوق ذلك ، كانت احدى قدمى نيكيتا قد تجمدت ، داخل حذائه البالى ، حتى أن اصبعها الاكبر فقد كل احساس .. وغدا جسده كله مثلجا ، وقد راح البرد يتسرب اليه ويزداد قسوة عليه .. حتى لقد بدأت تراوده حينئذ فكرة ملحة بأنه سيموت فى هذه الليلة . ومع ذلك ، فانه لم يشعر ازاء هذه الفكرة بأى انزعاج ، ولا داخله أى خوف : لأن حياته لم تكن راحة مستمرة أو عيدا متواصلا ، بل كانت ــ على العكس ــ حياة عبودية دائمة ، وكان قد بدأ يكل ويتعب منها .. ولأنه ــ فوق كل السادة الذين خدمهم فى حيــاته ، أمثال فاسيلى اندريتش ــ كان على الدوام يشعر بخضــــوعه السيد الاعظم الذى خلقه وارسله الى هذه الحياة ، وكان يعلم أنه ــ بعــــد الموت ــ سيبقى خادما لهذا السيد ، وأن هذا السيد سيكون رحيما به عطوفا عليه .. فانطلق يفكر قائلا فى نفسه : « هــل يساورنى الاسف اذ اترك هذه الحياة التى عرفتهــا واعتدت عليها ؟.. كلا ، فلا جدوى من الاسف .. وحتى لو كان من المحتم أن أذهب ، فلن أملك فرارا من هذا ، والافضل لى أن أعد نفسى للحياة الجديدة التى تنتظرنى ! »

واسترسل فى تفكيره ، مستعرضا خطاياه ؛ متذكرا عربدته فى ساعات سكره ، والمــــال الذى بدده على الخمر ، واهاناته لزوجته ، واغراقه فى الاقسام الكاذبة ، واهماله الذهاب الى الكنيســة ، وعدم مراعاته للايام المقدســـة .. وغمغم قائلا :

« لقد كانت تلك خطايا من غير شك .. وما كنت لأنكر هذا فى يوم من الايام .. ولكن أليس الله هو الذى خلقنى هكذا ؟.. ومع ذلك ، فمــا الذى سيحدث لى بسبب هــــذه الايام يا ترى ؟ »

وانتقل فجأة من التفكير فيمــــــا عساه يحدث له فى تلك الليلة ، الى التفكير ــ دون أية مناسبة أو تمهيــد ــ فى خليط

من الذكريات التى تزاحمت على رأسه فى غير رابط أو اتفاق .. فخطرت بباله ذكرى وصول « مارتا » ، ثم صورة العمال وهم يسكرون ، وقد رفض هو مشاطرتهم الشراب .. ثم انتقل به الفكر الى رحلة هذه الليلة ، والى كوخ « تاراس » ، والحديث الذى دار فيه عما يهدد العائلة من فرقة وانقسام .. ثم تمثل ولده الصغير ، و « براونى » الذى كان ينعم — ولا شك — بالدفء ، تحت الفرارة التى تغطى ظهره .. ثم سيده فاسيلى ، الذى كانت العربة تحدث صريرا تحته وهو يقفز ويستدير .. ثم راح يقول لنفسه : « لقد كان أمامى قدر كبير من الشاى لأشربه فى تلك الدار .. وكنت متعبا ، وما كنت راغبا فى أن أترك مثل تلك الحياة الطيبة ، لكى آتى وأموت فى هذه الحفرة .. ومع ذلك فقد أراد هو غير ذلك ! »

وقد طافت بمخيلته كل هذه الذكريات فى وقت واحد ، واختلطت فى رأسه ، ثم راح فى غفوة . وأيقظه فاسيلى منها ، حين هز العربة — وهو يحاول امتطاء الجواد — هزا عنيفا حتى لقد استدارت ، وصدمت نيكيتا فى ظهره باحدى عجلاتها وبذلك اضطرته كارها لأن يغير وضعه .. فمد قدميه بشىء من الصعوبة ، ونفض عنهما الثلج ، ثم نهض قليلا . وحينئذ شعر بألم شديد فى جسده .. واذ أدرك — لأول وهلة — ما اعتزم فاسيلى أن يفعله ، رجاه أن يترك له الفرارة التى تغطى ظهر الجواد ، فلن يعود هذا فى حاجة اليها ، فى حين أن فى امكانه هو أن ينتفع بها .. وراح يصيح ملحا على فاسيلى ليعطيه اياها ، الا أن هذا اختفى تحت وابل الثلج دون أن يكترث به !.. فلما وجد نيكيتا أنه أصبح وحيدا ، راح يفكر فيما يحسن به أن يفعله . وشعر بأنه لم تعد لديه القوة الكافية لأن يقوم باحثا عن منزل يقضى فيه ليلته ، فى حين أصبح مستحيلا عليه أن يستعيد المكان الذى كان راقدا فيه ،

اذ كان الثلج قد غطاه وأخفى معالمه .. وحتى لو انتقل الى داخل العربة ، فقد لا تتحسن الحال ، اذ لم يكن لديه الكفاية من الاغطية ، ولم تعد سترته ولا دثارة الفرو كافيين لتدفئته ..

واحس انه يعانى سكرات الموت ، فصاح هاتفا : « يا أبانا الحبيب .. يا أبانا الذى فى السموات ! » .. وشعر فى هذه اللحظة بأنه لم يكن وحيدا ، وانما كان الله معه ، يسمعه ولن يتخلى عنه ، فأحس بالراحة تتسرب الى نفسه ، وزحف الى داخل العربة والمئزر ما يزال مغطيا راسه ، واستلقى حيث كان سيده نائما .. الا انه لم يستشعر الدفء فى ذلك المكان ، فراح ـ فى مبدأ الامر ـ يرتجف ، ثم ما لبث ان بدأ يفقد وعيه . فاستسلم ، وقد سيطر عليه الاحساس بأنه يموت أو يستغرق فى النوم .. فأعد نفسه لكل من الحالتين !

- ٨ -

• كان فاسيلى يستعمل كعبى حذاءيه والطرف الفائض من الرسن ، ليحث الجواد على الاسراع فى الاتجاه الذى حدس ـ لسبب أو لآخر ـ ان تكون الغابة وحارسها فيه . وراح الثلج يعمى عينيه ، والريح تهاجمه وكأنها تكافحه وتصده كى توقفه .. الا انه ظل يستحث الجواد ، وهو لا يفتأ ينحنى الى الامام ليطوى أطراف ثوبه ويثنيها ، فيما بين ركبتيه والسرج المجلل بالثلج .. وكان الجواد ـ بينذاك ـ يتحرك بمشقة ، ولكنه كان وديعا ، ذلولا بطبعه ، فمضى يبذل كل جهده فى التقدم نحو الاتجاه الذى يقوده اليه سيده .

وظل فاسيلى ـ فترة بدا له انها خمس دقائق ـ متجها الى الامام ، دون أن يكون فى مقدوره أن يبصر الا رأس الجواد وأذنيه ، وبحرا من الثلج الابيض .. ودون أن يسمع غير

صفير الريح وهى تمرق بين أذنى جواده وجـــول ياقة ثوبه الفرو .. وما لبث ان لاح شيء اسود أمام عينيه فجاة ، فبدأ قلبه يخفق بالامل ، واتجه نحوه ، وقد خيل اليه أنه أبصر ـ فعلا ـ فى معالمه جدران بيوت تتالف منها قرية .. **الا ان ما رآه لم يكن ثابتا أمام ناظره ، وأنما كان دائم الحركة والتأرجح من جانب لآخر .. وما لبث أن تغيرت هيـــاته ، فاذا به دغل مستطيل من ((الافسنتين)) ، الذى نبتت اعواده على حرف اخدود ، وبرزت فوق مستوى الثلج ، والــريح تلطمها بعنف فتميلها وتمرق مولولة بينها .**

فما تحقق فاسيلى من ذلك حتى تولته رجفة ، وانهال على الجواد يدفعه ويحثه على العدو ، دون أن يفطن الى انه قــد حاد عن اتجاهه السابق ، وسار فى طريق ينحرف عنـــــه ، وهو يظن أنه ما زال ماضيا فيما يتوهم أنه الاتجاه نحو كوخ حارس الغابة .. وعلى الرغم من ان الجواد ظل يحــاول أن يحيد الى اليمين ، فانه ما لبث ان اتجه ـ مرة اخرى ـ نحو اليسار . وللمرة الثانية ، لاح شيء قاتم أمام فاسيلى ، فملأ قلبه بالفرح ، اذ أحس ـ فى هذه المرة ـ احساســا محققا ، بأن ثمة قرية سوف يصل اليها اخيرا .. الا أنــه ما لبث ان اتضح له أن ذلك الشيء لم يكن ـ هو الآخـــر ـ الا حرف أخدود اكتست قمته بالافسنتين ، والريح ـ كما رأى فى المرة السالفة ـ تولول بين أعواده الجافة ، فامتلأ قلبه بالرعب . وكان هذا الدغل من الافسنتين يشـــبه الدغل الاول فى كل شيء ، الا شيئا واحدا .. هو انه كانت ثمة آثار خفيفة على الثلج ، لحوافر جواد بجوار الدغل الثانى .. واسرع فاسيلى فانحنى الى الامام ، وأمعن النظـــر فى تلك الآثار ، فتبين له انها آثار حوافر صغيرة الحجم ، وان رذاذ الثلج الذى يغطيها كان خفيفا جدا .. **وباختصار ، كانت آثار جواده ذاته !..**

واذن فقد اتم فى سيره دائرة كاملة !

وغمغم قائلا :«لقد هلكت !» . . ولكى لا يستسلم لفزعه ، راح ــ مرة أخرى ــ يدفع جــواده فى عنف ، حاثا اياه على الاسراع ، وهو ما يفتأ ــ بين لحظة وأخرى ــ يحدق بعينيه خلال عباب الثلج الابيض ، الذى كان يموج أمامه . وما لبث أن خيل اليه انه يبصر بقعا سوداء تلوح له ، حتى اذا أمعن النظر فيها ، اذا بها تتلاشى وتختفى .. ثم خيل اليه بعــد ذلك أنه سمع صوتا حسبه نباح كلب أو عواء ذئب ، الا ان الصوت كان شــــديد الخفوت حتى انه لم يستطع ان يتأكد مما اذا كان حقا قد سمع صوتا ، أو كان ذلك مجــرد وهم منه . فتوقف عن السير وأرهف سمعه .

وفجأة ، دوت فى أذنيه صرخة غريبة مفزعة ، وخيل اليه أن كل شىء يضطرب ويرتعد من تحتــه . فتشبث بناصية الجواد ، وان كان قد وجدها هى الاخرى ترتعد ، فى حين أن الصرخة راحت تزداد حدة ونفاذا .. ولبضــع لحظات لم يتسن لفاسيلى أن يكون فكرة عن حقيقة الامر .. كل ما حدث هو أن الجواد سيطرت عليه فكرة أن يرفع من حالته المعنوية ، أو أن يصيح فى طلب النجدة ، فصهل صهيلا مرتفعا بصوت الاجش . فما تبين فاسيلى ذلك ، حتى اســترد أنفاسه ، وقال لاهثا : « لقد أفزعنى الجواد ، عليه لعنـــة الله ! » . الا انه ــ برغم ادراكه حقيقة الامر الذى افزعه ــ لم يستطع أن يخلص نفسه مما سيطر عليه من الفزع ، فقال فى نفسه : « يجب أن أفكر بعض الوقت فى هدوء وان ادخل الطمأنينة الى نفسى » .. ولكنه ــ على الرغم مما بذل من الجهد ــ لم يصل الى أى نتيجة ، اذ فشل فى السيطرة على نفسه ، ولم يستطع أن يتوقف عن دفع الجواد دفعا عنيفا ، وحثه على الاسراع ، غير منتبه الى انه أصبح الآن يسير فى

اتجاه الريح ، بعد أن يسير فى الاتجاه المضاد لها .. وكان جسده يرتعد وينبض كله بالالم ، لا سيما نصفه الاسفل الملاصق للسرج ، حيث كان رداؤه غير محكم .. فى حين كانت يداه وقدماه ترتجف بعنف . وكانت أنفاسه تخرج فى لهاث ، وقد شعر الآن شعورا مؤكدا بانه هالك لا محالة فى خضم ذلك الطوفان المخيف من الثلج ، وانه ما من شيء ينقذه .

***

وفجأة صدرت عن الجواد أنة عالية ، اذ اصطدم فى كومة من الثلج ، ثم ما لبث ـ وهو يحاول أن يتخلص منها ـ أن غاص حتى خاصرته فى لجتها .. فقفز فاسيلى من فوقه ؛ وأزاح ـ وهو يفعل ذلك ـ حلقات الركاب التى كانت قدماه متشبثين بها ، والسرج الذى كان جالسا عليه ، فما استقر على الارض حتى بادر الجواد الى تصحيح الاتجاه لنفسه ، وغطس فى كومة الثلج غطسة ، ثم أخرى ، ثم اختفى وهو يصهل صهيلا مرتفعا ،وقد جر خلفه الفرارة وعدة السرج ، وترك فاسيلى واقفا تحت وابل الثلج .. فما رآه هذا يبتعد عنه ، حتى أسرع خلفه يحاول أن يمسك به ، الا أن الثلج كان شديد العمق ، فى حين كان ثوبه الفرو ثقيلا جدا . ومن ثم فقد راحت قدماه تغوصان حتى ركبتيه . فما تقدم عشرين خطوة ، حتى كانت أنفاسه قد تقطعت ، ولم يجد بدا من أن يتوقف عن السير ..

وحينئذ راح يفكر فى نفسه قائلا : « أخشابى ، وكباشى التى أعدها للجزار ، والارض التى أؤجرها ، والحانوت ؛ والفندق ، والدار ذات السطح الحديدى ، والمستودع .. هل أترك هذا كله ؟.. وولدى الصغير هل أتركه ؟.. هل

ينتهى بى الامر هكذا ؟ كلا ، كلا .. لا يمكن أن يكون هذا ! »
ولأمر ما ، تراءت أمامه — فى تلك اللحظة — صورة دغل « الأفسنتين » ، وهو يميل تحت وطأة الريح . ولاحت فى مخيلته صورته هو ذاته ، وهو يسير نحو ذلك الدغل مرتين .. وقد سيطر عليه خوف عظيم ؛ حتى لقد وجد مشقة عظيمة فى أن يصدق ما حدث . وراح يقول لنفسه : « لا بد أن يكون كل هذا حلم ! » .. واذ استقر فى ذهنه هذا الوهم ، حاول أن يفيق من حلمه المزعوم .. الا انه لم يقدر له أن يفيق .. فقد كان ثلج حقيقى ذلك الذى راح يصفع وجهه ، ويتراكم على كل جسده ، ويجعل يده — التى فقد قفازها — ترتعد .. وقد كان قفر حقيقى ذلك الذى ألفى نفسه فيه وحيدا ، والذى كان عليه أن ينتظر فيه موتا سريعا لا نجاة له منه .. فصرخ قائلا : « يا ملكة السماء !.. يا أبانا القديس نيكولا ، يامن علمتنا الصبر والاحتمال ! » .. ثم طافت بمخيلته صورة باهتة لصلاة الشكر التى اقيمت بالأمس ، ولأيقونة القديس بوجهه الأسمر وثوبه الذهبى ، وللشموع التى اشتراها وأوقدها أمام الأيقونة لحظة ، ثم استردها واحتفظ بها ..
وراح يتضرع الى القديس صانع العجائب ان ينقذه من مصيره الرهيب ، واعدا اياه فى مقابل ذلك بأن يرفع اليه صلاة شكر وأن يوقد أمام أيقونته عددا كبيرا من الشموع .. ومع ذلك فقد كان الشك يمزق قلبه ، موقنا أن هذا القديس بوجهه الأسمر ، وثوبه الذهبى ، والشموع المضاءة ، وصلوات الشكر المرفوعة ، والكاهن الذى يقف فى الهيكل ، برغم ما كان لهم فى الكنيسة من مقام عظيم ومكانة مرموقة ، الا أنهم لم يكونوا يملكون — فى هذا القفر — أن يصنعوا من أجله شيئا .. واحس — فى هذه اللحظة — بانه

لا ارتباط على الاطلاق بين الشموع وصلوات الشكر ، وبين ما هو فيه من محنة قاسية .. ومع ذلك فقد راح يغمغم قائلا فى نفسه : « كلا ، لا ينبغى أن أيأس أبدا .. وما على الا أن أتبع آثار الجواد قبل أن يغطيها الثلج ويمحو معالمها ، ولابد أنها ستقودنى الى مكان ما » .. ولم يسعه الا الاسراع بدرجة تقترب من الجرى ، وهو لا يفتأ يتبين آثار حوافر الجواد بين أكوام الثلج ، فعض — آخر الأمر — على شفته وهو يئن قائلا : « لقد ضعت ! »

وما كاد يتم قوله هذا ، حتى وقع بصره على شىء قاتم امامه .. وكان هذا الشىء هو « براونى » ! .. ولم يكن « براونى » وحده ، بل كذلك عريش العربة ، والمنديل كذلك .. فقد كان الجواد واقفا بجوار العربة ، وسرجه ما زال متدليا تحت خاصرته .. الا أنه كان — فى هذه المرة — فى وضع يختلف عن وضعه السابق ، اذ كان واقفا تحت العريش مباشرة ، ورأسه — الذى كان لا يفتأ يهزه بين لحظة وأخرى — مشدود نحو الأرض تحت وطأة الرسن الذى التف حول رسغه .. **وتبين فاسيلى أنه غاص فى ذات الخندق الذى كان يرقد فيه نيكيتا ، وأن الجواد كان يتجه به نحو موضع العربة ، وأنه — فى اللحظة التى قفز فيها من فوقه — كان على خمسين خطوة فقط منها !**

— ٩ —

• **تقدم** فاسيلى نحو العربة ، واستند اليها ، ثم وقف طويلا دون حراك ، وهو يحاول أن يدخل السكينة الى نفسه ، ويسترد أنفاسه . ولم يكن ثمة ما يمكن رؤيته من « نيكيتا » ، فى موضعه الأول الذى كان فيه . على أنه كان ثمة شىء ممدد فى داخل العربة ، يغمره الثلج . وقد حدس

فاسيلى أن هذا هو خادمه ، فزالت المخاوف عنه ، وان ظل الفزع كامنا فى قلبه من عودة المحنة المرعبة التى قاساها وهو على ظهر الجواد ، لاسيما حين ألفى نفسه وحيدا فى ذلك البلقع الذى تتلاطم فيه أمواج الثلج . **وفكر فى نفسه قائلا ان هذا الفزع لاينبغى أن يعود مهما يكلفه الأمر . ومن أجل ذلك ، كان عليه ان يشغل أفكاره بأى شىء ..** فنصب قامته معطيا ظهره للريح . وفك أزرار ثوبه الفرو ، حتى اذا هدأ وانتظمت أنفاسه بعض الشىء ، راح ينفض الثلج عن حذاءيه وعن قفاز يده اليسرى ، اذ كان قفاز اليمين قد ضاع .. وشد حزامه على خاصرته شدا وثيقا .. ثم راح — بعد ذلك — يحاول أن يشغل نفسه فى شىء ما . وكان أول ما خطر بباله ان يفعله ، هو أن يطلق قدم الجواد من الرسن العالق بها . حتى اذا انتهى من ذلك ، ربط الجواد فى حرف اللوحة الأمامية للعربة ، حيث كان مربوطا من قبل . واذ استدار ليسوى حزام الذيل ، ويضبط وضع الفرارة والسرج على ظهره ، أبصر شيئا ما يتحرك فى العربة ، ثم وقعت عينه على رأس نيكيتا تبرز من تحت الثلج الذى كان يغطيه . وكان يحاول — وقد تجمد من الصقيع — أن ينهض قليلا ، وقد أتى باشارة غريبة بيده ، ملوحا بها أمام وجهه كأنما يهش ذبابة .. واذ فعل ذلك بدا لفاسيلى أنه يقول شيئا .. وخيل اليه انه ينطق باسم « فاسيلى » ، فترك الفرارة غير معتدلة ، واقترب من العربة ، وسأله قائلا : « كيف حالك الآن ؟.. ماذا تحاول أن تقول ؟ » . **فأجاب نيكيتا بصعوبة وهو يلهث ، قائلا بكلمات متقطعة : « فقط اننى .. اننى أموت .. أعط أجرتى للصبى ، أو الزوجة .. سيان ! »** .. فسأله فاسيلى قائلا : « انت اذن تجمدت من البرد ؟ » . فأجابه نيكيتا بصوت مختنق : « نعم .. وانا

اموت .. أنا أعلم ذلك ! » . وصمت قليلا ، ثم استرسل قائلا وهو ما يزال يلوح بيده أمام وجهه كأنما يهش ذبابة : « سامحني من أجل المسيح ! »

وعندئذ وقف فاسيلي نحو نصف دقيقة دون أن يبدى حركة أو ينطق حرفا ، ثم تحفز فجأة ، وبنفس الأسلوب الحاسم ـ الذى اعتاد أن يتبعه حين كان يضع يده على صفقة مكسبة ـ خطا خطوة الى الخلف ، وثنى أكمام ردائه ، وراح يجرف الثلج بكلتى يديه من فوق نيكيتا ومن داخل العربة . حتى اذا انتهى من ذلك ، فك حزامه ، وفتح ثوبه الفرو . ثم سحب نيكيتا ـ جاعلا اياه فى وضع مستقيم ـ وتمدد فوقه بحيث غطاه تماما ، لا بثوبه فحسب ، وانما بذات جسده الدافىء الحار .. وقد حسر أطراف ردائه ـ بين جسد نيكيتا وجدار العربة ـ وشد ذيل سترته بين كاحليه ، وظل هكذا منبطحا ، ورأسه مسندا الى اللوحة الأمامية للعربة ، وأذناه مغلقتين لا تسمعان حركات الجواد ولا ولولة الريح ، اذ وضع كل انتباهه فى الانصات الى تنفس نيكيتا .. وقد ظل نيكيتا مدة طويلة ، لا تصدر عنه أى حركة ولا نامة . ثم ندت عنه أنة عميقة ، وتحرك حركة واهنة . فقال له فاسيلي : « ها أنت حى ، فكيف تتكلم ـ مع ذلك ـ عن الموت ؟.. ما عليك الا أن تنام فى هدوء ، وأن تدفأ شيئا فشيئا . ونحن .. »

الا أنه لدهشته العظمى ، وجد نفسه عاجزا عن أن يقول أكثر من ذلك ، وقد راحت الدموع تهطل من عينيه ، وفكه الأسفل يرتعد .. فتوقف لحظة ، وازدرد قطعة من الثلج انحشرت فى فمه ، وفكر فى نفسه قائلا : « لقد استضعفت واضطربت أعصابى بدرجة سخيفة ! » . الا أنه ـ مع ذلك ـ لم يستشعر فى هذا الضعف أى ألم ، بل ـ على

العكس ـ شعر بسعادة لم يشــعر بمثلهـا على الاطلاق من قبل .. فقــال لنفسه ، وقد سيطر عليه انفعــال عنيف : « نعم . سوف ندبر الأمر عـلى احسن وجـه ! » .. ثم استلقى ـ بعد ذلك ـ وقتا طويلا فى سكون ، وهو لا يفعل شــيئا الا ان يمســح عينيه فى فراء ثوبه ويثنى طرف كمه الأيمن الذى كانت الريح تطيح به بين لحظة وأخرى . الا انه شعر أخيرا بانه بحاجة الى من يشاركه فى فرحه ، فنـادى خادمه الراقد تحته قائلا : « نيكيتا ! » ... فجاءه الصوت من تحته مغمغما : « اننى الآن أحسن .. لقد تدفأت ! » .. فأجابه قائلا : « نيكيتا ، يا صديقى ، لابد انك تجمدت من البرد . وانا .. ! »

ومرة أخرى ، راحت وجنتا فاسـيلى تختلجان ، وامتلأت عينـاه بالدموع ، حتى عجز عن أن يقــول شيئا آخر .. ففــكر قائلا فى نفسه : « كلا ، ان الأمر فى غاية السـوء .. برغم أنى أعلم ما أعلم .. » . ثم بقى ساكتا .. وظل راقدا هنـاك . وبدا له أن الدفء ينتقل اليه من نيكيتا الراقـد تحته ، ومن ثوب الفراء الذى فوقه .. الا أن يديه ـ اللتين كان ممسكا بهما أطراف ثوبه ، وهــو يطويه حول نيكيتا ، وقدميه اللتين ـ كانتا معرضتين لهبوب الريح ، فبدأ يشعر بهما مثلجتين ، بل ان يده اليمنى ـ التى كانت بغير قفــاز ـ أصبحت مخدرة .. ومع ذلك ، فانه لم يفكر قط فى يديه أو قدميه ، وانما انحصر كل تفكيره فى الكيفية التى يبعث بها الدفء فى جسد الخادم الذى كان نائما تحته .

***

وأدار عينيه أكثر من مرة ناحية الجواد ، وأبصره وقـد انكشف ظهره ، اذ كانت الفرارة قد سقطت عنه ، واستقرت

فوق الثلج .. وشعر أن من الواجب عليه أن يقوم ويعيد وضع الفرارة فوقه ، الا أنه لم يشأ أن يترك نيكيتا لحظة واحدة ، فيفقد بذلك شعور الفرح العجيب الذى كان مسيطرا فى هذه اللحظة عليه .. أما مخاوفه ، فقد ذهبت كلها عنه . وحينئذ قال لنفسه مزهوا بالجهد الذى يبذله لتدفئة نيكيتا : « وحق السماء ، لن أغلب على أمرى ! » .. قال ذلك بذات نغمة الخيلاء التى اعتاد أن يتكلم بها عن صفقاته ، ومبيعاته ومشترواته .

وظل راقداً هكذا ساعة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة .. الا إنه لم يشعر بمرور الوقت . وتراقصت – فى مبدأ الأمر – أمام بصره صور غامضة للعاصفة ، ولعريش العربة ، وللجواد تحت سرجه المرتفع .. **ثم تلاشت هذه الصور ، وحلت محلها ذكريات – مختلطة بعضها بالبعض الآخر – عن العيد، وزوجته ، والمأمور ، وصندوق الشموع . ولكنه تمثل – تحت صندوق الشموع – نيكيتا راقدا !**

وما لبث أن تعاقبت أمامه صور الفلاحين وهم يتعاملون معه ، والجدران البيضاء لمنزله ذى الأسقف الحديدية .. ومرة أخرى ، تمثل تحت صورة هذه الجدران نيكيتا راقدا !.. ثم اختلط كل شىء ، وتداخل كل شىء فى غيره من الأشياء ، حتى بدت الصور أمام ناظره كألوان قوس قزح ، وقد غاص فى لجة من النور الأبيض .. ثم استغرق فاسيلى فى النوم .. ونام وقتا طويلا بغير احلام ، الا أنه – قبل الفجر – لاحت له بعض رؤى النوم ، فتمثل نفسه واقفا عند صندوق الشموع . وكانت الأم « تيخونوفا » تطلب منه شمعة بخمسة كوبيكات لتوقدها فى العيد ، فحاول أن يأخذ الشمعة من الصندوق ويعطيها اياها ، الا أن يديه ظلتا ملتصقتين فى جيبى سترته ..

ثم حاول أن يسير الى الناحية الأخرى من الصندوق ، الا أن قدميه رفضتا أى حركة .. وفجأة ، لم يعد الصندوق صندوقا على الاطلاق ، وانما انقلب الى فراش .. وفوق ذلك الفراش ، رأى فاسيلى نفسه راقدا ووجهه الى أسفل . وخيل اليه أن ذلك الفراش هو فراشه الذى بالمنزل ، وأنه راقد عليه ، وليس بوسعه أن ينهض .. مع أنه كان يشعر بضرورة ذلك ، اذ أن المأمور « ايفان ماتفيتش » ، كان آتيا ليقابله ، كما كان عليه أن يذهب مع ايفان لشراء بعض الأخشاب ، أو لأمر آخر لايدرى ما هو .. وقد ظل يسأل زوجته قائلا : « ألم يأت بعد ، يا ميكولوفنا ؟ » .. وظلت هى تجيبه : « كلا . لما يأت بعد ! » . ثم أمكنه أن يسمع صوت عربة بالخارج .. فلاشك أنه هو .. ولكن العربة مرت ولم تقف .. فسأل زوجته مرة أخرى ، قائلا : « ألم يأت بعد ؟ » . ومرة أخرى ، أجابته قائلة : « كلا . لم يأت بعد ! »

وهكذا ظل نائما على الفراش ، غير قادر على النهوض ، وظل ينتظر وينتظر .. وكان الانتظار — فى ذات الوقت — مؤلما ومفرحا ..

وفجأة ، بلغ ماقيه من الفرح ذروته : فقد جاء من كان ينتظره .. ولكنه لم يكن ايفان ماتفيتش ، ولم يكن أى شخص آخر .. ومع ذلك فقد كان هو الذى ينتظره .. وقد دخل ذلك الرجل ، وناداه .. واهاب به — مرة أخرى — أن يذهب ويرقد فوق نيكيتا .. وكان فاسيلى مسرورا بأن هذا الرجل قد جاء ، فصاح فى غمرة فرحه : « نعم . ساذهب ! » .. الا أن هذه الصيحة أيقظته .

نعم . لقد استيقظ .. الا انه استيقظ رجلا مختلفا كل الاختلاف عن ذلك الذى كانه حين استغرق فى النوم ..

وقد حاول أن ينهض فلم يستطيع .. حاول أن يحرك يده ، فلم يستطع .. حاول أن يحرك قدمه ، فلم يستطع .. ثم حاول أن يدير راسه ، الا أنه عجز عن هـذا أيضا .. وقد اثار ذلك دهشته ، ولـكنه لم يسبب له أى انزعاج أو اضطراب .. وفى هذه اللحظة ، تذكر أن نيكيتا يرقد تحته، وأن نيكيتا يزداد دفئا ، وأنه يعود الى الحيـاة .. **وقد خيل اليه أنه هو نيكيتا ، وان نيكيتا هو ، وان حياته لم تعد فى داخله ، وانما فى داخل نيكيتا .. وقد أرهف أذنيه حتى امكنه ان يسـمع صـوت تنفس .. نعم . كان ذلك هـو التنفس الواهن العميق الذى يصدر عن نيكيتا** . فصاح فى نفسه فى انتصار : « نيكيتا حى .. وكذلك أنا حى ! » .. ثم بدأ يـفكر فى أمواله ، ومتجره ، ومنزله ، ومبيعـاته ومشترواته ، وملايين ميرونوف .. ثم لم يستطع ان يفهم كيف أن ذلك الرجل ــ الـذى يسـميه النـاس فاسيلى بريخونوف ــ يجد سروره فى مثل هـذه الأشياء .. وراح يقول فى نفسه : « ان هـذا الرجل الـذى يدعى فاسيلى بريخونوف لايمكن أن يكون قد عرف ما هـو أعظم الأشياء على الاطلاق .. لايمكن أن يكون قد عرف ما أعرفه أنا .. نعم ، اننى أعرف ذلك معـرفة اكيدة الآن .. أخـيرا ، انا أعرف !! »

ومرة أخرى ، سمع الرجل يناديه .. ذات الرجل الذى كان يناديه من قبل .. وكان كيانه كله غارقا فى السعادة وحنان الحب ، حين أجاب قائلا : « أنا آت ، انا آت ! » .. وقد شعر حينئذ أنه ــ أخيرا ــ أصبح طليقا ، وأنه ما من شىء يمكنه أن يقيده بعد ذلك . وبالفعل ، فان شيئا آخر غير هذا لم يره أو يسمعه أو يحسه فاسيلى أندريتش فى هذا العالم [*]

وكانت العاصفة تدوى من حوله ، ودوامات الثلج تدور فى طيات الأعاصير وتغطى أردية فاسيلى أندريتش ، الذى كان قد أصبح جثة هامدة ، والجواد الذى كان يرتجف ، والعربة التى كان قد اختفى معظمها الآن .. وقد تمدد فى داخلها نيكيتا وقد ارتدت اليه الحيـاة ، وهو مستلق تحت جثة سيده ، الذى كان قد مات !

- ١٠ -

• استيقظ نيكيتا قبيل بزوغ الفجـر ، وكان الـذى أيقظه هو الصقيع الذى تسرب تحت ظهره .. وكان يحلم بأنه خارج من الطاحونة بحمـل من الدقيق يخص سيده ، وبدلا من أن يتخـذ طريق الجسر المـار فوق الترعة ، خاض الماء خوضا .. وفى القاع ، التصقت قدماه التصاقا شديدا ، فلم يتمكن من نقلهما خطـوة واحدة . والفى نفسه - وقد ناء بحمله - وهو يحاول أن يرفعه ، ويجتهد فى أن ينصب ظهـره .. الا أن الحمـل مع ذلك لم يتحرك - لدهشته - وانما لصق بظهره ، فلم يستطع ان يحركه أو ينسحب من تحته .. وشـعر انه يوشك أن يكسر حقويه ، وأنه شديد البرودة ، حتى لقد أثلج ظهره .. وراح يفكر فى أنه ينبغى بأى ثمن أن يخرج من تحتـه . ووجد نفسه يصرخ قائلا : « قف مكانك ! » ، للشخص الذى كان يتسبب فى أن يكسر الحمل ظهره . ومع ذلك ، فقـد ظل الحمل يزداد برودة أكثر فأكثر .. وفجأة ، سمع شيئا ما يفرقع فرقعة عالية ، فاستيقظ يقظة تامة وتذكر ما حدث .. كان ذلك الحمـل المثلج هو سيده الميت المتجمد من البرد .. وتلك الفرقعة العالية ، كان سببها « براونى » ، وقد راح يضرب حوافره فى العربة !

وصاح نيكيتا مناديا سيده : « أندريتش .. أندريتش! » وان كان قد أدرك الحقيقة بالفعل نصف ادراك . وراح يحاول أن يرفع ظهره بمشقة .. الا أن أندريتش لم يحر جوابا ، وقد كان جسده باردا ومتصلبا وثقيلا كالحديد .. ففكر نيكيتا فى نفسه قائلا : « لاشك أنه مات ! » . وأدار رأسه ، وأزاح الثلج عن وجهه ، وفتح عينيه .. وكان الضوء قد غدا ساطعا ، والريح لاتزال تدوى بين ذراعى عرش العربة ، ووابل الثلج يتساقط كما كان .. الا أنه لم يعد يلطم جنبات العربة ، وانما راح ينزلق فى سكون فوقها وفوق الجواد . وكان الأخير متجمدا ، ولم يعد يسمع منه حتى صوت تنفسه .. ففكر نيكيتا فى نفسه مرة أخرى قائلا : « لابد أن براونى تجمد هو الآخر ! » .. ولاشك أن تلكما الخبطتين العاليتين على العربة ، اللتين ايقظتاه ، كانتا آخر جهد بذله الجواد — الذى اصبح الآن ميتا متجمدا — كى يظل واقفا على قدميه .

وحينئذ هتف نيكيتا قائلا : « يا الهى ، يا أبانا الحبيب الذى فى السموات ، لابد أنك ستدعونى أنا أيضا .. فان كان كذلك ، فلتكن مشيئتك ، فلسوف يكون قاسيا أن يؤخذ اثنان منا ، وأن يترك الثالث .. فليأت الموت حين يشاء ! » . وسحب يده مرة أخرى ، وأغلق عينيه واستغرق فى النوم ، مقتنعا تمام الاقتناع بأنه — فى هذه المرة — قد مات حقا !

***

وحوالى الظهر فى اليوم التالى ، جاء بعض الفلاحين وحفروا فى الثلج ، ليخرجوا فاسيلى ونيكيتا ، على بعد سبعين ياردة فقط من الطريق ، وعلى مسيرة فرسخ من

القرية .. وكان الثلج قد تراكم فوق العربة حتى غطاها تماما ، الا ان العريش ــ ومن فوقه المنديل ــ ظلا ظاهرين .. اما « براونى » ــ وكان قد دفن الى خاصرته فى الثلج ــ فقد بدا ككتلة متجمدة ، وفمه ــ من أثر الموت ــ مزموم بشدة ، ورقبته متصلبة ، وخياشيمه مجللة بقطع الجليد ، وعيناه مفلقتان بالثلج ، وقد هطل منهما ذوبه كأنه الدموع المتجمدة .. وقد ضمر ضمورا مروعا فى تلك الليلة الواحدة ، حتى لم يبق منه غير جلد وعظام .

اما فاسيلى فقد كان كذلك متيبسا كجيفة جافة . وحينما سحبوه من قدميه تدحرجت جثته من فوق نيكيتا ، ككتلة صلبة .. وكانت عيناه جاحظتين ، وفمه المفتوح قليلا تحت شاربه المتهدل ، كان ممتلئا بالثلج .

ولم يوجد حيا غير نيكيتا ، وان كان قد تجمد ــ بفعل الصقيع ــ من راسه الى قدميه .. الا انه ، حينما استرد وعيه ، لم يقتنع بأنه لم يمت ، وان كل ما كان يحدث له ، لم يكن فى العالم الآخر .. **وكان شعوره الأول ــ حين سمع صياح الفلاحين فوقه ــ وهم يحفرون لاخراج العربة ، ثم وهم يدحرجون فاسيلى المتصلب من فوقه ، أن هذا الصياح انما يصدر عنهم فى العالم الآخر ، وان كانوا يصيحون فى هذا العالم ، ولهم اجساد هذه الدنيا !**

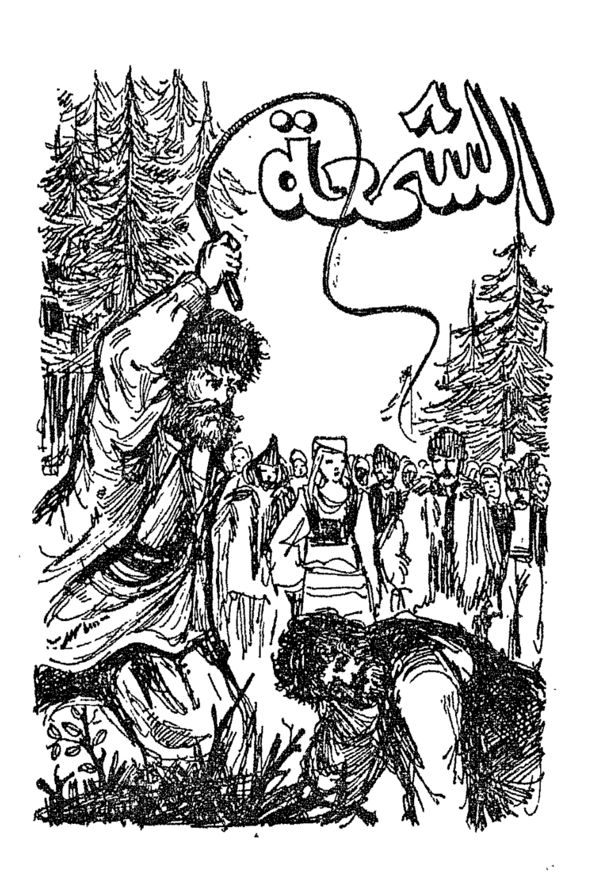
فلما أدرك أخيرا انه فى هذا العالم حقا ، شعر بالكدر أكثر مما شعر بالسرور ، لاسيما اذ احس بأن أصابع يديه كلتيهما متجمدة .

وقد ظل راقدا فى المستشفى زهاء شهرين ، حيث وجدوا أنه لابد من بتر ثلاثة من أصابعه .. الا أن باقى الأصابع شفيت ، فأمكنه أن يواصل العمل ثانية ، وان يعيش عشرين سنة أخرى .. واشتغل ــ فى مبدأ الأمر ــ عاملا ، حتى اذا

تقدم فى السن ، عمل خفيرا .. ولم يمت الا هــذا العام ، وقد مات فى بيتــه ، تحت ايقــونات القــديسين ، وشــمعة مضاءة فى يده ، كما كان على الدوام يتمنى .. وقبل موته ، ودع زوجته العجوز ، وغفر لها علاقتها بصانع البراميل .. كما ودع ولده واحفاده .. ومات سعيدا أعظم سعادة ، اذ كان يعتقد أن موته سيوفر على ولده وزوجة ولده أحــد الأفواه التى تلتهم الطعام ، وانه فى هذه المرة سينتقل حقــا من تلك الحياة الشــاقة التى ما فتئت متاعبها تزداد على كاهله يوما بعد يوم ، الى الحياة الأخرى التى كان يتضاعف اغراؤها له فى كل عام من الأعــوام ، بل فى كل ســاعة من الساعات .

اتراه الآن فى حــال احسن أم أسوأ ، بعــد انتقاله الى العالم الآخر ؟.. وهل كان ياترى مخدوعا ، أم انه وجــد حقا ما كان يتوقعه ويتوق اليه ؟

لن نلبث أن نعرف ذلك جميعا !



« لقد سمعتم كيف قيل عين بعين وسن بسن .
اما انا فاقـول لكم لا تصنعوا الشر » .

• حدث هذا فى عهـد السادة ، قبل تحرير العبيد عام ١٨٦١ . فقد كان ثمة أنواع مختلفة من السادة : منهم أولئك الذين يتذكرون الله وسـاعة الموت ، فيبـدون الرحمـة لعبيدهم .. ومنهم آخرون تحجرت قلوبهم ، فهم لا يتذكرون شيئا . **وكان أسوأ هـذا النوع أولئك الذين كانوا هم أنفسهم عبيدا . وهم رجال ارتفعوا من الوحل كى يشاطروا الأمراء عيشهم . فكانت الحياة تحت رحمتهم أبشع أنواع الحياة !**

وكان من هؤلاء ذلك النـاظر الـذى عين فى ضيعـة شاسعة ، كان فلاحوها يعملون بنظام « البارشينا » وهـو نظام يعمـل الفلاحون بمقتضـاه فى الأرض بضـعة أيام فى الاسبوع بغير أجر . وكانت الضيعة متسعة ، وبديعة ، تشـتمل على مروج وغابات وعيـون ماء فياضة . وكانت السعادة تشمل المالك والفلاحين على السواء ، حتى حـدث ان عين المالك ذلك العبـد من عبيد أسرته المقيمـة فى اقليم آخر ، ناظرا لهذه الضيعة .

وقد اتخذ هذا الناظر لنفسه مكتبا ، وبدأ يضغط عـلى الفلاحين ضغطا شديدا . **وكان ذا أسرة تتكون من زوجة وبنتين متزوجتين ، وقد تكالب على جمع المال بكل وسيلة صالحة أو شريرة ، لأنه كان طموح النفس واحمقها فى ذات الوقت** . وقـد بدأ يقسر الفلاحين على زيادة الأيام التى لم يكونوا يتناولون أجرهم فيها ، حسب نظام « البارشينا » . ولما كان قد شرع فى اقامة مصنع طوب ، فقد اجبر الفلاحين على العمـل ـ رجالهم ونساءهم ـ الى حـد الموت ، حتى

يستكثر من الطوب ويجمع المال من بيعه . وقد ذهب بعض الفلاحين الى موسكو ليقدموا شكواهم لمالك الضيعة ، الا ان مسعاهم لم يجد نفعا . فقد أعادهم المالك صفر اليدين، ولم يفصل اى شىء ليكبح جماح الناظر . وما أن سمع الناظر أن الفلاحين اشتكوا ، حتى شرع ينتقم منهم ، بأن جعل نصيبهم من العمل اليومى أكثر من ذى قبل . فضلا عن أن بعضهم كانوا نمامين ، فراحوا يدسون بعضهم للبعض الآخر عند الناظر ، ويحكى بعضهم الحكايات عن بعض ، فكانت النتيجة أن ازداد الناظر عليهم تجبرا وعتوا .

وما فتىء الحال يزداد سوءا ، حتى أصبح الناظر — فى نهاية الأمر — مخلوقا متوحشا ، شرسا ، مرهوب الجانب من الفلاحين . فأينما ذهب خلال القرية ، كان كل انسان يهرب من طريقه كما يهرب من ذئب مفترس ، ويجتهد بكل ثمن أن يتجنب وقوع عينه عليه . **وكان الناظر يتميز غيظا ، ويحتدم هياجا اذ يراهم يخافونه هكذا . وكان يسخر الفلاحين فى العمل ، ويجلدهم . وكم من واحد منهم انبجست جروحه تحت وقع سياطه** . على أن يأس الفلاحين لم يلبث أن بلغ مبلغه ، فاشتد سخطهم على هذه الأفعال الدنيئة ، وبداوا يتكلمون فيما بينهم . وكانوا يجتمعون معا فى بقعة منعزلة ، ويقول واحد من أشدهم جرأة : « حتى متى نصبر على هذا الحيوان المتوحش الذى يحكمنا ؟ الا فلنخمد أنفاسه للأبد .. ليست خطيئة ولا جرم أن نقتل رجلا كهذا ! »

***

وذات مرة ، صدر الأمر للفلاحين بأن ينظفوا الغابة من أوراق الشجر المتساقطة . وكان ذلك قبيل ابتداء الاسبوع

المقدس . فلما اجتمعوا معا ـ منذ منتصف النهار ـ ليتناولوا غداءهم ، بدأوا يتكلمون مرة أخرى . وقال قائلهم : « كيف نصبر على هذه الحال ، وهذا الرجل يقودنا الى الهلاك ؟.. انه يقسرنا على العمل الى ساعة متأخرة ، حتى لم يعد يتسنى لنا ولا لزوجاتنا الحصول على لحظة راحة أثناء النهار أو الليل . واذا نحن لم نفعل شيئا لمثله فسيزداد تجبرا ويضربنا .. وها هو ذا سيمون قد مات من ضربه بالسياط ، « وانيسيم » يكابد الآلام المبرحة فى المخزن . فماذا ننتظر بعد ذلك ؟.. **ان هذا الحيوان سيأتي هنا الليلة ، وكل ما يلزمنا ان ننتزعه عن جواده ، ونضربه بالفأس على رأسه ، فينتهى بذلك كل شىء .. ولنأخذ الجثة بعد ذلك الى مكان ما ، فنقطعها ، ونلقى بأطرافها فى الماء ..** الشىء الوحيد الذى نحتاج اليه الآن ، هو أن نجمع على الأمر ونكون يدا واحدة ، فلا ينبغى أن تكون هناك خيانة بيننا ! »

وكان « فاسيلى مينابيف » ـ على الخصوص ـ ملحا فى ذلك مصمما عليه ، بسبب ضغينة بينه وبين الناظر .. فان هذا الاخير لم يكن يجلده كل أسبوع فحسب ، وانما كان يقسر زوجته كذلك على أن تكون طباخة له .

وهكذا راح الفلاحون يتحدثون فيما بينهم . وفى المساء وصل الناظر ، فما ترجل عن جواده حتى احتدم غضبا وهياجا ، فان العمل لم يعجبه . فضلا عن أنه اكتشف غصنا مدسوسا فى حزمة من حزم الحطب . فوجه القول الى الفلاحين قائلا : « الم اقل لكم الا تقطعوا أشجار الزيزفون ؟.. فمن فيكم فعل هذا ؟.. قولوا لى ، والا فاننى سأجلدكم جميعا ! » .. وكرر سؤاله عمن كان فى حزمته فرع الزيزفون ، فأشاروا الى « سيدور » . فما كان من

الناظر الا ان ضربه بالسوط على وجهه . حتى انبجس الدم منــه . وضرب فاسيلى كذلك بســوطه ، لأن كومته كانت صغيرة جداً . وعاد بجواده مرة اخرى .

وفى ذلك المساء تجمع الفلاحون كالعادة ، وقال فاسيلى : « اية مخلوقات انتم ؟ .. ما انتم برجــال ، وانمــا انتم عصــافير .. فانكم ما تفتأون يقول واحــد منكم للآخر : « قف مستعداً الآن . قف مستعداً » . حتى اذا حانت اللحظة الحاسمة ، تولاكم الخوف جميعا .. هذا بالذات ما تفعله العصافير حين تتأهب لمقاومة الصقر . فهى ما تفتأ تقول بعضها لبعض : « قف مستعداً الآن . قف مستعداً . ولا يخونن احدكم الآخر » ، الا أنها حين يحوم الصقر تهرع مذعورة الى اعشاشها ، فيأخذ الصقر من بينهــا العصفور الــذى يروق له ، ويطير به متدليــا فى مخالبــه ، ثم تقفز العصــافير مرة أخــرى صائحة : « توت .. توت » . فاذا تبينت أن واحداً منها قد اختفى ، قالت : « من منا ذهب ؟ .. أوه ! انه فانيا الصغير . حسنا ، هــذا أمر الله وقد ذهب ضحية من اجلنا ! » .. هذه حالكم يا هؤلاء ، اذ تصيحون « لا خيــانة . لا خيــانة ! » . حينما ضرب هــذا الرجل « سيدور » ، كان يجب أن تقتلوا قلبه ، وتقضوا عليه . ولكن ، كلا .. كان كل ما فعلتموه قولكم : « قف مستعداً . استعد ! لا خيــانة ! لا خيــانة ! » ، فلمــا حوم الصقر ، انطلق كل منكم يختبىء فى الغابات ! »

وتكلم الفلاحون ، وأسرفوا فى الكلام فى هذا الموضوع ، حتى لقد غدوا آخر الامر مهيأين للقضاء على الناظر .. وقد حدث فى الامسية السابقة على أسبوع الآلام ، أن أرسل اليهم الناظر يأمرهم بالتأهب لحرث الارض واعدادها لزراعة الشوفان . فرأى الفلاحون فى ذلك اهانة وانتهاكا لحرمة أسبوع الآلام ،

واجتمعوا لذلك فى الفناء الخلفى لمنزل فاسيلى ، وراحوا يبحثون الامر قائلين : « اذا كان قد نبى الله ، وقد أصدر أمره الينا بأن نقترف مثل هذه الامور ، فقد بات لزاما علينا ان نقتله !.. فلنفعل ذلك ـ هذه المرة ـ من اجلنا جميعا » .

***

وذهبوا بعد ذلك الى « بيتر ميتشيف » ، واجتمعوا به . وكان بيتر رجلا مسالما ، لم يشترك من قبل فى هذه المناقشات ، وقد أنصت اليهم ، ثم قال : « انكم يا اخوانى مقدمون على خطيئة كبرى ، فانكم اذ تأخذون حياة انسان ، ترتكبون جرما شنيعا . من السهل أن تهدروا حياة امرىء ما ، ولكن ما شأن حياتكم أنتم ؟.. اذا كان هذا الرجل يرتكب أمورا شريرة ، فالشر اذن ينتظره . أما أنتم يا اخوانى ، فلستم فى حاجة الا الى الصبر ! »

وثار فاسيلى لهذه الكلمات ، قائلا : « ليس ثمة ـ فى نظرك أنت ـ الا اعتبار واحد ، وهو أنه من الخطيئة قتل رجل .. **ان قتل الرجل خطيئة حقا ، ولكن ليس فى هذه الحال التى نحن بصددها .. من الخطيئة قتل رجل فاضل، ولكن ماذا عن كلب كهذا ؟.. لقد أمرنا الله أن نقتله ، كقتل كلب مجنون من أجل شخص .. بل أننا لو تركنا هذا الشخص يعيش ، لارتكبنا خطيئة أعظم من خطيئتنا اذ نقتله !** .. لماذا هو يمعن فى تحطيم حياتنا ؟.. اننا اذ نقتله انما نفعل ذلك من أجل أبنائنا ، ولسوف يشكروننا من أجل ذلك . ان كلامك فارغ يا ميتشيف . أتكون خطيئة أقل إذن ، ان نذهب ونعمل خلال الاحتفال المقدس بآلام المسيح ؟.. أنت نفسك لا تنوى أن تذهب بالتأكيد ! »

واجاب بيتر قائلا : « لماذا لا اذهب ؟.. اذا صدر لى الامر بأن أحرث ، فسوف أطيع . لن افعل ذلك من أجل نفسى ، والله وحده يعلم لمن تعزى الخطيئة . اما نحن ، فكل ماعلينا هو ان نجعل الله ماثلا فى أذهاننـــا ونحن نحرث .. **ليست هذه كلماتى يا اخوانى . فلو أن الله أراد أن ندفع الشر بالشر لأعطانا شريعة لذلك ووجهنا اليه كما يوجهنا الى الطريق . لو انكم قاومتم الشر بالشر ، فسوف يرتد شركم اليكم !..** انها لحماقة أن تقتل رجلا ، لأن الدماء تلطـخ الروح . خذ روح رجل ، ولســـوف تغمس روحك أنت فى الدماء ، ولو كنت تظن أن الرجل الذى قتلته شريرا ، وانك بذلك دفعت الشر عن العالم .. أنظروا ، انكم اذ تقتلونه انما ترتكبون شرا أشد نكرا من كل شروره .. استسلموا للبلايا ، وحينئـــذ تستسلم البلايا لكم ! »

وبعد هذا ، انقسم الفلاحون فى الرأى . فبعضهم كان متفقا مع فاسيلى ، وبعضهم الآخر انضم الى بيتر واحترم نصيحته بأن يلزموا الصبر ويمسكوا عن ارتكاب الخطيئة .. فلما كان اليوم الاول من أســـــبوع الآلام — وهو يوم الاحد — ظل الفلاحون ممتنعين عن العمل ، حتى اذا جاء المساء ، وفــد وكيل الناظر مع رجاله من الضيعة وقال لهم : « ان الناظر ميخائيل سيمنوفيتش ، قد ارسلنا لننذركم وننبهكم الى أن تبـادروا فى الغـــد الى حرث الارض واعدادهـــا لزراعة الشوفان » .

وذهب الوكيل ورجاله خلال القرية ، وقالوا للفلاحين أن يذهبوا للحرث فى اليــوم التالى : بعضهم على حذاء النهر ، وبعضهم الآخر ابتداء من الأكمــة .. ووقع الفلاحون فى غم عظيم ، وان لم يجسروا على عدم الطاعة . وفى اليوم التالى ، ذهبــوا فى الموعد المضروب مع دوابهم ، وشرعوا فى الحرث ،

بينما كانت اجراس الكنائس تدق من أجل قداس الصباح .. كان الناس جميعا يراعون حرمة الاحتفال المقدس ، عدا الفلاحين .. فقد كانوا يحرثون !

***

وفى ذلك الصباح ، استيقظ النـــاظر متأخرا من نومه ، وراح يمر على أهل منزله كعادته . وكانوا جميعا قد تأنقوا فى مظهرهم ، ولبسوا أفخر ثيابهم . وكانت العربة تنتظرهم وقد اعدها الخادم لهم ، فركبوها الى الكنيسة . وعنـــد عودتهم أعدت الخادمة لهم الافطار . فلمـــا عاد الناظر من الزراعة ، جلس الجميع لشرب الشاى . واذ انتهوا من ذلك، أشعل ميخائيل غليونه ، واستدعى الوكيل ، وسأله قائلا :

« هل أرسلت الفلاحين للحرث ؟ »

ــ نعم يا ميخائيل سيمنوفيتش .

ــ ذهبوا جميعا ــ أليس كذلك ؟

ــ نعم ، جميعا .. وقد وزعت العمل بنفسى .

ــ حسنا . قد تكون فعلت ذلك . ولكن هل هم يحرثون بالفعل ؟.. هـــذا هو السؤال .. اذهب وانظر ذلك ، وقل لهم اننى قادم بنفسى بعد تناول الغداء . وقل لهم كذلك أن كل اثنين من الفلاحين يجب أن يحرثا « دســـياتين » وأن يكون الحرث جيـــدا .. لو أننى وجدت أى خطأ ، فلسوف أتصرف طبقا لذلك ، سواء أكان اليوم عيد أو غير عيد !

ــ حسنا جدا يا ميخائيل سيمنوفيتش .

وكان الوكيل على وشك الذهاب ، حين استدعاه ميخائيل ثانية . وقد استدعاه ثانية ، لأنه أراد أن يقـــول شيئا آخر له ، ولو أنه لم يدر كيف يقوله ، فراح يهمهم بعض الوقت ثم قال أخيرا : « أريدك أن تنصت كذلك لمـــا يقـــول أولئك

الاوغاد عني .. حتى اذا سمعت أى واحد منهم يسبنى ، فتعال وانبئنى بكل ما قال .. **انني أعرف حق المعرفة اولئك اللصوص ، فهم لا يحبون العمـــل . وكل ما يحبــونه هو الاستلقاء على ظهورهم والرفس بكعوبهم .. البطالة والاجازة .. هذا ما يحبونه . فاذهب وانصت لما يقولون ، واعرف القائلين ، وتعال وقل لى !..** اذهب واعرف كل شيء ، وقله لى ، ولا تخف عنى شيئا .. تلك هي أوامرى لك ! »

وخرج الوكيل مرة اخرى ، فامتطى جواده ، واتجـه الى الفلاحين فى الحقول .

وسمعت زوجة الناظر ما قاله زوجها للوكيـل ، فجاءت اليه كى تتشفع للفلاحين ، اذ كانت امرأة نبيــلة الخلق ، وكان قلبها فاضلا .. وما من فرصة كانت تسنح لهـا الا انتهزتها لتحاول أن تستدر عطف زوجها على الفلاحين ، أو تدافع امامه عنهم . ولهذه الغاية أقبلت .. فى ذلك اليوم . وقالت له متوسلة : « يا عزيزى ميخائيل ، لا ترتكب هـذه الخطيئة الكبرى ضـد الاسبوع المقـدس للرب !.. دع الفلاحين يذهبـون من أجل خاطر المسيح ! » .. ولـكن ميخائيل لم يكترث بما قالته ، وضحك منها وقال لها : « هل أصبح السوط الى هذا الحد غريبا عن ظهرك ؟ .. الى هذا الحد وصلت جرأتك لأن تتدخلى فيما ليس من شأنك ؟ »

ــ ولكنى رأيت ، يا عزيزى ميخائيل ، حلما مزعجا للغاية عنك ، فاستمع لى ، ودع الفلاحين يذهبون !

ــ كل ما عندى لأقـوله لك ، انك تتجاوزين حـدودك تجاوزا فاضحا ، وتحتاجين الى ضربة سوط اخـرى .. خذى هذا !

وفى غضبه ، دفع لهيب الغليون بين شفتيها ، والقى بها خارج الغرفة ، طالبا ارسال غـدائه اليه فى غرفته ..

وسرعان ما وضعت أمامه عصيدة الهلام ، والفطاير ، وحساء الكرنب ، ولحم الخنزير المملح ، ولحم الخنزير المقـــدد ، وعجينة الشعيرية .. فالتهمها جميعا ، ورطبهـــــا بنبيذ الكريز ، ثم ختم كل ذلك بالفواكه والحلوى . حتى اذا فرغ من ذلك كله ، نادى اليه الطباخة ، واجلسها الى البيـــانو .. لتعزف له ، بينما تنـــاول « الجيتار » ، وصاحبها فى العزف ..

***

هكذا كان يمرح ويشرح صدره على رنين الاوتار ، وهـــو يداعب الطاهية ، حين عاد الوكيل ، وانحنى أمام ســـيده ، ثم بدأ يقص ما رآه فى الحقول .. فسأله ميخائيل : « هل هم يحرثون ، كل رجل فى قطعته ؟ » .. فأجـــابه الوكيل : « نعم ، وقد حرثوا النصف بالفعل » .

ـ أليس من تمرد على العمل ؟

ـ كلا ، لم أر شيئا .. وهم يحرثون حرثا حسنا ، لأنهم خائفون أن يفعلوا غير ذلك .

ـ وهل الحفر جيد ؟

ـ نعم . أنه ناعم جدا ، ورفيــــع كحب الخشخاش .

وسكت الناظر برهة ، ثم استطرد قائلا : « حسنا . وماذا يقولون عنى ؟ هل يسبوننى ؟ » .. فتردد الوكيل ، ولكن ميخائيل طلب اليه ان يذكر الحقيقة ، قائلا له : « قل لى كل شىء . انها ليست كلماتك التى ســـــتذكرها ، وانما كلماتهم . قل لى الحقيقة وســـوف أكافئك . ولكنك ان تسترت على هؤلاء الفلاحين فلن أريك رحمة ! ســـأجلدك جلدا شديدا .. يا كاتيشـــــكا ! اعطه زجاجـــة فودكا ليتشجع ! » .

وذهبت الطاهيـــــة وجاءت بزجاجة ممتلئة وأعطتها للوكيل . ومع أن هذا كان يبدى الاحترام لســـيده ، فقد جرع الشراب ومسح فمه وراح يتكلم ، بعد ان قال لنفسه : « ليس ذنبى — على أية حال — انهم لم يقولوا كلمة ثناء عنه . وعلى ذلك فأننى سأقول الحقيقة مادام يطالبنى بها » .

وتذرع الوكيل بالشجاعة ، وراح يقول : **« انهم يتذمرون يا ميخائيل سيمنوفيتش .. أنهم يتذمرون بشكل مخيف ! »**

— ولكن ماذا يقولون بالضبط ؟.. قل لى !

— شىء واحد يقولونه جميعا ، وهو أنك لا تؤمن بالله .

فانفجر الناظر بالضحك ، وسأله قائلا : « من منهم يقول ذلك ؟ » . فقال : « كلهم يقولون ذلك . أنهم يقولون — فى الحقيقة — أنك تخدم الشيطان » .. فازداد الناظر ضحكا وقال : « ان هذا بديع . والآن قل لى ماذا يقــول كل منهم على حدة عنى ؟.. ماذا يقول صاحبنا فاسـيلى — مثلا — عنى ؟ »

وكان الوكيل حتى الآن محجما عن أن يشى بأصدقائه . أما وقد كان بينه وبين فاســـيلى ثأر قديم ، فقـد انطلق يقول : « ان فاسيلى يلعنك أكثر من الجميع » .

— اذن قل لى : ماذا يقول ؟

— تمنى خجل من أن أردده ، ولكنه يأمل فى أن تصل الى نهاية تعيسة يوما ما .

فقال الناظر : « أحقا يقول هكذا ، ذلك الشاب ؟ لا بأس ، فان يتسنى له أبدا أن يقتلنى ، لأنه لن تتاح له الفرصـــة لأن يضع يده على . حسنا جدا ، أيها الصديق فاســيلى ، لسوف نصفى أمورنا معا .. وماذا يقـــــول ذلك الوغد تيشكا ؟ »

— الواقع انه ما من احد يقول كلمـة طيبة عنك .. كلهم

يلعنونك ويتفوهون بكلمات التهديد والوعيد .
ـ وماذا عن بيتر ميتشيف ؟.. ماذا يقول ؟.. أقسم أن الوغد العجوز كان ـ هو الآخر ـ أحد اولئك الذين يلعنونني.
ـ كلا .. لم يفعل ذلك يا ميخائيل سيمنوفيتش .
ـ ماذا يقول اذن ؟
ـ انه الوحيد بينهم الذى لم يقل شيئا على الاطلاق ، فهو كثير العلم بالنسبة الى أى فلاح ، وقد تملكنى العجب حين رأيته اليوم .
ـ لماذا ؟
ـ بسبب ما كان يفعل .. لقد كان الآخرون يعجبون منه كذلك !

وتساءل الناظر : « وماذا كان يفعل ؟ » .. فأجابه الوكيل : « كان يفعل شيئا فى غاية الغرابة .. كان يحرث الجزء المعشب من الحقل ، وحينما ذهبت الى ناحيته خيل الى اننى أسمع شخصا يرتل بصوت خافت رخيم ، فى حين كان ثمة فى وسط سهم المحراث شىء مشتعل » . وهتف الناظر : « ماذا ؟ » .

ـ كان هذا الشىء مشتعلا كلسان من نار . وحين اقتربت ، رأيت انها شمعة من النوع الذى يباع بخمسة كوبيكات ، وأنها مثبتة فى سهم المحراث .. وكانت الريح تهب ومع ذلك لم تنطفىء الشمعة !
ـ وماذا قال ؟
ـ لم يقل شيئا ، سوى أن حيانى تحية عيد القيامة حين رآنى ، ثم بدأ يرتل من جديد . وكان يلبس قميصا جديدا ، ويرتل تراتيل القيامة وهو يحرث . وقد أدار المحراث عند نهاية الاخدود وهزه ؛ فلم تسقط الشمعة . نعم . لقد كنت قريبا منه جدا حين هز المحراث ورفع المقبضين . ومع

ذلك ، ففى كل الوقت الذى كان فيه يدفع المحراث ، ظلت الشمعة مشتعلة كما كانت اولا !

ــ وماذا قلت له ؟

ــ لم اقل له شيئا ، ولكن بعض الفلاحين الآخرين جاءوا وبدأوا يضحكون عليه ، قائلين له : « تعال !.. ان ميتشيف سيقضى قرنا يفكر فى موضوع الحرث فى الاسبوع المقدس !

ــ وماذا قال عن ذلك ؟

ــ لم يقل سوى : « على الارض السلام وبالناس المسرة » . ثم انحنى وراح يحرث ، وهو يمس جواده .. وراح يرتل بينه وبين نفسه فى صوت خافت . وظلت الشمعة طول الوقت مشتعلة ولم تنطفىء ابدا !

وكف الناظر عن الضحك ، ونحى الجيتار جانبا ، ومال برأسه على صدره ، وظل غارقا فى التفكير . ثم طرد الطباخة والوكيل ، وظل جالسا وقتا طويلا . وما لبث ان ذهب خلف ستار غرفة النوم ، واستلقى على السرير ، وراح يتأوه ويئن كعجلة تئن تحت حملها . وبينذاك ، ذهبت زوجته اليه وراحت تستعطفه مرة اخرى ، ولكنه ظل وقتا طويلا لا يجيبها . ثم قال اخيرا : « **هذا الرجل قتلنى !** »

وظلت زوجته تتوسل اليه قائلة : « اذهب واطلق سراح الفلاحين . لا شك أن هذا أمر بسيط . فكر فى الاشياء التى فعلتها دون ان تخاف . فلماذا اذن تخاف من ذلك الآن ؟ »

.. ولكنه لم يزد على ان قال : « **هذا الرجل قد قهرنى . لقد تحطمت . اذهبى وانت مازلت سليمة ، فان تفقهى هذا !** »

وهكذا ظل راقدا هناك .

ولكنه قام فى الصباح وذهب الى عمله كالمعتاد . على انه لم يكن ميخائيل سيمنوفيتش الذى كانه من قبل ، بل بدا واضحا انه أصيب بصدمة فى القلب . وبدأت تنتابه

نوبات من الحزن ، فكان يظل مصغيا الى لا شيء ، ويجلس في بيته في سبات عميق . الا أن سلطة وظيفته لم تستمر بعد ذلك . فحين حل عيد القديس بطرس ، جاء المالك ليزور ضيعته . وفي اليوم الاول استدعى ناظره ، ولكن الناظر كان يرقد مريضا .. واستدعاه مرة أخرى في اليوم الثاني ، ولكنه كان ما يزال يرقد مريضا . وحينئذ علم المالك أن ميخائيل قد أكثر من الشراب ، فعزله من وظيفته . وما فتيء ملازما منزله ، لا يقوم بأي عمل ، وهو يزداد حزنا . وكل ما كان يملكه شرب به خمرا وتردى تماما . وقد عاش بعد ذلك أقل من سنة ، ومات أخيرا من « الفودكا » .

تمت





Bibliotheca Alexandrina
0559099